2260
.7417

2260.7417
Qasir
al-Hikayah wa-al-insan

DATE ISSUED | DATE DUE | DATE ISSUED | DATE DUE

Princeton University Library
32101 073828806

وزارة الإعلام
مديرية الثقافة العامة

الحكاية والأنسان

تأليف
يوسف أمين قصير

سلسلة الكتب الحديثة
٣٣

Qaṣīr, Yūsuf Amīn

وزارة الإعلام
مديرية الثقافة العامة

al-Ḥikāyah wa-al-insān

الحكاية والإنسان

تأليف
يوسف أمين قصير

سلسلة الكتب الحديثة
٣٣

2260
.7417

المقدمة

ان الحكايات العامية في طريقها الى الزوال لان وسائل المدنية الحديثة كبرامج التلفزيون والراديو والمسرحيات والسينما اخذت تتخطفها من ابراجها العالية التي اطلت منها منذ الاف السنين وبدأت تحل محلها حتى لم يبق في حياة المجتمعات فراغ تملؤه ولم نعد نسمع تلاوتها ليلا حول المواقد او في الساحات الرحبة تحت سرادق السماء الازرق المرصع بالنجوم فاذا بها أمتع أحاديث الأسمار وأجملها وقعا في النفوس .

ومن مظاهر المدنية الحديثة المطابع التي ترمي في الاسواق ألوف الكتب بأعداد ضخمة وأسعار رخيصة فأخذ الناس ينكبون على قراءتها انكبابا حتى لم يعودوا يتذكرون تلك القصص التي كانوا يسمعونها وهم اطفال من العجائز والشيوخ والقصاصين وهكذا انقضى دور الحكاية وستختفي بين طيات النسيان بعد أعوام قليلة وان طال الأمد ولابد أن تمتد اليها يد الفن لتحفظ ما تبقى منها في كتب مطبوعة تبقى ذكرى بل افضل ذكرى للاحفاد من الاباء والاجداد .

ولقد راودتني فكرة دراسة الحكايات العامية وجمعها منذ أمد طويل فقد كنت مولعا بها منذ صغري وكم شعرت كانني طائر صغير امرح مع خيالاتها المجنحة وكلي اذان صاغية وشوق عارم الى سماع من يسرد علينا وقائعها وحاولت تنفيذ هذه الفكرة واخراجها الى حيز الوجود منذ تخرجي في الكلية ولما كانت دراستي هذه مقصورة على الحكايات العامية فقط التي تدور في عصرنا وهي طبعا لم تسجل لهذا وجب علي ان أجعل مصادري معتمدة على الرواة الذين يحفظونها فوجدت في طلابي أحسن معين لي في

4-26-71 1945

جمعها فكنت اطلب منهم ان يكتبوا لي ماسمعوه في البيت او في خارجه حتى حصلت على مجموعات منها مختلفة من مناطق متعددة .

غير ان هذه المجموعات لاتجدي وحدها لانها عاطلة لم تزنها يد الفن فانصرفت الى دراستها التي لم تكن سهلة فقد كنت أهمل الحكايات الساذجة التي لا تدل على ذوق أو ما أعتقد أنه منقول من كتاب قديم حتى توصلت الى انتقاء عدد يسير من المجموعات الضخمة التي تسنى لي جمعها وهذا لم تكن معالجته سهلة فقد كنت أقرأ كل حكاية مراراً ثم احور في حوادثها غير المنطقية لاجعلها متسلسلة لذيذة وأضيف أو أحذف أجزاء اخرى لاقدم للقاريء قطعة فنية بالفاظ جزلة مختارة ترضي ذوقه ولم اكتف بذلك بل الحقت اكثر الحكايات بتعليقات حللت بها اهدافها واصولها النفسية والاجتماعية والمثل التي تدور حولها وغير ذلك حتى تمكنت بعد جهد جهيد وتعب متواصل من اخراج هذا الكتاب .

اما الدراسات التي يراها القاريء في اول الكتاب فهي دراسات للحكاية ما وجد منها في هذا الكتاب وما وجد في غيره منذ أقدم العصور في كتاب ألف ليلة وليلة وكتب الحكاية الاخرى وانني في هذه الدراسة لم أعتمد مصدرا معينا بل انني استنتجها من تجاربي ومن الآراء والافكار التي قدرت على تكوينها واكتشافها بنتيجة القراءات المتواصلة لانواع الكتب الادبية والفلسفية والقصصية وغير ذلك في مجال حياتي ولو أردت أن أرجع الى مصادر معينة لما تمكنت لان الحكاية لم تدرس دراسة فنية في أدبنا ولم تعط ما تستحقه في كتب الدراسات الادبية والنقد وأكثر الناس ينظرون اليها نظرة صغار باعتبارها انتاجا يقل درجات عن الانتاج الادبي في مختلف فروعه ناسين أن أعظم أثر أدبي قديم تفخر به أمتنا العربية هو ألف ليلة وليلة وحكاياتها التي سحرت الغربيين وجعلتهم لا يعرفون بلادنا الا من خلال أحاديثها الممعنة في الخيال .

(أ) تاريخ الحكاية

ان الحكاية قديمة وجدت مع وجود الانسان ولعله كان يقصها عن طريق الاشارات والحركات قبل أن تستقيم لغته وكل ما يعرف عن نشوئها رجم بالغيب مقتبس من طبيعة الانسان والحكاية وطبيعة الحياة .

لقد كان الانسان القديم صيادا يقطع القفار والغابات ويصعد الجبال في زمهرير الشتاء او حمارة القيظ غير مبال بالامطار الغزيرة او الثلوج أو السيول الجارفة ولابد ان تعترضه بين حين وآخر اخطار فتسد السيول طريقه أو تصادفه حيوانات وحشية شرسة تكاد تقضي عليه أو تثور الصواعق والاعاصير فتخيفه الطبيعة وبعد أن ينجو من هذه وغيرها ويعود الى عائلته مليء الوطاب بصيده الدسم يلقاه افرادها فرحين بعد ان يئسوا من رجوعه وما ان يستقر به المقام بينهم حتى يتجمعوا حوله سائلين عن أسباب تأخره فيقص عليهم ما شاهد وكيف خرج للصيد وقضى ليالي بعيدا عنهم تحيطه الاشباح ويفزعه زئير الاسود وعواء الذئاب وفحيح الافاعي وصفير الجن ثم ينتابه الحماس الشديد فيلقي عليهم قصة بطريقة مؤثرة تتدفق عاطفة وحيوية ويضفي عليها من خياله هالة من الجمال وقد يبالغ هنا وهناك ليكسب نفسه شجاعة لا يستحقها أو ذكاء لا يتصف به حتى يكبر في اعينهم .

وهكذا نشأت الحكاية عند الانسان أو بطريقة أخرى وأخذت تتطور وتضاف اليها الخرافات والمبالغات حتى تبدو وكأنها أحاديث خرافة بعيدة عن الواقع لا تمت اليه بصلة قريبة ولا بعيدة ولا غرو فان الاجيال الناشئة تنظر الى أجدادها نظرة اعظام عندما تسمع قصصهم ومخاطراتهم

ولابد أن تضيف اليها من الحوادث ما يجعلها بعيدة عن الحقيقة وهكذا شأن الانسان حتى الان في عصرنا عصر النور عندما يتناقل المجتمع خبرا من الاخبار أو حادثة من الحوادث الغريبة .

ولعل بعض الحكايات ظهرت عن طريقة سرد الاحلام التي يراها الناس وبخاصة فيما يتعلق بأجدادهم الموتى أو آلهتهم فيجمعون أفراد عائلتهم ويقصونها كأنما يتكلمون عن آلهة أحياء لان رؤيتهم لهم في الحلم لا تدع مجالا للشك في وجودهم وفي حياتهم ثم يأخذون في تناقل هذه الاحلام وكأنها حقيقية وما يزال الخيال يضيف اليها من الحوادث والوقائع حتى تظهر مليئة بالمبالغات والاعمال الخارقة .

وقد نشأت بعض الحكايات أيضا عن طريق الحروب والقتال بين عائلة وأخرى أو قبيلة وأخرى فيأخذ الجانب المنتصر في التهويل والمبالغة متحدثا عن مآثر أبطاله حتى يبدوا أمام الاحفاد وكأنهم آلهة ويبالغ في وصف شجاعتهم بحيث لا يتطرق الشك الى خاطر الانسان في صحتها وان كانت فوق طاقة البشر وحتى فوق طاقة خيالهم فيتخيل السامع الآلهة تحارب معهم واصوات الاجداد تدوي فتفزع الاعداء فيقعون صرعى وحتى الجانب اللائذ بالفرار قد يحول خذلانه وهزيمته الى نصر عن طريق الحكاية فيخترع بطولات يرويها لاحفاده لكي يغرس فيهم الاعتزاز بالنفس والاعتداد بالآباء والاجداد وهكذا .

وعندما بدأ الانسان يعبد الآلهة المختلفة من حيوان وحجر ورموز للطبيعة والانسان احتاج الى قصص تضفي على آلهته هالة من القداسة تؤثر في نفوس الناس فاخترع عددا من القصص لهذا الغرض استغله الكهان فيما بعد فبالغوا فيه وأضافوا اليه ما أضافوا حتى وجدت الحكايات الدينية ذات الخيال الرحب وربما كانت هذه اولى الحكايات التي امتدت اليها يد الفن وأكثرها انتشارا وتأثيرا في النفوس .

ويظهر بين حين وآخر أفراد وهبوا خيالا خصبا لا ينضب معينه فيخترعون الحوادث ويبالغون في نسج الحكايات ليمتعوا بها ابناءهم واحفادهم أو أقرباءهم وأصدقاءهم ليبعثوا فيهم روح الشجاعة وتقديس الاجداد وغالبا ما كان يجلس الاطفال والشباب في أيام الشتاء حيث يصعب الابتعاد عن الكهوف أو في الصيف تحت ظلال الخيام المقامة من جلود الحيوان فيستمعون الى حكايات جدهم أو جدتهم بشوق ولهفة شديدين وهما يحيكان من الخيال أقاصيص سمعوها فأضافوا اليها ما أضافوا أو اخترعوا أكثر حوادثها من عندهم ليقضوا ساعات لذيذة يمتعون بها احفادهم وابناءهم ويبثون فيهم العزمات الصارمة ومقارعة الصعاب والاهوال .

وقد تقع بين حين وآخر كارثة طبيعية تصيب القبيلة فيثور بركان يرمي بحممه الى كل الجهات فيهلك العدد العديد أو تزلزل الارض وهي تدوي بصوت مفزع وتتساقط الكهوف والنيران ويهلك من يهلك من جراء ذلك وقد يحدث فيضان جارف وسيول كاسحة تكتسح كثيرا من ابناء القبيلة أو يهجم قطيع من الذئاب الجائعة شتاء على منازلهم وهكذا ، فهنا يأخذ هؤلاء الذين شاهدوا هذه المآسي بقص ما حدث على ابنائهم واحفادهم ومعارفهم ويتناقلها الناس بعضهم عن بعض حتى تصير بعد مدة حكاية بعيدة عن واقعها الاصلي فيها الخوارق والآلهة وما لا يمكن أن يحدث فوق سطح البسيطة .

(ب) تطور الحكاية

اتخذت الحكاية أول ما ظهرت في شكلها الفني وسيلة لتزجية الساعات الطويلة وقت الاصيل أو للسمر حيث يجد السامعون فيها لذة وهي بنفس الوقت تفتح أبواب الحياة أمام الاطفال فتريهم الدنيا التي سيحيونها بأبشع

ما فيها واجمله من رعب وخوف الى طمأنينة وسعادة ومن ضعف الى قوة ومن فقر الى غنى وكان يراد بها أيضا بث روح الحماس والعزم والثقة في النفس ودفع عبء اليأس عن الانسان ليشق سبيله في الحياة مقتحما مصاعبها واهوالها ولما كانت خاتمة الحكايات جميعا تنتهي بفوز البطل وتحقيق مآربه جعلها الانسان تعويضا له وبخاصة لاولئك الفاشلين والفاشلات ليجدوا فيها سعادة أو يثيروا عن طريقها روح العزم والقوة ليواصلوا الكفاح في تحقيق المطامح البعيدة .

ولكن الحكاية لم تزل تتطور وتتعقد حتى امكننا ان نجعلها صورة حية تمثل الانسان بنفسيته المعقدة وأجاسيسه الغامضة في مختلف مجالات الحياة وهي تزف الينا صورا دقيقة للانسان في غرائزه ومطامحه وسجاياه وللحياة في ابعادها السحيقة وللمجتمع في تلونه ونقائصه لا نجدها في اروع كتب الفلسفة وأعمقها لان الحكاية يمكن أن تعد فلسفة مجسمة تسمعها عن لسان اناس وان كانوا من اختراع الخيال .

١
الانسان والطبيعة والكون في الحكاية

لقد ارهبت الطبيعة الانسان بمظاهرها الغامضة المخيفة في طفولته ولما كان قد اعتاد ان يخضع لرأس العائلة ولمن هو أكبر منه وان ينحني اجلالا لرأس العشيرة أو القبيلة خوفا منه ومن سطوته وان يسبغ نوعا من الألوهية عليه وعلى أرواح الاجداد التي قد تتراءى له أحيانا في كابوس مخيف أو حلم مشرق ولما كان قد اعتاد ذلك اتبع نفس الطريقة مع كل ما يجده في محيطه فما كان منه الا أن استجاب لهذه المظاهر المخيفة أو غير المخيفة بأن جعلها آلهة له يعبدها ليتقي شرها أو ليرجو خيرها ولو تتبعنا تاريخ الانسان القديم منذ نشأته على سطح البسيطة لقرأنا الأعاجيب فقد أتت عليه أدوار في العصور الطوطمية عبد فيها الحشرات ومختلف أنواع الحيوان وما زال يسمو في عبادته كلما توسع تفكيره وخبر خفايا الكون والعالم الذي يعيش فيه حتى أخذ يعبد الريح والشمس والقمر والنجوم ثم تخيل آلهة للجمال وأخرى للحب وللصيد والربيع والحرب والحكمة وهكذا . وان الخضوع للظواهر الطبيعية عن طريق العبادة اكسبه خيالا جعله يصوغ القصص الظريفة ويتطلع بوساطة القصص الى مخلوقات ارفع منه في مختلف النواحي التي اتخذها مثالا له في حياته فغرست في قلبه الطموح الذي تركه يسير في ركب الحضارة والمدنية حتى رأينا هذا الانسان الضعيف يكشف في العصر الحاضر كثيرا من خفايا الطبيعة فيتحرر من الخوف وبينما نقرأ في الاقاصيص القديمة ان الله تعالى كان يغضب على الانسان اذا حاول أن يبني برجا عاليا له في الارض لئلا تنكشف له أسرار الكون والسماء كما ورد في قصة برج بابل في التوراة اذا بنا نراه الان

يجوب الفضاء ويحاول ارتياد النجوم ومن ناحية اخرى نرى الانسان اتبع طريقة أخرى لمقاومة ضعفه تجاه الطبيعة فاعتقد بالسحر والسحرة الذين يقومون بالخوارق والاعاجيب كما يتراءى له فيقامون قوانين الطبيعة حتى يقصروا المسافات وتنفتح لهم الارض عن خفاياها واسراراها الدفينة واننا نجد هذه المتناقضات في حكايات الانسان القديمة والحديثة عند مختلف الشعوب على اننا لانرى أثرا للحكايات التي تتحدث عن الآلهة القديمة التي عبدها الانسان القديم في مجتمعنا كما نقلت لنا كثير من الشعوب حكايات آلهتها القديمة مكتوبةوذلك لان تمسك الناس بالديانات السماوية جعلهم يعرضون عنهااعراضا تاما خوفا من الوقوع في الكفر والالحاد ولكن الروح الدينية الشديدة لم تصرفهم عن ذكر السحرة لان الانسان عندما يكون جاهلا والجهل ضعف لابد أن يلتجيء الى قوة ولو وهمية تشعره بالقوة فاخترع آلهة كثيرة تمتاز بكل مايقصر عنه من قوة وجمال وشجاعة ومعرفة ولاغرو ايضا ان يؤمن بكل ما ينقصه من قوة خارقة وجمال مثالي ومعرفة بالخفايا والاسرار ... الخ ولاغرو ايضا ان يؤمن بالسحر وبقراءة الغيب وبخاصة ان الكتب السماوية اكدت وجود السحر وهكذا نجد السحرة يكثرون في الحكايات حتى في عصرنا الحاضر ونرى كثيرين يعتقدون بصحتها اعتقادا جازما ويعجبون للاعمال التي يقوم بها بعضهم وهم يغشون ابصارهم بسرعتهم حتى لا يكادوا يصدقون انها غير سحر رغم اعتراف القائمين بها بأنها ألعاب مسلية تعتمد على الخفة والتأثير النفسي في الجماهير لا غير .

وما الحكايات التي تروى عن اجتذاب الجن باضاءة مصباح وباللعب بخاتم مسحور وكذلك الحكايات التي تتحدث عن ساحرة تسحر الناس فتقلبهم الى بهائم مختلفة او عصافير وتجعلهم نصف اموات او صخورا كل هذا نتيجة تمنيات كانت تدور في خاطر الانسان قديما وحديثا بالنسبة

لنفسه او لاعدائه واصدقائه وهو لا يمكن ان يفعل اى شيء فماكان منه الا أن حققه عن طريق الحكاية وأوجد له طريقة اخترعها من الخيال ثم آمن بها وصدقها كأنها حقيقة لا ريب فيها وهي طريقة السحر التي بوساطتها يفعل الساحر ما يريد ويحقق مايدور في خلد الناس كذلك يكثر السحر في حكايات الالهة الاقدمين عند الشعوب الغابرة اذ كان يؤثر حتى في الهتهم ويشترك السحر معهم في الحروب والاعمال الاخرى وقد ورثت الشعوب الحاضرة بعض تلك الحكايات والاحاديث التي كانت تدور عن السحر والسحرة كقماقم سليمان التي سجن فيها المردة من الجن والشياطين وقصص موسى والسحرة ويكثر الحديث عن السحر في حكايات الهند والصين والفرس وغيرهم من الشعوب وعنهم اقتبس العرب بعضها واضافوها الى تراثهم والى ما كانوا يتداولونه من هذه الحكايات فحققوا فيها عن طريق الخيال والسحرة ما لا يمكن تحقيقه في الواقع ليقاوموا الضعف والجهل اللذين يتملكان مشاعرهم وأحاسيسهم وليخلقوا أمام الاجيال اللاحقة بريقا من الامال التي تدفع بالانسان الى التحرر من هذه القيود التي يحملها منذ وجد على سطح البسيطة .

٢
الانسان والفناء في الحكاية

ولد الانسان وحوله هذا الوحش المخيف وحش الفنـــاء والموت وفكر في طريقة تنفذه منـه وحار كيف يمكن أن ينـال الخلود وهـو عبد الزمن والحياة وكل شيء يعتورانه لا بد أن يزول ويضمحل ولو كان حديدا او صخرا وتبدو هذه الحيرة في اقدم الآثار التي وصلتنا ففي ملحمة جلجامش يبدو واضحا سعي المرء وراء الخلود بكل جهده وقواه ولكنه أخيرا يعود صفر اليدين اذ تعطيه الالهة كل ما يريد الا هذا المطلب فماذا يفعل اذاً ؟ .

لقد حاول ان يبقي او يطيل ذكر موتاه في طريقة اقامة القبور العالية وتشييد التماثيل والنصب فوقها لتبقى خالدة على مر الزمن يذكرها الناس في كل عصر وفي كل حدب وصوب ولاتزال هذه الطريقة متبعة في عصرنا الحاضر ففي الدول الغربية تقيم الحكومات انصابا عظيمة تسجل عليها اسماء الجنود الذين استشهدوا في احدى الحروب دفاعا عن الوطن .

كما حاول آخرون أن يخلدوا أسماءهم عن طريق الاعمال العظيمة وبخاصة في الحروب فالانسان بطبيعته يحب القوة ويمجدها لانه ضعيف فخاضوا المعارك الطاحنة وفتحوا المدن والامصار وأهلكوا من أهلكوا من أبناء وطنهم ومن أعدائهم لا لشيء الا لتخليد ذكراهم ، وان كل الذين حاولوا مقاومة الفناء عن طريق الحروب او اقامة النصب هم من طبقة خاصة وهي طبقة الحكام أو الملوك أما عامة الشعب فلم تراودهم أنفسهم على أن يحذوا حذوهم او ان المجتمع وتقسيمه الى طبقات لم يكن ليسمح لهم بذلك أبدا وربما أوجدوا لهم في خيالهم أعمالا نقلوها في الحكايات التي كانت متداولة

بينهم ليعوضوا عن هذا النقص وليكتسبوا الخلود بالاعمال العظيمة المنسوبة الى ابطال الحكايات ليجعلوهم قدوة لهم ولمن بعدهم وتعويضا عن ضعفهم وذلهم .

وهنالك جماعات اخرى حاولت الخلود ولاتزال تحاوله عن طريق القيام بأعمال عظيمة تخدم البشر أو تذهلهم في مجالات العلم والادب والفن أو في مجالات خدمة الانسانية في نواحيها المختلفة، ولعل أعظم هؤلاء من سعى وراء هذه الاهداف لغرض انساني بحت وهو خدمة الانسان وقد افلح هؤلاء في جعل الناس يحترمونهم ويذكرونهم باعظام واجلال بعد موتهم وبعد مئات السنين ورغم ان هذا الذكر لا يمكن ان يقاوم الفناء الذي قضي عليهم فهم قد خلفوا أعمالا أسعدت وتسعد الانسان في كل حين وان محاولة الخلود عن هذه الطريقة خدمت البشرية خدمة عظيمة وساعدت على التطور والرقي وازدهار الحضارة وسمو الجنس البشري وفرشت طريق الحياة بالنور والجمال .

ان الحكاية قد تغنت بعظمة الابطال في الحروب ونادرا ما كانت تتطرق الى عظمة الانسان في المجالات الاخرى كالعلم والادب وكثيرا ما كانت تجعل الابطال الهة وفي هذا اعتقاد جازم بخلودهم لان الالهة خالدة في نظر الناس في تلك العصور وما بعدها وهذا أغرى الانسان على مقاومة الفناء بوساطة البطولات الحربية وغيرها ليكون خالدا في مصاف الالهة وهذا النوع من الحكايات لم يتداول في مجتمعنا لانه يخالف تعاليم الديانات السماوية اذ كان الناس لا يسمحون لانفسهم بالتفكير في أمور كهذه لانها في نظرهم كفر لا يغتفر أبدا فابتعدوا عنها ولكننا نجدها في حكايات الشعوب القديمة أو التي بقيت متمسكة بتلك العقائد .

وقد حاول الانسان الخلود عن طريق اعتقاده بالروح وقد كان العرب في الجاهلية يعتقدون ان القتيل تبقى روحه هائمة على شكل نوع من

الطيور يدعى (الهامة) وهي تزقو عند رأسه وتصيح اسقوني اسقوني حتى يؤخذ ثاره وقد قال الشاعر :

يا عمرو الا تدع شتمي ومنقصتي أضربك حتى تقول الهامة اسقوني

وباعتقاد الانسان بوجود الروح قدر ان يقنع نفسه بالخلود وبابعاد شبح الفناء عنه فما دامت الروح خالدة لايمسها الموت فهو خالد باق معها وقد تفننت بعض الشعوب في هذه العقيدة كالهنود الذين اعتقدوا بتناسخ الارواح ، وزاد في عقيدة الانسان بوجود الروح ان الديانات السماوية اكدتها تأكيدا جازما وجعلت مصدرها من الخالق ولم تكتف بهذا الحد بل بشرت بحياة ثانية يوم الحشر حيث يبعث الاموات من جديد ويحشرون روحا وجسدا وتتجمع عظامهم واجسامهم مرة ثانية وان بعثرت في الحياة الدنيا او التهمتها الوحوش او احرقتها الناس وهكذا وجد الانسان قوة يستند اليها لمكافحة هذا الوحش وحش الموت والفناء باعتقاده الجازم بيوم القيامة وأخذ المؤمنون ينشدون أين قوتك يا موت أين عظمتك يا هاوية ؟ وقد أشارت الحكاية الى هذه الحياة الخالدة عرضا بين أجزائها أو تفصيلا في الحكايات الدينية كما تفنن بعض القصاص في وصف الجنة وجهنم في حكاياتهم واسبغوا عليها من الخيال الشيء الكثير وهكذا قاوم الانسان الموت عن طريق الدين واعتقاده بالبعث وتمكن أن يقنع نفسه بالتغلب عليه اقناعا تاما لا تشوبه شائبة .

اما اكثر الحكايات التي لاتتطرق الى هذه الصور الدينية فتكتفي بان تمنح ابطالها العمر الطويل الذي يقضى بالسعادة والطمانينة والعظمة ثم يأتيهم الموت مفرق الاحباب ومنغص اللذات وفي هذا التعبير ضعف أمام الموت لا يشعر بالثقة وكانه استسلام مطلق له ثم تسكت الحكاية بعد ذلك ولا تحدثنا عما سيحدث لهم كأن مهمتها تقف عند هذا الحد ولكنها لا تبخل عليهم بأبناء يخلفونهم ويكونون حلقة اتصال بينهم وبين الاجيال اللاحقة

ليخلد النوع كما تريده الطبيعة البشرية منذ وجدت اذ يكون خلود الفرد بخلود جنسه وبقاؤه ببقاء ابنائه واحفاده ، ولكنها من ناحية ثانية تكسبهم الخلود عن طريق ذكر اعمالهم العظيمة وتداول الناس الاحاديث عنها ولما كان هؤلاء الابطال لا وجود لهم في الواقع فلا بد لنا أن نعتقد انهم من اختراع القصاصين واناس لم يتمكنوا من القيام بالاعمال العظيمة التي راودهـــا خيالهم منذ الصغر فاخترعوا هؤلاء الابطال ونالوا الخلود عن طريقهم .

٣

الحكاية تعويض عن واقع الانسان

وجد الانسان في الحكاية تعويضا له عن واقعه الذي كان يحياه فقد تمكن أن يخلق حياة في الخيال فيها جميع ما تطلبه النفس من متع مادية ومعنوية وتمكن ان يوجد أشخاصا في حكاياته مثاليين في حياتهم وذكائهم وقوتهم وكذلك خلق مجتمعا يطفح بالبهجة والسعادة والمثل السامية كما يتمنى كل فرد أن يكون وأن يحيا وفي الحكاية نجد غالبا كل شخص ينال جزاء عمله فالشخص العادل الذكي المتصف بالاخلاق العالية لابد ان يربح ويحقق ما يصبو اليه من امان اما الشخص اللئيم الظالم الوضيع الاخلاق فلا بد ان يسحق وان بوء بالفشل والعار وهذا خلاف الواقع لاننا نرى أكثر الناس نجاحا وخاصة في العصور القديمة هم المنافقون الدجالون الذين يتربصون الفرص ويستحلون كل طريقة في سبيل تحقيق امانيهم وغاياتهم غير مبالين بالاخرين ومصائبهم غير ان الانسان الذي لم يتمكن من تبديل واقعه المر قدر ان يخدع نفسه بعالم آخر نسجه في خياله يرتفع فيه الحق على الباطل والعدل على الظلم والحب على الكراهية ، فضمن حكاياته هذه الامور لتجد فيها نفسه طمانينة ولتكون دافعا للاخرين على تجنب طرق الشر وجعل الخير هاديا لهم ومن ناحية اخرى نرى الحظ يبتسم للصغار والنساء والفقراء كثيرا في حكايات الاقدمين وكثيرا ما يكونون أغبياء غير ان النجاح يحالفهم فيحوزون على مصباح كمصباح علاء الدين أو خاتم سحري تخدمهم بوساطته الجن فينالون الغنى العظيم وينشئون القصور الفخمة وتدين لهم الناس ويحظون بفتاة تفوق الجميع جمالا وسناء ومنزلة وما هذا الا تحقيق لصور تتراءى في الخيال لكثير من التعساء الذين

أشقاهم الدهر وصب عليهم مصائبه فتصافحهم السعادة ولو بالوهم والاحلام ولا يخفى ان اكثر الناس في الازمان السابقة كانوا جهلاء فقراء تعساء لظلم الحكام وطغيانهم ولانتشار الجهل والمرض •

وهكذا نجد ابطال الحكايات تتوج حياتهم بالغنى بعد الفقر وبالنجاح بعد الفشل وبالامل الباسم بعد اليأس وتتوالى هذه الصور في الحكايات لتعوض عن الضعفاء والبائسين وتريهم صورا تختلف عن واقعهم المر فيجدون فيها لذة وسعادة ، ومن ناحية اخرى نجد معظم الحكايات التي يتداولها الناس تنتهي بنهاية مفرحة يحقق فيها البطل امانيه ويرتفع صعدا في سماء المجد أو الغنى أو الجاه وقد توجت مساعيه بالفوز المبين فينال فتاة أحلامه وهي على الاغلب أميرة ابنة ملك أو أمير يستوي على عرش مملكة منيعة الجانب واسعة الاطراف ويعيش في قلعة عظيمة لاينفذ اليها العدو ويحيطه الاعوان والحرس •

وهذه النهايات المفرحة غير طبيعية وغير واقعية وانها متقصدة لتزرع النور في حياة تلك المجتمعات التي كانت تحيا في خوف وشقاء وفشل فأوجدت لها في الحكاية دنيا ثانية مشرقة تطمئن لها النفس وتشرق في سمائها السعادة لتعوض عما تلقاه من ظلم وكان الامير المنتصر يمثل كل من يروي تلك القصة او يسمعها لانه أنيسهم الوحيد في صحراء حياتهم الواسعة •

ومن ناحية اخرى نجد الناس في الحكاية يحاولون ان يخلقوا افرادا مثاليين يترفعون عن كل النقائص ونواحي الضعف التي يتصف بها البشر ويحس بها الانسان فابطال القصة شجعان وهبوا شجاعة لا يتصورها العقل ولا يمكن لاي انسان في أي عصر من العصور مهما أوتي من قوة أن يملك ولو جزءا يسيرا ضئيلا منها لان ما يقومون به فوق مستوى الانسان بكثير ولولا ان هذه الحكايات رويت في مجتمع مؤمن باله واحد لا شريك له لما تورعت عن جعل هؤلاء الابطال الهة كما فعل اليونان حين جعلوا

(هرقل) الها اوشبيها بالاله ولايخفى على الجميع ان (هرقل) هذا هو أسمى صورة وأدقها للمثال الذي تمنى كل شخص أن يكونه في العصور القديمة غير انه حين لم يتمكن من تحقيق ذلك في هذه الحياة حققه عن طريق الخيال فاوجد هرقل ليسد هذا النقص الذي فيه وقد فعلت الشعوب الاخرى كما فعل ليونان وان لم يتوجوا شجاعتهم بالاعمال الخارقة التي توج بها هرقل فقد اوجد اليهود (شمشون الجبار) والفرس (افراسياب) والعرب (عنترة) وان كانت شخصية عنترة تختلف عن الشخصيات السابقة لانها ليست في الاصل شخصية خرافية انما هي شخصية حقيقية أضاف اليها القصاصون والمحدثون الشعبيون اجواء خرافية فضلا عن ان عنترة كان شجاعا ومقداما وجريئا وتحمل شخصيته تناقضا دراميا أصيلا موحيا • وهكذا نجد الانسان الضعيف يحاول تعويض هذا الضعف فيه بخلق انسان قوى جبار في حكاياته المختلفة وكذلك نجد بجانب القوة والشجاعة رجالا وهبوا ذكاء وحدسا وفطنة لا يمكن أن يطمح اليها ولا يمكن أن نجد ذلك في مجتمعنا الواقعي ولكننا نجد كثيرا من هؤلاء في الحكايات •

فاذاً الحكاية تفتح كوة في حياة المجتمعات المظلمة فترسل اليهم فيها خيوط النور وتجعلهم يرمون أعباءهم ومصائبهم وتمد لهم جسرا الى عالم آخر حيث تفتح كنوز الارض للفقراء والمعوزين ويحظى المحب بفتاة احلامه والعانس بفتاها الجميل ويرى المظلومون مجتمعا اخر يديره حكام عادلون ينشرون فيه الرخاء والسعادة ، وهلم جرا ، وعلى هذه الطريقة ترتاح نفوسهم المتعبة متهادية فوق ارجوحة الخيال مناجية أحلامها اللذيذة ناسية أتعابها المضنية ولو مدة قصيرة من الزمن •

٤

الحكاية سجل يتحدث عن أقدم الحوادث الطبيعية والتأريخية التى مرت على الانسان

في الحكايات نجد اخبارا وصورا ترجع الى اقدم عهود الانسان والعجيب في ذلك ان هذه الصور تتكرر في حكايات جميع الشعوب في العالم مما يدل على ان جذورها واحدة ثم تعددت بعد ذلك الفروع بتباعد ابناء الجنس البشري بعضهم عن بعض في الارض ذات الطول والعرض ، ففي الحكايات يتوارد ذكر الحوادث الطبيعية التي كانت آثارها واضحة في الانسان والعالم اجمع حيث نجد الشعوب القديمة في كثير من بقاع الارض المتباعدة تتحدث عن الطوفان بجانب الاخبار المسجلة عنه في الكتب المقدسة ولعل الطوفان حدث بعد زوال العصر الجليدي الاخير فتدفقت المياه وارتفعت البحار والمحيطات واغرقت الناس الذين كان اكثرهم متجمعين في محل منخفض اتصف بالخصوبة وطيب المناخ ويرى بعض العلماء ان البحر الابيض المتوسط ربما كان المستقر الاول للحضارة الانسانية حتى اغرق بالمياه فانتشر الناس في نواحيه ، ومن ناحية اخرى نجد الحكايات تكثر من التحدث عن مخلوقات تعتبرها خيالية من نسيج الوهم كالطنطل والديو والغول والسعلاة والدامية وغير ذلك وتتكرر هذه الاسماء في حكايات جميع الشعوب القديمة الامر الذي يؤكد وجود أساس من الحقيقة لها وأن هذه الاسماء ربما كانت تطلق على حيوان يشبه الانسان ويدعى (انسان نياندرتال) وهو ضخم الجسم قوي ولكنه ضعيف العقلية والادراك وقد عاش مع الانسان قبل مائة الف سنة تقريبا ولكنه اندثر ولم يتمكن من البقاء لضعف عقليته وهو الذي

ترد اسماؤه في الحكايات القديمة والحديثة وتبث الرعب في نفوس الاطفال ولربما اتخذت بعد ذلك رموزا للطغاة سفاكي الدماء أو لاشباح وهمية يراها الناس او تعترض سبيلهم في مجاهل الطرق او رموزا لما يتربص البشر من الشر والمصائب في هذا العالم الفسيح وهكذا .

وفي الحكاية تتردد اسماء ترجع جذورها الى عصور قديمة جدا كبابا نوئيل في الغرب ولعلها رموز لاشياء معنوية أوجدها الانسان ليبث الثقة في النفوس والسرور في الاطفال وكذلك نسمع احاديث في بلادنا عن الولي جرجيس أو كوركيس الذي قتل التنين واخباره تنتشر حتى يعد حامي بريطانيا وشعارا لها (سنت جورج) وكثير من الشعوب تدعى انه في أرضها .

وتتكرر في حكايات مجتمعنا اخبار واحاديث عن الملوك والعظماء والشعراء في التاريخ العالمي وفي تاريخنا الخاص فيتردد ذكر الاسكندر الكبير وحكمه وفتوحاته حتى بلاد الصين وسد ياجوج ماجوج الذي بناه حولها ويرد كذلك ذكر خلفاء بني العباس وبخاصة هرون الرشيد مع شاعره أبي نؤاس حيث أحاطته الحكاية بهالة من النور منذ أن ظهرت ألف ليلة وليلة حتى حكاياتنا الحاضرة وحتى انك لو أجبت أي أوربي يسألك عن بلادك بقولك انك من العراق ربما لا يعرف موقع بلادك ولكنك ان قلت له انا من بلاد الف ليلة وليلة وهرون الرشيد لادرك ماتقوله حالا وعلم من أي بلدة أنت ؟ .

وقد ذكر الناس في الحكاية نوادر وظرائف لكثير من الحكام بعد العصر العباسي في العراق الذين اشتهروا بالظلم خاصة وهكذا نجد أمثالا تدور بين العامة عن هؤلاء واخذت الحكاية تدبج اخبارهم التي تتندر عن حكمهم الاهوج وظلمهم الذي لايطاق ولعل اكثر هذه الاخبار من نسج الخيال او لها اساس ضئيل من الواقع .

وقد تتخطى الحكاية الملوك والحكام الى أصغر المغمورين في المجتمع فنذكره وتتندر بالتحدث عنه لصفة خاصة فيه كما تتندر في مجتمعنا عن (أبي القاسم الطنبوري) وحذائه العجيب وغيره من الشخصيات الهزلية التي عاشت قبل مئات السنين او اكثر وفي كـــل شعوب العالم يوجـد شخصيات مشابهة لهذه أو تختلف عنها تدور في حكاياتهم وتكون مصدرا لنوادرهم وطرائفهم المتنوعة •

واخيرا نقول ان كثيرا من الحكايات قد تناقلها القصاصون من القديم فاندثرت ولكن بعض آثارها او شخصياتها بقيت حية فادخلت في صـــور جديدة واخذت تنتقل من عصر الى عصر حتى وقتنا الحاضر ولكنها تصطبغ في كل جيل بصبغة تاريخية جديدة تتناسب مع ذلك الجيل وصفاته وتتفق الحكايات في كثير من هذه الصفات بين جميع الشعوب في العالم لانهـــا مهما تعقدت وتنوعت فهي صورة للانسان تصور نفسيته وآراءه ومطامحه والانسان أينما كان ومتى وجد ونشأ فهو واحد لا يختلف بين عصـر وعصر وبين بلد وآخر ولهذا نجدها تتشابه عند كثير من الشعوب وأكبر دليل على ذلك لورجعنا الى عهود الوثنية لرأينا عند اكثر الاقوام يوما او موسما للحزن والبكاء سببه هلاك اله من الآلهة ففي بلاد فارس حيث يبكون على اله النور وفي سوريا يبكون على ادونيس وفي مصر يبكون على اوزوريس وفي العراق على عشتروت وهكذا في بلدان أخرى وهذا يدل على ان طبيعة الانسان واحدة ولكنها تظهر في صور مختلفة ويدل ايضا على ان البشرية ترجع الى منبع واحد ثم تفرعت الشعوب وتنوعت الاقوام وان هذا الاتفاق في الثقافة والحكايات يدلنا على ان اصل الحضارة واحد مهما تغيرت وتباينت وربما مرت على اجدادنا فاجعة عظيمة هزت مجتمعهم فكانوا يبكـــــون لذكراها وتناقلها الناس في صور مختلفة بعد ذلك •

٥

الحكاية نقد رمزى للحكام والمجتمع

رأى الانسان في الحكاية حرية للتعبير عن آرائه المختلفة في الحياة والكون والمجتمع والحكام والناس فتراه يظهر فيها ما يخفيه من كره وحب او سخط ورضا عن حكامه أو أقرانه أو مجتمعه ولما كان الحكام في العصور القديمة مستبدين يكمون الافواه ولا يسمحون لاحد ان يثلبهم أو ينتقد حكمهم واعمالهم وان فعل ذلك فمصيره العذاب والهلاك ولا شافع له عندهم ، ولما كانوا كما ذكرنا وجد الانسان طريقة سهلة مامونة واخذ يفرغ سخطه وغضبه على هؤلاء الحكام الظالمين او الحمقى عن طريق القصص والحكايات والنوادر المختلفة فاضحا اعمالهم بطريقة رمزية وكذلك وجد في القصة منفذا للتعبير عن آرائه التي لا يرضاها المجتمع ولايمكن ان يسكت عنها فشرع يصوغ فلسفاته الخاصة وينقد المجتمعات المختلفة وهكذا تقدم ركب البشرية في ممر الزمن عن طريق التفكير الحر الذي حرك الانسان وسعى به الى الامام حيث التقدم والحضارة الزاهرة •

وهكذا وجد هؤلاء العباقرة وقد سدت امامهم سبل التعبير عن آرائهم كوة مشرقة يرسلون بوساطتها ما تكنه قلوبهم من آراء ونقد في جميع نواحي الحياة وذلك عن طريق الحكاية فقد نقدوا الملوك والحكام نقدا رمزيا لاذعا وأوسعوا الظالمين الجهلاء ذما وثلبا وأظهروا عواقب عملهم وأثر ذلك في رعيتهم الذين يحيون في فزع ورعب دائمين لايقر لهم قرار وهم لايحظون بالنجاح غالبا في حكمهم ولابد ان يصيبهم واولادهم واحفادهم الدمار والهلاك من قبل شعوبهم او اعوانهم ثم يأتون بصور وحكايات عن ملوك اتصفوا بالعدل ورجاحة العقل والسهر على الرعية

وكيف يحيون محترمين تبجلهم شعوبهم وتحيا رعيتهم في أمن مستمر ورغد يعم جميع الافراد وكما ان هذه الصفات العالية فيهم تكسبهم السعادة وراحة الضمير وتغرس الحب لبلدهم وبذور الطمأنينة في نفوسهم فلا تهز ممالكهم عواصف الدهر مهما عظمت واشتدت ولا تزعزع كيانهم مصائب الزمان مهما ادلهمت وكيد الاعداء وجيوشهم وان جاءوا بحشود كأجنحة الليل لانهم يلقونهم بسور حصين لا ينفذ منه احد لانه سور بنته رعيتهم بقلوب مخلصة واحترام جارف وحب ينير كالمشاعل في الليالي الحالكة فيبدد حنادسها مهما أظلمت .

ولا يستبعد ان تكون الحكاية قد حولت كلمات الطنطل والسعلاة والمارد من معانيها الاصلية الى معان رمزية وقصدت بها الملوك والامراء الذين تمكنوا من التسلط على الرعية بقواهم الجسمية غير أنهم سخفاء فارغو العقول تتصف أعمالهم بالحماقة والرعونة فساموا الناس سوء العذاب ولم يحسنوا تدبير أمورهم .

وقد نقدت الحكاية البخلاء وأوردتهم في صور مضحكة وتندرت على بخلهم وتطرفهم في جمع المال مهما كلفهم ذلك من عناء وذل بينما هم يظهرون أمام المجتمع في هيئة البائس الفقير الذي لا يملك شروى نقير ولا يجد في بيته من الزاد ما يسد به رمقه ويروي غليله .

أما المجتمع فقد أوسعته نقدا لاذعا وصورته في صور مفزعة مخيفة فهو مجتمع يعتمد على الظلم يتيه فيه القوي المستهتر الذي لا يبالي بالمثل الانسانية العالية ، والناس أكثرهم منافقون سريعو التقلب كالحرباء يصادقونك عندما يرفعك الزمان فتكون غنيا أو ذا منصب عال أما اذا قلب لك الدهر ظهر المجن انفضوا من حولك وابتعدوا عنك ولم يلتفتوا اليك وان قابلتهم وجها لوجه كأنهم لا يعرفونك وهم لا يسعون الا لمصالحهم فقط ولهذا تحذر الحكاية المستمع من بني جنسه أشد التحذير

حتى تجعل كل واحد يشك في اخوته وأقرب الناس اليه ولا تكتفى بما ذكرته بل انها كثيرا ما تفضل الحيوان على الانسان في صدق معاملته واخلاصه ووفائه ومن جانب آخر نجد صورا مدهشة محيرة في الحكاية لاناس اتخذوا الدين وسيلة لخداع الناس وسلب أموالهم ونيل كل ما يبتغون منهم فهم يبدون ظاهريا متزمتين شديدي التمسك بتعاليم الدين لا يتركون صومهم وصلاتهم أبدا لهم مظهر انساني عطوف يذهل الاخرين لاول وهلة حتى يعتقدوهم من الاولياء ولكن الحكاية بعد ان تورد هذه الصفات اذا بها تكشف هذا الستر المهلهل فترينا اياهم جفاة غلاظ القلوب يفتكون بالناس ويعيثون في الارض فسادا ويهلكون الحرث والنسل ولا يتورعون عن السرقة والقتل والاجرام في سبيل تحقيق مطامعهم الدنيئة ولا عجب في ذلك فالدين يضفي عليهم هالة من القداسة يحني بها الناس رؤوسهم اجلالا ولا يتجرؤون حتى على الشك في ورعهم وتقواهم فان كانوا ذوي نفوس فاسدة ضعيفة استغلوا هذه الثقة وفعلوا ما فعلوا .

ولهذا تحذر الحكاية الناس والمجتمع حتى يحكموا عقولهم وتجاربهم في تعاملهم مع الاخرين سواء أكانوا صالحين أم طالحين ولا يثقوا بأحد الا حين يتأكدون من استقامته بعد التجربة مهما كانت منزلته وصفاته .

٦

لماذا كان معظم ابطال الحكايات ملوكا وامراء ؟

اذا تصفحنا الحكايات القديمة نجد أبطالهـــا على الاكثر من الملوك والامراء ولا نجدها تتطرق الى عامة الشعب والى الافراد العـــاديين الا نادرا ويرجع ذلك الى أن الانسان لا يهتـــم ولا يأبه لاقرانه في المجتمع بل يوجه كل تفكيره الى من هم أرفع منه وينظر بعين الاعظام الى الطبقات العالية في المجتمع وبخاصة الملوك كأنهم من طينة أخرى مستوحيا ذلك من أجداده الذين جعلوا ملوكهم آلهـة أو أنصاف آلهـة اذ يعتقد أنهم يمتازون عنه في جميع الصفات فكان يزين حكاياته بذكرهـــم والحكاية التي لا تدور حولهم برأى الاكثرية لا قيمـة لهـا لانهـا لا تمثـل الطبقـة الرفيعة من المجتمع في حين كان الملك آلها حاكما على الارض ينتمي الى اجداده من الالهة المعبودة وقد عرف الحكام ذلك فكانوا يحيطون أنفسهم بالرموز والكهنة ولا يظهرون أمام الناس الا نادرا في أبهة وفخفخة اذ من عادة الانسان أن يخشى كل ما هو غامض في الحياة وبخاصـة اذا كان محاطـا بالطلاسم والالغاز في زي يختلف عما اعتاده واذا خشي شيئا فانه يحترمه ويقدسه بطبيعته لانه يجهل كنهه وينظر اليه نظرة اعظام وخشية وقـــد اتبع الكهنة نفس الطريقة فكانوا يلبسون ثيابا تختلف عما يلبســه الناس ويظهرون فيهـا بهيبة ووقار ويعقدون المراسـيم الدينيـة ويجعلونها عـلى شكل طلاسم وبالفاظ غير صريحة كما يقومون بمراسيم معقدة تذهـــل الاخرين وتجبرهم على احترامهم وتجعلهم يعتقدون أن لهم قوة خارقـــة لا تتوفر في غيرهم وانهم يتمكنون ان يفعلوا ما لا يتمكن أي انسان من القيام به واتبع طريقتهم السحرة والاطبـاء الذين كانوا يعالجون المرضى بالتعاويذ والسحر منذ قديم الزمان .

ومن ناحية ثانية كانت الرعية تعتقد ان البلاد بملوكها فهم صلاحها وسندها ولهذا وجهوا حكاياتهم وجعلوا أبطالها من الأمراء والملوك كي تلقى اذنا صاغية من السامعين وتفي بالغرض الذي قيلت من أجله وبعد أن تطورت المجتمعات وانتشرت الديانات السماوية زالت عن الملوك صفة الالوهية أو ما فوق البشرية ولكن حل محلها صفة ثانية جعلت منزلة الملوك كما كانت في عصر الوثنية بل رفعتها في بعض الاحيان اذ اعتقد كثير من الناس ان الملوك ظل الاله في ارضه وان الله هو الذى رفعهم وجعلهم حكاما في العالم فحقهم في الملك حق إلهي لا يرقى اليه شك وعلى هذا الاساس بقيت منزلتهم رفيعة كما كانت سابقا وبقيت الحكاية تجعل أبطالها في اكثر الاحيان منهم ومن الامراء والحكام لانهم يحققون رغبات الناس ومطامحهم كما ذكرنا سابقا اذ ان الباقين لا قيمة لهم لانتشار نظام الطبقات وتقسيم المجتمع الى طبقات عليا حاكمة وأخرى واطئة محكومة تحيا كالعبيد ولا يؤبه بها أبدا وبقيت الطبقات العليا هي السائدة في آداب الامم جميعا وفي حكاياتها المختلفة حتى عرف الناس حقيقتهم في القرون الاخيرة وأحس العامة انهم لا يختلفون عن الملوك والحكام في شيء وربما كان كثيرون منهم يفوقونهم قوة وذكاء ومثابرة على العمل فثاروا على التقاليد القديمة وتوجه الادب الى معالجة مشاكل سواد الشعب والى دراسة حياتهم وذكر صور مختلفة عنهم لانهم هم الذين يمثلون البلاد بحق بينما الطبقة العليا لا تمثل الا أفرادا قليلين حتى صار الاديب الذى لا يتفرغ لعامة الناس خارجا عن نطاق الادب لا ينظر الى انتاجه نظرة تقدير ويطرح جانبا ولو كان آية في الفصاحة والبلاغة والروعة ، ولكن الحكاية لم يصبها هذا التطور لان مصادرها قديمة ترجع الى مئات السنين على الاقل فبقيت كما كانت سابقا تتخذ من الملوك أبطالا لها حتى وقتنا الحاضر ما عدا حالات قليلة ثم ان الحكاية نفسها في عصرنا الحاضر أخذ معينها ينضب رويدا رويدا وبدأت القصة

الطويلة والقصيرة تحل محلها وقل اهتمام الناس بها بتطـــور المجتمع وانتشار الكتب والمسرحيات ووسائل اللهو التى أغنت الناس عن الاستماع الى الحكايات حتى أخذت تقتصر على الاطفـــال فقط الذين لم يعودوا يسمعونها من أجدادهم وجداتهم بل أخـذوا يقرأونها في كتب خاصـــة بهم تسرد لهم حكايات مختلفة متنوعة بعضها من محيطهم وبعضها مترجم من اللغات الاخرى وهكذا دواليك .

ومما يدل على تعظيم الحكايات للملوك والامراء والحكام ان كثيرا منها كانت تبدأ بطلب النصرة للسلطان ورفعتـــه وبالدعاء له فيقـــولون (كان ما كان والله ينصر السلطان) لانهم يعتقدون كما ذكرنا سابقا ان الله تعالى اذا نصر السلطان فكأنما نصر الرعية كلها وفي القـــرن الرابع الهجرى يقول المتنبى أعظم شعراء العرب :

وانما الناس بالملوك ومـا تصلح عرب ملوكها عجم

ويوجد سبب آخر لاهتمام الحكاية بالسلاطين والطبقات الحاكمـة فقط وهذا السبب ينبع من طبيعة الحكاية نفسها وهو انها تهتم بالخوارق والامور العظيمة التى لا ترقى اليها طاقة البشر وان أبطـــالها يقـومون بأعمال مذهلة كأنهم ليسوا من لحم ودم وكأنهم ليسوا من الناس في شيء أو كأنهم انصاف آلهة كما في ابطال الملاحم القديمة ولهذا احتـــاجت الحكاية الى اشخاص غير عاديين يقومون بدور البطـولات فيهـــا وتنسب اليهم هذه الامور العظيمة الخارقة فكان لابد لها ان تلجأ الى طبقـة الملوك والامراء والسلاطين التى ينظر اليها الناس نظرة خاصة ترتفع عنهم كثيرا في جميع النواحى وهكذا نجد ابطال الحكاية من هذه الفئة العاليـــة في المجتمع يقومون ببطولات مذهلة واعمال خارقة ويتصرفون تصرفات محيرة مذهلة وان وجد ابطال في الحكاية ليسوا من الملوك ورهطهم فان هؤلاء لابد ان يكـون دمهم دما ملـكيا ولابد أن يرقوا الى عرش من العروش

ويحظوا بأميرة عظيمة والدها يحكم بلادا واسعة الاطراف لا تغيب عنها الشمس لان من يقوم بهذه الانجازات لا يصلح ان يكون من عامة الناس ويجب أن ينتمي الى طبقة اخرى سامية هي طبقة الملوك ليكون أهلا لما قام به كما كان يعتقد الناس في العصور الغابرة وقبل ان أنهي هذا الموضوع أحب أن أشير الى نقطة في نفسية الانسان وهي انه كان ولا يزال يحب القوي ويحترمه ويهابه ولما كان الملوك في ذلك العهد أقوياء أخذ ينظر اليهم نظرة اجلال واعطاهم هذه الاهمية في حكاياته أما بعد ان ضعف مركزهم في المجتمعات فقد أخذت نظرته تتغير نحوهم .

٧

الحكاية فتحت الطريق أمام الانسان للتقدم

لقد فتحت الحكاية أمام الانسان طريقا واسعا للتطور وبناء مدنيته الحاضرة فقد كانت كالمشاعل تنير له المسالك وترشده الى السبل القويمة التى يسلكها وتجدد له اهدافه في حياته ومستقبله وتساعده على بناء مجتمعه بناء قويا شامخا وفتحت له منافذ واسعة يطل منها على الزمن ويحدد لعقله الجبار الاهداف التى يمكن الوصول اليها ليحقق سعادته ورفاهية النوع البشرى .

فالحكاية قد ساعدت على توسيع خيال الانسان وجعلته يجول في آفاق رحبة ويحلق في الاجواء البعيدة متواريا عن حاضره المظلم الذي أسدلت عليه الطبيعة القاسية أستارها الحالكة وملأت عالمه بالطلاسم المحيرة التى جعلته يقف حائرا ذليلا لا يعلم ماذا يفعل وبماذا يفكر ولكن الحكاية قدمت له أجنحتها السحرية أجنحة الخيال الطموح الذي حلق به في السماء المشرقة حيث النور الوهاج وحيث نجوم الآمال الساطعة تأخذ بيده وتفتح أبواب المستقبل السعيد أمامه وقد صقل تفكيره عن طريق الخيال فزاد ذكاء وحيوية وأخذ يسعى الى حياة افضل ومن ناحية ثانية عالجت المثل السائدة فرفعتها وانشأت المجتمعات على أساس راسخ اذ وجهت الحكام الى الحكم بالقسطاس والعدل بين الرعية والى تعاون أفراد المجتمع والسعي للخير والبعد عن الشر فسمت صفات الانسان وعاداته وصقلت طبائعه الوحشية فساعد ذلك على بناء مجتمع فاضل ثابت الاركان لا يتزعزع وبهذه الطريقة تمكن من السعي لحل الغاز الطبيعة وكشف اسرارها والتقدم في سلم الحضارة والرقى حتى بلغ ما بلغه ولا يخفى ان الانسان لا يمكن ان ينجز أى تقدم في العلم

والادب ما لم تستقر المجتمعات ويعم التعـــاون بين الافراد حيث تبنـى حياتهم على أسس ثابتة قويمة .

فالحكاية عن طريق سردها للحوادث المختلفة وعن طريق ابطالها غرست الكرم والشجاعة بين الناس وعملت على نشر العدل والطمأنينـة وعودتهم على التعاون في بناء الحياة ومساعدة بعضهم بعضا وغرست فيهم حب الطموح والسعي الى حياة أفضل وقد ساعدت من ناحية أخرى على حـل الغـاز الطبيعة وطلاسمها المحيرة الغامضة بتكرارها لقصص الجـن الذين ان قدر للانسان ان يستعبد واحدا منهم حقق له المستحيل وجمع ما تهوى نفسه وتشتهيه وقد آمن البسطاء بصدق هذه الاخبـار وحار الاذكياء في تعليلها حتى وجدوا أخيرا ان هـذا المخلـوق الخيالي الذي تروي الحكاية اخباره موجود في قلوبهم وانفسهم اذ انهـم يتمكنون من تحقيق المستحيل اذا فكروا واجتهدوا وثابروا ومنذ ذلك الحين أخـذ الانسان يشمر عن ساعد الجد حتى حقق ما حقق وكذلك القصص التى تروي له أن السحرة بسحرهم تنقلب لهم الارض عن أنواع لا تحصى ولا تثمن من الاحجار الكريمـة والذهب والفضة وغير ذلك فأوحت له بطريقة غير مباشرة ان الارض مصدر الثروات فأخـذ يغوص في باطنهـا حتى اكتشف معادنها الثمينة المختلفة التى اكسبتـه الغنى والرفاهية فى حياته وقد جعلته الحكاية يفكر في السفر السريع عندما يسمع ان ساحرا أو ماردا يحمل الانسان بلمح البصر من محـل الى آخر حتى تمكن من تحقيق ذلك فعلا ولا نغالي اذا قلنا ان فكرة الطيران قد ظهرت في أول أمرها في الحكاية التى اوحت الى الانسان بانه يتمكن ان يطير وان يسابق طيور السماء اذا فكر وسعى ولهذا نجد محاولات الطـيران تظهـر منـذ أقدم العصور فتروي لنا أساطير اليونان ان انسانا حاول ان يطـير عن طريق صنع أجنحة له من الشمع وقد طار فعلا ولكنه عندما اقترب من الشمس اذابت جناحيه وسقط وهكذا أوحت له هذه الاساطير بهذه الفكرة

السامية التي ما زال يطمح اليها منذ اقدم العصور حتى تمكن من تحقيقها في عصرنا الحاضر وما أحاديث بساط سليمان بغريبة عنا ، كما ساعدت القصص على التقدم في مضمار الطب فهي تروي لنا اخبارا كثيرة عن اناس اصيبوا بمرض عضال لا يرجى شفاؤه ولكنهم جاهدوا وقاوموا حتى تمكنوا من الشفاء بمساعدة غيرهم من اصحاب الخوارق فهذه الاساطير وان لم تكن صحيحة فتحت باب الامل أمام الانسان فأخذ يسعى لشفاء مرضاه بمختلف الطرق من علمية أو وهمية أو نفسية تستند الى التعاويذ والأحاجي وما زال يسعى ويسعى حتى بلغ ما بلغه الآن من التقدم في مجال الطب وتخفيف آلام البشر واسعادهم .

الحكاية كانت مصدر ثقافة للاطفال وحتى للرجال اذ فيها عصارة الفكر الانساني منذ أقدم العصور وساعدت على حفظ كثير من الآراء الاجتماعية والاخلاقية والفلسفية وحتى العلمية فكان الاطفال خاصه يتأثرون بأبطالها المختلفين ويجعلونهم مطمحا لهم في حياتهم ويتمنون ان يصلوا في يوم من الايام الى ما توصلوا اليه ولو عن طريق السحر كما تروي الاسطورة لهم ولهذا وجدوا لهم مطامح منذ صغرهم ترفع من مستواهم فعندما يكبرون تدفعهم هذه المطامح بطريقة غير مباشرة الى تحسين حياتهم وخدمة أنفسهم وعوائلهم كما أن الحكاية تعلمهم اصول المجتمعات والعلاقات بين الافراد وذويهم وابناء قبيلتهم او بلدتهم والمثل السامية التى يجب ان يتحلى بها الرجل أو المرأة لينالا الاحترام من الاصدقاء والاقران وترشدهم أيضا الى الطرق التي تؤدي الى النجاح في الحياة وتحقيق الآمال مهما عظمت كما أنها كانت تزرع فيهم حب الخير والسعي في اسعاد الاخرين ومعاونتهم وتخفيف مصائبهم وتبث فيهم الشجاعة والمثابرة في السعي وبهذه الطريقة كانت تقاوم الطبيعة الوحشية في الانسان التي ورثها من عهود الغاب وتصقل هذه الطبائع حتى تتحول الى سجايا رفيعة ومثل

انسانية فساعدت على بقاء النوع والتوصل الى هذه الحضارة الرفيعة وتحقيق ما كان يعتبر تحقيقه سابقا ضربا من الخيال أو أحاديث خرافة •

ولا نغالي اذا قلنا انها كانت مدرسة تضم الصغار والكبار وكان تأثيرها في الصغار عظيما ولا يزال المربون حتى الان يهتمون بالقصص في تعليم الاطفال ويولونها اهتماما عظيما لانها تفتح في حياتهم أبواب الخيال الرحبة وهي على الاكثر حكايات قديمة أو حكايات تشابهها كتبت بلغة سهلة صحيحة وقد قل تأثير الحكاية الآن لتعقد الحياة ولظهور أشياء أخرى اغنت عنها من وسائل اللهو والمجلات والصحف والراديو والتلفزيون وغير ذلك •

٨
الحكاية والانسان

لقد اسعدت الحكاية الانسان منـذ أقـدم العصور حتى الان فكان يقضى بوساطتها أوقات فراغه حيث يتجمع أفـراد العائلة حول النـار في الشتاء البارد ليستمعوا الى ما يقصه احدهم عليهم من أخبار تثير دهشتهم وتبعث السـرور في نفوسهم وتثير فيهـم المروءة والطموح وتؤجج نيران الحماسة والشجاعة في قلوبهم وكم القت أنوارا من السعادة في حياتهـم فجعلتها مشرقة بعد ان كانت عابسـة مظلمة وكم زادت أيامهم البيضاء اشراقا ونورا بأحاديثها العذبة واساطيرها المجنحة التى ترفعهم بعيدا بعيدا في آفاق الخيال الرحبة حيث يلتقون بأبطال الحكايات في دنياهم المشرقة فالحكاية كانت على الاغلب مثار اسمارهم ليلا وأحاديثهم نهارا في الايام الشديدة البرودة وفي أوقات القيلولة عندما يشتد الحر اما الاطفال فقد كانوا يرون الدنيا ويفهمونها عن طريقها اذ تملأ دنياهم بالاخبار العجيبة وتثير في نفوسهم المتفتحة للحياة علامات الاستفهام فيكثرون من السؤال حول أمور كثيرة حيث تتفتح لهم الالغاز المغلقة ويفهمون ما يحيط بهـم وتمتلىء قلوبهم آمالا بعيدة حيث يجعلون من ابطال الحكايات مثالا يحتذى فيحاولون تقليدهم أو التشبه بهـم وهي مدرستهم الفكرية الاولى ويأتي بعدها الشعر او الامثال التى قد تستند اليها في أكثر الاحيان .

ولو أمعنا الفكر في دراسة الادب لوجدنا الحكاية أقدمها وأهمهـا ولا يزال الانسان حتى الآن يعجب بها ويشتاق الى سماعها ومطالعتها وقد اخذ الادباء والمربون يصوغونها في ألفاظ صحيحة ليقدموها للاطفال لتكون وسيلة لاسعادهم وتثقيفهم ولما كانت من أقدم صور الادب وأهمها فلهـا

أعظم التأثير في صقل النفس البشرية وتطورها فالادب عامـــة والحكاية خاصة ساعدا على صقل الغرائز الوحشية في الانسان وجعلا منه مخلوقا فاضلا يؤمن بالمثل والحب والتعاون لا بشريعة الغاب ولهذا يعتقد بعض العلماء ان للانسان وجهين وجها وحشيا يعود به الى طبيعته الاصلية حين كان يحيا في الغاب ووجها ثانيا صاغته المدنية والمثل السامية والمجتمع وهو وجـــه وديع رحوم ولولا هذا الوجه لما تمكن ان يعيش وان يتطور في المجالات العلمية والادبية ولأفنى الناس بعضهم بعضا وبخاصة بعد أن بلغ هذه القوة الهائلة واخترع القنبلة الذرية فالحكاية وهى أقدم أنواع الادب ساعدت على صقل غرائزه وخلقت من طبيعته الوحشية انسانا عطوفا يؤمن بالمثل السامية هذا من ناحية ومن ناحية أخرى اسعدت الانسان بجعله يقضي أوقات فراغه في أمور ممتعة فأوقات الفراغ كثيرة عنـــده وان لم يقضها في أمور ممتعة فانه يجد حياته كالصحراء القاحلة مملة موحشة لا يطـاق العيش فيهـا ولكنها غرست فيهـا السعادة وجعلت أوقات فراغـه مملوءة بالحيوية والمتعة بعيدة عن الملل الرتيب فما أجمـل أوقات السمر حيث تتلى الاساطير الرائعة فتسحر النفوس وتهز القلوب وترسل شعاع السحر في اجوائنا وتفرش دنيانا بالازهار والآمال كما ترصع النجوم المضيئة الزاهرة ازار الليل المظلم .

٩

مصادر الحكايات التى تدور في مجتمعنا

ان الاصول التي ترجع اليها الحكاية قديمة وقديمة جدا تتفرع من العصور السحيقة منذ ان أخذ الانسان يعيش جماعات جماعات فوق سطح البسيطة ونجد اثر ذلك في ذكر أسماء لمخلوقات غريبة كالطنطل والسعلاة والمارد وغير ذلك من الحيوانات التي تشبه الانسان وقد عاشت قبل حوالي مائة الف سنة ولكنها انقرضت لضعف عقليتها ولم تجدها ضخامة أجسامها وقوتها نفعا في مقاومة الفناء الذي لا يرحم ضعيفا وقد أنشب أظفاره فيها ومزقها حتى لم يترك لها اثرا اولا ما نسمعه عنها في الحكايات وما اكتشفه علماء الطبيعة من بقايا هياكلها ولكن هذه الاصول القديمة لا تبدو الا ضئيلة حتى لا نكاد نشعر بها لان التقلبات الاجتماعية والسياسية والفكرية كانت تقضي على ما سبقها أو تصبغه بصبغة خاصة تختلف عما كانت عليه قبلا . ولهذا نجد روح الاسلام واضحة متسلطة في معظم الحكايات الشائعة في بلادنا في الوقت الحاضر مع الروح العربية الاصيلة التي يتسم بها مجتمعنا في العراق وهاتان الصفتان هما اوضح ما نجده في معظمها وهما أقدم الآثار والمصادر لها ومن ناحية أخرى نجد في الحكايات اثر الف ليلة وليلة حتى ان كثيرا منها يقتبس حوادث متفرقة أو مجتمعة من هذا الاثر العالمي الخالد مع تحوير أو تبديل يكاد يغطي معالمها الاصلية ولكن آثارها لا تخفى على المتتبع كما أن المثل والاتجاهات الفلسفية والاجتماعية والتأريخية في حكاياتنا الحاضرة لا تختلف عنها في الف ليلة وليلة في شيء حتى ان بعضهم يسرد انباء عن هرون الرشيد وأبي نؤاس وغيرهما تشابه ما ورد فيها ولكننا بنفس الوقت نجد فيها

آثارا انسانية عامة تمتد الى شعوب كثيرة وثقافات واسعة امتزجت فيها وفي حوادثها امتزاجا دقيقا واهم هذه الاصول الاجنبية التي ترجع اليهـا وتستقي منهـا أحيـانا صورهـا ومثلهـا وحتى حوادثهـا الحكايات الفارسية في الدرجـة الاولى والتركية والهنـدية والحكايات المحليـة لسكان البلاد قبل الفتح العربي ولا يخفى على القارىء الكريم ان الحكايات الفارسية خاصة متغلغلة في الف ليلة وليلة تغلغلا عميقا وهي تحمل معها في الوقت نفسه صورا كثيرة اقتبستها من الهند والصين وهكذا نجد حكاياتنا الحاضرة كأنها مجتمع انساني مصغر يحمل في طياته صورا قديمة وحديثة مقتبسة من محيطه ومن الشعوب المجاورة والبعيدة بحيث تتداخل كثير منها حتى تكاد تكون شيئا متصلا لا ينفصم ابدا .

١٠
الحكاية والاسماء

لو تتبعنا الحكايات التي يتناقلها العامة لوجدناها تروى بدون أن تذكر أسماء أبطالها بل تكتفي بتعريف بسيط أو بذكر لقب من ألقابهم أو صفة من صفاتهم فقط وأحيانا تطلق أسماء غريبة وبخاصة في الحكايات البدائية الفجة التي لا ترتفع عن مستوى الاطفال الصغار وتطلق هذه الاسماء لكي ينظر اليها نظرة خاصة ولكي تعوض عن فراغها وعدم نضجها بهذه الرموز الرنانة والالفاظ الغريبة ونادرا ما نجد قاصا يروي قصة ويذكر فيها أسماء الابطال بالتفصيل ويمكن أن يرجع ذلك الى أن الحكاية تروى لذاتها ولهذا لا تهتم بالاسماء لان الهدف منها تسلسل حوادثها والصور والاعمال التي ترمي اليها أما الاسماء فلا أهمية لها بالنسبة للقصة ومن ناحية أخرى نجد الحكايات تروي لنا أخبارا عن فئات خاصة فهي عندما تتكلم عن أمير لا تقصد أميرا معينا وهكذا عندما تتكلم عن ملك أو قائد أو صاحب مهنة من المهن لانها تفي بالمقصود دون حاجة الى ذكر الاسماء وربما كانت أعم بمفهومها اذ يقصد بها جميع أفراد ذلك الصنف من البشر سواء أكانوا من الملوك أم من العامة بينما ذكر الاسماء يخصصها ويفقدها صفة التعميم ، وقد يكون للحكاية أسماء معينة وضعها مخترعها ولكن هذه الاسماء لم تبق على ما وضعت عليه أولا بل حورت وتبدلت بالنسبة للذين يتناقلونها من كبار وصغار اذ غالبا ما تنسى أو يتوهم الانسان بين الاسماء فيذكر اسما بدل آخر أو يغيرها متعمدا لغرض خاص يقصده بنفسه أو لغرض عام كأن يرى أن الحكاية تكون أجمل لو أن أسماء أبطالها جعلت كما يرويها وكما يذكرها وهكذا ، ولهذا

نجد الاخير ان معظم القصاص أهملوا الاسماء واكتفوا بذكر طبقة الناس الذين يتكلمون عنهم كأن يكون أحدهم ملكا أو أميرا أو تاجرا أو حطابا أو لصاً أو قائدا ... الخ وان ذكروا تعريفا لهذه الفئات تطرقوا الى ألقاب خاصة غالباً كما نجد في الف ليلة وليلة التي تذكر هذه الالقاب للامراء والاميرات خاصة وتذكر أسماء لغيرهم ورب معترض يقول : لماذا ذكرت الاسماء والالقاب للامراء في حكايات الف ليلة وليلة بينما لم تذكر في الحكايات العامية الاخرى وهما من نوع واحد ومنبع واحد والجواب على ذلك سهل وبسيط وهو ان الذى دون قصص ألف ليلة وليلة حدد لها أسماء خاصة من عنده أو مذكورة من قبل وذكر أسماء للابطال الذين يرد ذكرهم بلا أسماء أو اكتفى بذكر ألقاب اخترعها هو بنفسه ودونها كما أراد وذلك لأن أسماءها المذكورة لا تعبر عن أجوائها ومصادرها المتنوعة التي ترجع الى مئات السنين قبل الزمن الذي سجلت فيه ثم تناقلها الناس كما دونت ولو أنها بقيت تنقل مشافهة لوجدنا تباينا عظيما بين أسماء أبطالها وألقابهم أو لوجدنا أكثر ابطالها وبطلانها بدون أسماء كما في حكاياتنا الحاضرة أما نحن فسوف نروي الحكاية كما يتداولها الناس فأن ذكرت لأبطالها أسماء ذكرناها وان اكتفى القاص بالالقاب والصفات اكتفينا بها أيضا ولم نذكر أسماء خاصة أو نخترع لها أسماء من عندنا ان لم ترو بها لاننا نرى الحكاية في هذه الحالة أجمل لانها تكون أعم وان لم يوافق القاريء على ذلك فليختر لها الاسماء التي يريدها هو أو يراها أجمل من غيرها وأرقى بالغرض ولا يخفى أن الرواية بدون أسماء تكون أسهل ولا تحمل السامع مجهودا فكريا يؤثر في تسلسلها أو في اللذة التي يشعر بها في أثناء سماعها لانها تفي بالغرض دون زيادة أو نقصان .

١١
الحكاية والحب

ان أكثر الحكايات تدور حوادثها حول الحب الذي يقع في شراكه شاب غالبا ما يكون أميرا ويقضي في سبيل الظفر بمن يهوى سنين يقاسي فيها الاهوال التي يشيب منها الوالدان حتى تكتحل عيناه بمنظر الحبيب وأكثر الحوادث تدور حول سعي هذا الامير البطل وراء حبيبته ، ولو نظرنا الى تسلسل الحكايات لوجدنا الحب يأتي عفوا كأنه الهام من السماء فقد يقع بالغرام لمجرد دعاء عجوز ساحرة عليه بأن يحب فتاة معينة أو لمجرد ذكر اسم فتاة جميلة أمامه أو لمجرد نظرة واحدة ولابد أن تكون هذه الفتاة التي لم يفكر كيف وقع في حبها آية في الجمال الساحر ولابد أن تقع في حبه أخيرا ثم يبدأ بأعماله العظيمة لتحقيق هذا الهدف وقد يقرب في بعضها من الهلاك الذي تنجيه منه قدرة قادر أو شجاعة نادرة أو ذكاء خارق فيقطع البحار وقد يطير في الهواء ويحارب الغيلان والسعالي ويعيش فوق فرسه يجوب الفيافي حتى ينالها وهكذا تعطي الحكاية أهمية عظيمة للحب وترفع الفتاة في عين محبها حتى يجعلها هدفا ساميا يستحق كل مايبذل لاجله من عناء وما يلاقي في سبيله من خطوب ومصائب يشيب لها الصغار ولا تفعل هذا مع الشباب فقط بل تفعل الشيء نفسه مع الفتيات العاشقات اذا كن هن بطلات القصة فالفتاة في سبيل حبيبها تفعل المستحيل كي تظفر به وتقطع الفيافي وقد تلبس حذاء من حديد فلا تحقق أمنيتها الا بعد أن يبلى هذا الحذاء ومتى يبلى الحديد ؟ كل ذلك كما أعتقد لترفع الحكاية هذا الرباط المقدس أي رباط الزواج في أعين الناس وتبني أسسه على دعائم ثابتة وقد تكون هذه الصورة أيضا رمزا الى أن الرجل

اللائق أو المرأة اللائقة لا ينالان بسهولة ان لم تذلل في سبيلهما المصاعب وتقتحم الشدائد ومما هو جدير بالذكر اننا قلما نجد أميرة تخون محبها أو أميرا يخون حبيبته أو يخدعها بل نلمس الوفاء عند المحب والحبيب يستمر حتى النهاية ولو لقيا في سبيله المخاطر وتحملا الالام .

ولعل جعل عقدة الحكاية من الجنس وتركيزها على الحب يقصد منها اجتذاب الناس الى سماعها أو التشوق اليها لان الغريزة الجنسية لها أعظم الاثر في تسيير حياة الانسان ويفضلها كثير من علماء النفس على جميع الغرائز ، وعن طريق التحدث عن الحب تشفي ما يحسه المحرومون أو المتشوقون في الحياة الى حبيب لا يطمعون في نيله وتنسج بصيصاً من الامل في حياتهم ، ومن ناحية اخرى نجد نقصا واضحا في الحكاية من هذه الناحية فالبطل لا يقوم بالبطولات لهدف سام أو لمطمح يريد تحقيقه يقصد منه خدمة الانسانية والمجتمع ولو فعلت ذلك لغرست روح الايثار في مجتمعاتنا وجعلت كثيرا من الناس يتفانون في سبيل اسعاد المجموع .

١٢
تشابه الحكايات

ان الحكايات تتشابه في البيئات المختلفة من وطننا وبخاصة في المدن المتباعدة من العراق فقد جمعت مجموعات منها من الوسط والشمال والجنوب وكان أكثرها متشابهاً أو يكاد يكون نفس القصص في تسلسل وقائعها وصورها المتباينة ما عدا بعض الاختلافات البسيطة التي هي من تأثير الرواة المختلفين لان كل حكاية تدور على ألسنة الناس لابد أن تتغير خطوطها الفرعية أو تفاصيلها وبعض وقائعها ولو تغييرا بسيطا وبخاصة اذا كان الرواة من ذوي الخيال الخصب البعيد عن التقليد .

وان تشابه هذه الحكاية يدلنا دلالة أكيدة على أن لها مصدرا واحدا يجمعها أو مصادر معينة تفرعت منها جميعها وان هذه المصادر اما أن تكون من قصاصين وهبوا خيالا بعيدا فاخترعوا هذه الصور الجميلة التي تسحر الناس واما أن تكون من رحالين جابوا الاقطار والبلاد طولا وعرضا وسمعوا في كل بلدة أنواع الحكايات العجيبة التي قد يكون بعضها واقعيا ولكن يد الخيال لعبت فيه فأبعدته عن الواقع ولابد أن يكونوا قد فتنوا بما سمعوا منها وأعجبوا بها أي اعجاب ثم نقلوها عند عودتهم الى أبناء قومهم ووطنهم وتناقلها الناس والرواة عنهم وكانت الحكايات تنقل من بلدة الى اخرى عن طريق المسافرين أو عن طريق رواة شغفوا بها وأرادوا جمعها فسافروا لاجل ذلك اذ كانت لها مكانة عظيمة في ذلك الحين حيث لا توجد وسائل التسلية الحديثة فكانت تقوم مقام السينما والتلفزيون .

ولابد أن نذكر مصدرا آخر للحكايات العامية وهو الكتب الخاصة كألف ليلة وليلة وقد انتشرت هذه بين الناس وأولعوا بها أو بقصص

الملاحم التي ألفت في القرن الرابع الهجري وما بعده فاقتبس القصاصون بعض وقائعها وصورها أو مزجوا بينها وبين ما يتداولونه من الحكايات وانتقلت عن طريق المسافرين والرحالة من بلدة الى اخرى .

وبعد ذلك ربما دونها جماعة من القصاصين في كتب خاصة كما دونت ألف ليلة وليلة وما شابه ذلك وقد ضاع معظم ما دون منها على الاكثر ولكنها بقيت محفوظة على ألسنة العامة يتناقلها الصغير عن الكبير حتى وصلتنا مع بعض التحوير والتغيير .

كما أن تشابه الحكايات في الاماكن المختلفة شيء حتمي لانها تعبر عن نفسية الانسان ومطامحه ورغباته التى لا تتغير في كل مكان وزمان وما يروق لجماعة في بلدة ما يروق للاخرين في بلدان اخرى فينقل اليهم ولو بعد سنين طويلة وهكذا تشابهت الحكايات في بلداننا المختلفة كما أن الحكاية تعبر عن آراء الانسان ومطامحه وأهوائه وما يصبو اليه في حياته وهذه الامور تتشابه بل تتفق عند الجميع حتى الذكريات القديمة التي ترجع الى تأريخ الانسان البعيد واخذت الالسن تتناقلها ولهذا نجدها عند كل قوم وكل مجتمع وأخيرا نقول ان الحكايات الدائرة في لغتنا العامية متشابهة لان مصادرها واحدة ولانها تعبر عن آمال ونزعات واحدة تتحدث بلغة واحدة وان كانت لغة عامية .

١٣
حكايات الامثـال

تدور بين العامة أمثال عديدة لو تقصيناها لوجدناها ترجع الى جذور قديمة قد تصل الى مئات السنين أو أكثر وانها قيلت في أول أمرها نتيجة لحادثة من الحوادث ثم تناقلها الناس وتناقلوا معها تلك الحادثة وأخبارها على شكل حكاية قصيرة وقد ضاع كثير منها أو بدل من قبل رواتها أو حور كما تلاعب الناس بصورها وأتوا بما يروق لهم اذ قد يتحدثون عن حكاية وقعت حوادثها متأخرة ونسبوها لمثل من الامثال بينما هي لا تنطبق تماماً على وقائع الحادثة الاولى التي قيل من أجلها بل تنطبق على حادثة وقعت بعد ذلك بعشرات السنين أو مئاتها وذلك لان الحكاية الاولى نسيت أو طغت عليها الحكاية الثانية فسمعها الناس وقرنوها بهذا المثل وهكذا تحورت وتبدلت حكايات الامثال في كثير من الحالات .

ونشاهد في هذه الحكايات القصيرة التي تدور حول بعض الامثال نقدا لاذعا للمجتمع وللحكام أو صورا مجسمة للحياة وتصرفات الانسان فيها ولا تزال هذه تطلق على ما يشابهها من حوادث فيسمعها الناس ويستعملها أكثرهم في المواضع التى لا تختلف عن الاصل كثيرا أو تمت اليه بصلة دون أن يتطرقوا الى سبب قولها في القديم لولا اننا نجد عرضا بين حين وآخر بعض المحنكين من العامة الذين وهبوا قابلية عظيمة في سرد الاحاديث والقصص يتبرعون مشكورين بتوضيح هذه الامثال وبامتاعنا بحكاياتها الجميلة العذبة فنزداد تعلقاً بها ونزداد متعة بحوادثها التي تصور الانسان والحياة والمجتمع في صور عارية تظهر محاسنها وعيوبها واضحة للعيان .

وهذه الحكايات قطع من مجتمعنا تصور حادثة واقعية حدثت فعلا يمكن أن يتحدث عنها الناس مع شيء من الفن والمبالغة بعكس الحكايات الاخرى التي تنأى عن الواقع وتكثر فيها المبالغات والخيال الرحب حتى تجدها تبعد عن الحقيقة والحياة ولا تمت اليهما الا بصلة بعيدة كما يوحي بذلك خيال القصاصين الذين قصوها واخترعوها .

واليك نماذج من حكايات الامثال هذه :

(أ) من يفهم أحمد أغا ؟

كان لامرأة ولد وحيد أضاعت زهرة شبابها في تربيته والانفاق عليه بعد وفاة والده حتى بلغ أشده وصلب عوده واستوى رجلا كاملا وكانت تعلق عليه الامال ليقوم مقام أبيه الراحل الى الدنيا الاخرة في الحدب عليها ومجازاتها على ما قدمته له من أياد وخدمات ولكن الزمان شاء الا أن يكذب ظنها فأن الدلال جعل من ولدها رجلا فاسدا شريرا عاقاً فكان يقضي أوقاته بالسكر والعربدة واللهو ويعاشر أصدقاء السوء ويسومها سوء العذاب ويعتدي عليها بالضرب والشتم ويسرق ما ادخرته من مال جنته ولا تزال تجنيه بعرق جبينها وتكرر ذلك مرات ومرات والام تسكت على مضض حتى نفذ صبرها ولم يبق لديها أي قابلية لتحمل المزيد منه فمضت الى الوالي أحمد أغا لتشكوه لعله يردعه ويصلحه ودخلت عليه وقصت قصتها فرق لها وطلب منها أن تمضي مسرعة لجلبه معها وأرسل برفقتها اثنين من رجال الشرط وقبل أن تغادر مجلسه مرت قرب قاعة يعذب فيها المجرمون وشاهدت زبانية الوالي يذيقونهم مر العذاب ويفعلون بهم ما لا يمكن لانسان أن يتحمله وبينما هي تمعن النظر بادرها أحد الشرطيين قائلا اذا ذاق ابنك بعض هذا العذاب فسيقلع عن غيه الى الابد وعندما تصورت ولدها وفلذة كبدها بينهم اعترتها هزة كادت

ترميها على الارض جثة هامدة فارتد اليها صوابها ولكن ماذا تفعل وقد سبق السيف العذل غير أنها بعد ان فكرت هنيهة توصلت الى حل حاسم وسارت مع الشرطيين تضرب في شوارع المدينة على غير هدى وبينما هي تسير اذا بها تشاهد شابا غريرا يشبه ولدها مقبلا عليهم فقالت لنفسها ما المانع في أن أقول هذا ولدي ، وتقدمت منه وأشارت الى الشرطيين ليقبضا عليه مدعية أنه ابنها العاق ولم تجد صرخات الشاب ولا انكاره ولا قسمه حتى قدم للوالي وما كاد يقف أمامه حتى أخذ يقسم وينكر أن تكون هذه والدته فرد عليه غاضبا : أتبلغ بك الوقاحة الى هذا الحد يأيها الولد الخائن المجرم اللئيم ؟ ثم التفت الى زبانيته آمرا وهو يقول خذوه واجلدوه جلدا مبرحا وبعد ذلك فليحمل والدته على كتفيه وليسر بها في الشوارع حتى يوصلها الدار ليكون عبرة لمن اعتبر ومهزلة بين الناس ففعلوا به ما أمر الوالي ، ثم حمل العجوز على كتفيه وأخذ يسير في الطرقات وجموع الصبيان تتبعه مستهزئة به والناس ينظرون اليه نظرات احتقار ومهانة وبينما هو يسير اذا بأحد أصدقائه الخلص يراه فيتقدم منه متعجبا من حالته المخزية العجيبة قائلا : ماذا بك ياصديقي ؟ ومن هذه التي تحملها ؟ فأجابه أنها والدتي وقد أمرني الوالي بحملها عقابا لي على عقوقي وعدم رعايتي لها فتعجب الصديق وكان يعرف والدته حق المعرفة ورد عليه : ولكنها ليست والدتك يأخي وأخاف أن يكون في الامر سرّ بشع تخفيه عني وأنا أخلص صديق لك ، فرد عليه الشاب مرددا بحزن وغضب : لقد قلت لهم وأقسمت مرات ومرات بأنها ليست والدتي فلم يصدقوا « ولكن من يفهم أحمد أغا ؟ » وما ان سمع الصديق جوابه حتى تلفت يمينا ويسارا ثم وجد له منفذا هرب منه لئلا يقبض عليه الشرط ويساق الى أحمد أغا فينال ما ناله صديقه ظلما وعدوانا لان أحمد أغا رجل عنيد ظالم لا يفهم ولا يعرف الحق ولا كيف يحكم الناس .

(ب) حكم قره‌قوش

كان لرجل موسر ولد وحيد حرص على تربيته وضحى بكل شيء في سبيله ولم يبخل بالغالي والرخيص لاجله حتى كبر واشتد عوده ولكن الغنى جعل منه شابا مستهترا ينفق ما يشاء بغير حساب فكف والده عن اعطائه ما يريد وحدد مقدارا من المال يدفعه له كل شهر ولكن هذه الكمية لم تكن لتسد حاجته التي ليس لها حدود فأخذ يقترض من أصدقائه أصدقاء الرخاء وهم كانوا يعطونه ما يريد لانهم يدرون أن والده واسع الغنى وستؤول اليه أمواله قريبا اذ بلغ أرذل العمر ويوم انتقاله من هذه الدنيا ليس ببعيد فهو هامة اليوم أو غد وسيرث ابنه كنوز الفضة والذهب التي يملكها ، ولكن ظنهم خاب اذ أمد الله في عمر الوالد وأعاد اليه ثياب الصحة فضاقت بهم الدنيا وأخذوا يلحفون على ولده بسداد دينه وهو يرجوهم أقراضه مزيدا من المال ليرضي شهوات نفسه حتى سدت السبل أمامه وأمامهم وهنا تفتق ذهن أحدهم فقال للشاب : ما يضر لو خدرنا والدك وأودعناه القبر حياً حيث يختنق تحت التراب فاذا بك رجل غني ترث أمواله وتفي ديوننا وتسد حاجياتك وبعد تفكير قليل وافق على ذلك وقدم لوالده مخدرا وأخذ يصرخ قائلا مات والدي وا والداه ثم تجمع أصدقاؤه وغسلوه وكفنوه ثم حملوا نعشه ليواروه التراب في مثواه الاخير وأبطأوا في هذه العملية وفاتهم ان المخدر له وقت محدود سرعان ما يزول مفعوله ويستيقظ الوالد ويسقط في أيديهم وهذا ما حصل فعلا فلسوء حظهم بطل أثر المخدر وهم يسيرون به في وسط المدينة ونهض الميت وأخذ يصرخ : انجدوني انني حي وهم يريدون دفني رغم ذلك لينهبوا أموالى ، وأسرع الشرط وأخذوهم الى الحاكم (قره قوش) وتقدم الوالد وقص قصته وطلب معاقبة ولده وأصدقائه المجرمين الذين أرادوا دفنه حيا ، ثم تقدم الولد فسأله الحاكم قره قوش:

أميت والدك أم حي ؟ فأجابه أنه ميت وتقدم بعده أصدقاؤه واحدا واحدا فأجابوا نفس الجواب قائلين ياحضرة الوالى أنه محتال كذاب لا تسمع كلامه ولا تصدقه فهو ميت وكلنا شهود على وفاته وقدموا له هدية كبيرة فالتفت الوالي الى الوالد وقال له : كيف تطلب مني أن أصدقك وأكذب كل هؤلاء الشهود ؟ انك ميت وميت ثم صرخ قائلا خذوه وأسرعوا في دفنه لينجو الناس من كذبه ومكره •

وهكذا كان حكم قره قوش •

(ج) ما بين حانه ومانه ضاعت لحانا

كان لرجل كهل زوجتان الاولى جاوزت الاربعين واشتعل رأسها شيبا وتدعى (حانه) والثانية شابة صغيرة فى ريعان الصبا شعرها كالليل بلا نجوم سوادا وتدعى (مانه) ، وكان لهذا الرجل لحية كبيرة دب فيها الشيب واختلط سوادها ببياضها •

وكان من عادته أن يمضي ليلة عند الكبرى حانه وثانية عند الصغرى مانه وهكذا دواليك فعندما يبيت عند حانه تنتف شعراته السوداء وتبقي البيضاء لانها تريده أن يكون مثلها فى بياض شعره ، وعندما يبيت عند مانه تنتف شعراته البيضاء وتبقي السوداء التي تشبه شعرها لانها تريده أن يظهر كأنه فى عنفوان شبابه •

ولم يمض وقت طويل حتى وجد نفسه بلا لحية اذ نتفت شعراتها جميعا فنزل الى السوق فسأله أصحابه : أين لحيتك ؟ فأجابهم والاسى يحز فى نفسه : ما بين حانه ومانه ضاعت لحانا •

(د) فيّ ولا في الاحمر

نزل سوادي الى المدينة فرأى حذاء أحمر أعجب به فاشتراه

بدريهمات وجد جهدا عظيما في توفيرها ، وبعد ان قضى حاجياته عاد الى قريته القريبة مشياً على الاقدام كعادته وبينما هو يسير لابسا حذاءه الجديد متباهيا به اذا بأرض يغطيها الشوك ما كاد يسير خطوات فيها حتى أخذ حذاؤه الجميل يتخدش فحزن لذلك ووقف يفكر فيما يفعل لينقذ حذاءه وهنا تفتق ذهنه عن حيلة لم تدر فى خلد انسان اذ نزع الحذاء وحمله تحت ابطه واخذ يسير حافيا رابط الجأش فوق الشوك الذى لم يرحمه ولم يدعه وشأنه بل أخذ يداعبه مداعبة قاسية ويخزه كالابر فى كل خطوة بحيث يجعله يقفز من شدة الالم ولكن حرصه الشديد على حذائه الاحمر واعزازه له جعلاه يفرح لهذا الالم فكان في كل قفزة ينشد بفخر (فّي ولا في الاحمر) وهو يشعر شعور المنتصر وكان يكرر هذه الاغنية فى كل مرة حتى اعتقد من رآه من الناس أنه جن ولعله جن حقا ، اذ كان يقفز ويصرخ بين فترة واخرى (فّي ولا في الاحمر) وهو طرب لمايصيبه من الاذى ما دام حذاؤه الاحمر في منجى من الشوك ولم يدر السامعون الا بعد لأي أنه يقصد بكلامه هذا : ليصبني ما يصيبني من هذه الوخزات المؤلمة ما دام حذائي الجميل في منجى من الشوك الذي يحاول تخديشه والذهاب بجماله ولتتألم رجلي فداءً لحذائي .

نماذج من الحكايات

١
العاقل والمجنون

كان ما كان كان في قديم الزمان اخوان فقدا الاهل والاصحاب وسلب الموت الزؤام منهما جميع الاحباب وكان أحدهما عاقلا والآخر أحمق مجنونا ولكنهما عاشا سوية مدة طويلة من الزمن رغم هذا الفارق العظيم بينهما حتى اختلفا في يوم من الايام وقررا أن يقتسما ما عندهما من مال وكان بقرة وحمارا فرضي العاقل بالحمار مرغما وأخذ المجنون البقرة عنوة وبقيا مدة طويلة يعملان ويعيشان حتى أفلس المجنون فأراد أن يبيع البقرة فأخذها وسار واذا بفأرة تقفز أمامه ثم تقف خلسة متفرسة به فظنها تقول له : أنا أشتري بقرتك بما تطلبه من ثمن لها ، ثم قفزت قفزتين واختفت في جحرها فظن انها تقول له تعال وتسلم ثمنها بعد يومين فمضى على أن يعود لتسلم النقود في اليوم الذي عينه له خياله واحلامه الجنونية ولم ينس أن يخبر أخاه عن هذه الصفقة فهز رأسه استخفافا ولم ينبس ببنت شفة خوفا منه ، ولما حان الموعد المحدد ذهب الى الفأرة مطالبا اياها بتسديد ما عليها من دين فهربت فتبعها حتى اختفت في جحرها فأخذ يحفر في ذلك الموضع وبعد مدة ظهر له صندوق ففتحه فاذا به مملوء ذهبا فطرب لمرأى الاصفر الرنان حتى كاد يطير فرحا وعاد مسرعا الى أخيه ليزف اليه البشرى ويطلب منه مساعدته في نقله عارضا عليه أن يتقاسما هذا الكنز الثمين فأخذ العاقل حماره وسار وراء أخيه المجنون الى أن وصلا الى المحل المعين فأسرع الى الصندوق فوجد مصداق قول أخيه وهنا تعاونا على وضعه فوق ظهر الحمار ثم عادا الى البيت والسعادة تملأ قلبيهما والامال العذبة تداعبهما

وما كادا يستقران هنيهة حتى أخذا يحاولان اقتسام المال فيما بينهما

فلم يرض المجنون بأي حل اقترحه له أخوه وقال لابد أن نتقاسمه بمكيال بيت السلطان كي لا يقع الحيف على أحدنا وقبل أن يسمع اعتراض أخيه خف مسرعا الى بيت السلطان وطلب منهم مكيالا وعندما سألوه عما يفعل به أجابهم لاكيل حنطة اشتريتها فأعاروه أياه فعاد الى البيت حيث تم اقتسام الذهب بينه وبين أخيه ثم أخذ المكيال ورده الى بيت السلطان دون أن ينظر فيه فأخذته احدى الاماء وما كان أشد دهشتها عندما رأت دينارا أصفر ملتصقا بحافته[1] فأسرعت واخبرت سيدتها التي لم تتوان عن أخبار السلطان فغضب وداخله الطمع وأرسل في طلب الاخوين فلما مثلا أمامه سألهما عما اكتالا بالمكيال وعن قطعة الذهب المخفية فيه فأنكرا أن يكون لهما ذهب ولكن السلطان لم يصدق ما ذكراه وأمر بسجنهما وفي الليل نهض المجنون وكان قويا جبارا وأيقظ أخاه العاقل وقال له سأقتلع باب السجن الخلفي فاسرع واتبعني ثم مضى وأمسك بباب السجن وبحركة بسيطة اقتلعه وحمله معه وهرب هو وأخوه بعد أن عادا الى البيت وحملا الذهب ولم يرض المجنون الا بأن يحمل باب السجن معه فوافق أخوه على مضض وأسرعا الى خارج المدينة ملتجئين الى غابة كثيفة لتحميهما من أعين الجند والحراس حتى وصلا الى شجرة عالية وارفة الظلال متفرعة الاغصان ، وفي هذه الاثناء استيقظ السجانون فرأوا السجن مفتوحا لا باب فيه والاخوين لا أثر لهما فاشتد بينهم الهرج والمرج وأسرعوا مقتفين أثرهما الى أن وصلوا الغابة ففتشوا في نواحيها حتى داهمهم الليل فتعبوا وغلبهم النعاس فناموا وصادف أن اختاروا لنومهم ظل الشجرة التي اختفى بين أغصانها الاخوان اللذان كتما أنفاسهما وانتظرا بزوغ الفجر حين يتبين الخيط الابيض من الخيط الاسود فنهض

---

(١) تتكرر هذه الحادثة أي حادثة التصاق قطعة من الذهب في كل حكاية تدور حوادثها عن كنز عثر عليه كما ان المكيال أيضا يستعار غالبا من بيت السلطان كما في هذه الحكاية .

المجنون وحمل باب السجن وألقاه على الجنود النائمين فماتوا جميعا عن بكرة أبيهم تحته أما هما فقد نجوا من شرهم ولم يدعا الوقت يمر بل بادرا الى الذهب فحملاه وأخذا يمشيان بعيدا عن بلدتهما فسارا ساعات عديدة حتى أدركهما التعب وأحرق العطش أحشاءهما فحارا في أمرهما وأخذا يفتشان عن الماء فوجدا بئرا اقتربا منها فما كان من المجنون الا أن أسرع الى النظر اليها ليتأكد من وجود الماء فيها فرأى صورته في قعرها فظنها شبحا فناداه طالباً منه أن يملأ الماء لهما ليشربا فلم يجبه الشبح ومتى تكلم ظل الانسان ؟ ومتى كانت الصورة تجيب صاحبها ؟ فغضب ورمى نفسه في البئر ليلحق الشبح الذى تخيله وكانت البئر عميقة فغرق ومات ولم يتمكن أحدٌ من انقاذه فأخذ العاقل الذهب ومضى الى بلدة بعيدة حيث اشترى له قصرا فخماً واماء وعبيدا وانشأ له تجارة واسعة فاشتهر في تلك البلدة وكبر في أعين الناس لما كان يتصف به من ذكاء واخلاق فاضلة ثم خطب ابنة السلطان فتزوجها وبعد ان مات حموه تسلم العرش من بعده وعاش سعيدا مع زوجه ورزقه الله بأبناء بررة وهبوا شجاعة عمهم وفطنة أبيهم مع خلق رفيع وبقي ينعم بالملك والجاه حتى داهمه مفرق الاحباب ومنغص اللذات فاستلبه من بين جنده وأهله(*) .

(*) هذه الحكاية بدائية في بعض اخيلتها فالاطفال الصغار جدا هم الذين يتخيلون ويعتقدون ان الجماد والحيوان يتكلمان على هذه الصورة وهم الذين يحادثون أشباحهم يحسبونها كاناس تفهم وتتكلم كما فعل الاخ المجنون ، ولكنها من ناحية أخرى ترمز الى نقطة مهمة في المجتمع اذ نرى المندفعين المتهورين في بعض الحالات ينالون أمورا لا يحلم بها الانسان ولكنهم لا يتمكنون من استثمارها والابقاء عليها لانهم لم يوهبوا طبيعة هادئة متزنة ولهذا لم يفد المجنون من شجاعته وتهوره شيئا بل استفاد اخوه العاقل فقط ، وهلك هو أخيرا في احدى نزواته واندفاعاته المتهورة ، ومن ناحية ثالثة نجد الحظ أو القضاء والقدر يلعب دوره اذ يعثر المجنون نتيجة خياله الجنوني على هذا الكنز الثمين وكم من فقير قضى الليل مفكرا بكنز يعثر عليه كما عثر هذا المجنون على ذلك الصندوق المليء بالذهب وما هذه الخيالات الا رأس مال المحرومين أو الكسالى .

٢

الملك وأولاده الثلاثة

كان ما كان ولله الاذعان كان في قديم الزمان ملك جبار عظيم الشأن تخافه الملوك وتعنو له طائعة ذليلة وكان لهذا الملك ثلاثة أولاد في ريعان الشباب وهبوا ذكاء وقوة كبيرهم يدعى أحمد والاوسط يدعى محمودا والصغير يدعى محمدا وكان والدهم يحب الازهار ويعنى بها عناية عظيمة وقد أقام له حديقة فيها كل ما تشتهي النفس من الورد المنظوم والمنثور والشقائق والعطر والزنابق التى تفوح شذى وتختال حسنا وكان من بينها نوع من الازهار نادر الوجود له منظر يسحر النفوس ورائحة تنعش القلوب وما أشد دهشة الملك وحزنه عندما رأى أن هذا النوع النادر ينقص كل يوم زهرة تقطف على حين غرة في الليل ولم تجد نفعا كثرة الحراس ولا أسوار قصوره المنيعة كأنما روح هائمة من السماء أعجبت بها فأخذت تنزل اليها كل ليلة لتقطف منها واحدة تجد في منظرها ونشرها راحة لها ولما توالى ذلك أياماً متعاقبة غضب أشد الغضب وطلب من أولاده السهر ليلا لمعرفة السارق الاثيم والاقتصاص منه فتقدم الكبير ونصب له سرادقا في الحديقة وسل سيفه من غمده وعيناه تقدحان غضبا وشررا ليفتك بالجاني الاثيم ولكن ما أن مضت ساعة من الليل حتى داهمه النعاس فغط في نوم عميق لا توقظه منه الصواعق والرعود وعند منتصف الليل قدم مارد مخيف فأسرع الى موضع الزهر النفيس النادر وقطف زهرة ثم كر راجعا لا يشعر به أحد كأنه خيال وليس مخلوقا من لحم ودم وعندما أصبح الصباح أتى الوالد مسرعا وما أشد خيبته في ابنه عندما وجد زهرة قد قطفت وابنه قد قضى الليل نائما لا يعي فغضب عليه ووبخه ثم دعا

محمودا ابنه الاوسط ليحرس الازهار في الليلة المقبلة ولكنه لم يختلف عن أخيه الكبير في شيء اذ داهمه النعاس وأتى المارد اللعين فقطف أحسن الزهرات وعاد سالماً غانماً لا يعلم به أحد ، ولكن الايام بالمرصاد لا تدع ظالماً بدون عذاب ولا مجرما بدون عقاب اذ تقدم في اليوم الثالث الامير محمد وهو الابن الاصغر واختفى في السرادق وعيناه لا يغمض لهما جفن وعزماته لا تكل ولا تني حتى انتصف الليل فاذا به يسمع حفيفا بين الاشجار وما أشد دهشته عندما رأى ماردا مخيفا يتطاير الشرر من عينيه وتهتز لمرآه رعبا الاغصان والازهار ولكنه كان يمشي رويدا رويدا لئلا يوقظ ضجيجه النائمين الى أن وصل الى منطقة الزهر الثمين فاقتطف أجمل زهرة وأبدعها وعاد مسرعا يطوي الارض طياً ولكن محمدا أسرع وراءه وأخذ يتبعه كظله حتى رآه يغوص في بئر خارج المدينة فعاد مسرعا من حيث أتى وفي الصباح أخبر والده وطلب منه الاذن بمتابعة أثره والقضاء على هذا العدو اللدود الذي سيتعدى حتما في يوم من الايام على الحرائر بعدما سولت له نفسه دخول حرم الملك الحصين ، فلبس عدة الحرب وغاص في الحديد وتبعه أخواه وأبطال جيش أبيه المغاوير حتى وصلوا الى بئر المارد الاثيم وكانت بعيدة الغور لا يصل قعرها أحد الا اذا تدلى من أعلاها وربط بالحبال القوية فتقدم الامير الكبير أحمد وطلب سبق غيره في القضاء على العدو اللدود الخائن وقال لاصحابه وهو يتدلى اذا قلت الماء حار فأسرعوا في سحبي الى أعلى لان حياتي ستكون اذ ذاك في خطر عظيم أو أنني قد أديت واجبي وأردت منكم ارجاعي اليكم اذ لم تبق حاجة لبقائي فتدلى رويدا رويدا وهو ينادي مزمجرا أين أنت أيها المارد سأقطعك أرباً أرباً وما فتيء أن لمح شبحا في الماء فتخيله ذلك المارد وظن أنه خرج اليه ليذيقه الردى ناسيا أنه خياله انعكس في البئر فارتجف وأخذ يصيح كالمخبول الماء حار حار ولم ينقطع صراخه حتى وصل أعلى

البئر واخرجه أصحابه منها فسقط أرضاً وهو على آخر رمق من الحياة وهنا تقدم أخوه الاوسط محمود ولم يفعل أكثر مما فعله الاكبر اذ ما كاد يصل منتصف البئر حتى اصطدم سيفه بصخرة في حائط فظن صريره صوت غريمه وتخيل أنه قدم ليطارده فصاح ملء فيه : الماء حار حار ، بنبرات مرتجفة من الذعر الى أن أخرج وهو لا يكاد يصدق أنه حي .

وبعد ذلك حان دور الاخ الاصغر محمد الذى تقدم بخطوات ثابتة وقال لاصحابه لا ترفعوني مهما استغثت ورددت الصراخ وتدلى في البئر حتى وصل قعرها فرأى ممرا كبيرا سار فيه فاذا به أمام قصر عظيم فدخله فسمع شخيرا مفزعا ترتجف له القلوب الضعيفة فتقدم بعزم كالصخر وبقلب صلب كالحديد الى مصدر الصوت فرأى فتاة تخجل الشمس بجمالها وتسحر النفوس برقتها ودلالها وعلى فخذها رأس ذلك الغول الدميم الذى تشمئز منه النفوس ووجد الزهرات الجميلات قدعلقت على صدرها كأنها نجوم متلالئة في هالة بدر مشرق فأشارت له الى سيف قريب يتقلده المارد في جولاته خارج البئر يكمن الموت الزؤام في حده وكان يقطر من دماء الضحايا فسحبه محمد ولم يرض أن يقتل غريمه نائما بل أيقظه فما أن أفاق كالمذهول حتى عاجله بضربة أطاحت برأسه فسقط على الارض متخبطا بدمائه كأنما هدم بسقوطه بناء مشمخر وأخذ يتهاوى الى الارض فأسرعت اليه الفتاة وعانقته مهنئة وأخبرته كيف اختطفها من قصر أبيها ملك البلاد المجاورة وجاء بها الى حصنه هذا وقصت عليه مالاقته من عذاب وهول فأعجب بها ووقع في حبها وسارا يطلبان النجاة فسدت أمامهما الطرق حتى رأيا شيخا كبيرا قد حنى الدهر ظهره ووهن عظمه وأمامه كبشان أحدهما أبيض والاخر أسود فقال لهما من يمتط الكبش الابيض يطر به الى سطح الارض ومن يمتط الكبش الاسود يغص به الى الطبقة السابعة من الارض ولا يمكن الخروج من هنا الا عن هذين

الطريقين فأعطى الكبش الابيض للفتاة وقال لها انتظريني عند أبي وأخبريه القصة كاملة فطارت الى أعلى وهناك أسرع اليها أخواه وأخذاها الى أبيهما متباهيين بشجاعتهما الخيالية باكيين على أخيهما الاصغر الضعيف الذي هلك في المعركة طالبين منه أن يزوج أحدهما من هذه الفتاة الحسناء ولكنها مانعت ولم ترض بديلا عن محمد أخيهما وتضرعت الى الملك أن يتركها وشأنها لانها لابد أن تقضي سنين طويلة مجللة بالسواد حزنا على اهلها الذين أهلكهم هذا الغول اللعين فأجابها الى طلبها وأبعد ولديه عنها حينا من الدهـــر .

أما الاخ الاصغر فقد غاص به الكبش الى الطبقة السابعة فرأى نفسه في دنيا غريبة عنه كلها أشباح فأخذ يطوي الارض لا يعلم أين يسير الى أن رأى من بعيد شجرة شامخة في السماء فأسرع اليها وقد داهمته الظهيرة بحرها اللافح ليتفيأ ظلها الوارف وما أن وصلها حتى ارتمى على الارض وأخذته إغفاءة عميقة ولكنه لم يكد يغفو قليلا حتى استيقظ مذعورا على أصوات أفراخ نسر تصرخ فزعا ورعبا فنظر الى أعلى فوجد حية كبيرة تريد ابتلاع هذه الفراخ الضعيفة فأسرع اليها وقطعها بسيفه الى قطع صغيرة ووزعها على الفراخ التي التهمتها ولكن صغيرها احتفظ بحصته واخفاها في جانب خفي من العش ثم نزل محمد الى الارض وواصل نومه وبعد مدة أقبلت أم النسور الصغار ولما رأت محمدا استشاطت غضبا وطارت مسرعة وأتت بصخرة كبيرة وهمت بالقائها على رأسه فرآها فراخها فملأن الجو صراخا وأخذن يتطايرن أمامها ويتساقطن على الارض فوق محمد لمنعها من قتله والقاء الصخرة عليه فعجبت من ذلك وطلبت منهن أيضاحاً لمعرفة السبب فأخبرنها بقصة هذا الانسي وما فعله معهن وكيف أنه أنقذهن من الافعى التى أرادت قتلهن وابتلاعهن فلم تصدق لانها لم تر لهذه الافعى أثرا وهنا تقدم الفرخ الصغير وأراها حصته التى

احتفظ بها فندمت على ما كادت تفعله ونزلت الى الارض وأخذت تهز جناحها رويدا رويدا في وجه محمد ليهب عليه هواء بارد يجعل نومه هادئا مريحا وبعد ساعات استيقظ وما أعظم دهشته حين وجد أم النسور بجانبه فتقربت منه وشكرت له فضله وقالت له أطلب ما تريد فرد عليها أريد منك أن تطيري بي الى سطح الارض حيث أهلي وأقربائي وبلادي فزفرت زفرة عميقة وقالت له لو هلك فراخي لكان ذلك أهون عندي من تحقيق ما طلبته ولكن أبشر فلابد أن أنقذك كما أنقذتهن فاسترح في محلك حتى آتيك بعد ان أملأ بطني بطعام دسم يكفيني لهذه الرحلة البعيدة وبعد ساعات قليلة أقبلت اليه وحملته فوق ظهرها وأخذت تقطع طبقات الارض البعيدة الغور وتطير به عاليا حتى حطت به فوق سطحها بعد سفر طويل فشكر لها فضلها وودعها وسار متوجها الى بلده وبعد أيام قليلة وصل قصر والده فعندما رآه الحرس لم يعرفوه وظنوه خيالا أتاهم من العالم الاخر لان أخويه كانا قد نعياه لوالده ولكنه لم يلتفت اليهم بل دخل القصر ولما رأته الحاشية اشتد فرحهم وعلا الهرج والمرج فتطلع أخواه ليسألا عن السبب وما أشد دهشتهما عندما رأيا أخاهما قادماً فتسللا خلسة وهربا من القصر ومن مملكة أبيهما خوفاً من غضبه يجللهما الخزي والعار ولما علم الملك بقدومه هش وبش وتلقاه بالاحضان وهنا تقدمت تلك الفتاة وسارت الى جانبه حتى وصلا العرش فخرا ساجدين أمام الوالد العظيم الذى اهتز طربا لرجوع ولده سالما وطلب منه أن يقص عليه ما جرى له فقص له الخبر صحيحا والفتاة تؤكد حديثه العجيب ولما انتهى من حديثه تقدم الى والده راجيا عقد قرانه على فتاته هذه فلم يتوان في ذلك بل أعلنت البشائر في القصر وعمت الافراح بزواج محمد وفي غمرة الحفلات البهيجة التي عمت البلاد بأسرها أعلن الملك تنازله عن العرش لابنه الاصغر الشجاع وأميرته الجميلة فتوجهما ملكين وأقام

لهما المراسيم فقضيا عمرا سعيدا ورزقا امراء أبطالا وبعد عمر طويل داهمهما الموت مفرق الاحباب ومنغص اللذات واختطفهما من بين أبنائهما وأحفادهما(*) .

(*) هذه الحكاية تخص الامير الاصغر بالبطولات كعادتها وتظهر اخويه بصورة مخزية فهما خاملان رعديدان مخاتلان لا يتورعان عن سلوك أحقر السبل في تحقيق مآربهما ولم تكتف بذلك بل انها حتى بين الحيوان نسبت النباهة الى اصغر النسور الذى لولاه لما صدقت أمه بحكاية فراخها ولربما قضت على الامير الاصغر ولو فعلت ذلك لبدت في عملها مثالا للعقوق ونكران الجميل .

كما اننا نلاحظ في الحكاية أمنية راودت الانسان منذ قديم الزمان وهى أمنية الطيران والانطلاق بعيدا في الفضاء وقد حققتها الحكاية هنا عن طريق النسر الذى حمل بطل القصة واخرجه من الطبقة السابعة تحت الارض اذ ان الناس كانوا يعتقدون قديما ان الارض تتألف من سبع طبقات .

ونلاحظ ايضا في هذه الحكاية نظرة سامية نحو الازهار حتى جعلت نوعها الثمين سببا في المغامرات التى قام بها البطل كما انها أخبرتنا أن الغول كان يسرق الازهار ليقدمها لحبيبته لتكون دليلا على حبه العارم لها وهذه الفكرة تبين لنا ان للزهر منزلة عظيمة عند الانسان منذ أقدم العصور يعبر بوساطتها عن حبه واحترامه للاخرين .

٣

الشيخ الساحر

كان ما كان والله ينصر السلطان كان في قديم الزمان وسالف العصر والاوان صائغ اسمه نعمان يعيش في مدينة كبيرة ويسكن بيتا متواضعا مع أمه العجوز ورثه عن أبيه وبينما كان في دكانه يصوغ الذهب في أحد الايام اذا بشيخ وقور يقف أمامه ويبدؤه بالسلام وكانت علائم الغنى والسيادة تبدو على محياه وتفرض الاحترام على من رآه فما كان من نعمان الا أن نهض من مقعده احتراما ليرد عليه التحية والسلام طالبا منه أن يتفضل بالقعود ولما قعد أخذا يتجاذبان أطراف الحديث فأعجب من سعة علم ضيفه وكثرة أسفاره وغناه وحين طرق على سمعه من الشيخ أنه غريب قدم الى هذه المدينة لامر يخص تجارته الواسعة وان الصدف دفعته الى هذا المحل كاد يطير فرحا وما كان منه الا أن ألح عليه بأن يشرفه بالمجيء الى داره المتواضعة ويكون ضيفه طوال مدة أقامته حتى تنتهي أعماله وقد وافق الشيخ بعد ألحاح طويل وفي المساء رجعا سوية الى الدار فاستقبلت العجوز ضيفها بالترحاب وقدمت له أطيب المآكل والمشارب ثم بعد ان انتهيا من الطعام شرعا يتبادلان الكلام ويتجاذبان الاراء والاخبار ثم تطرقا الى تحويل المعادن الى الذهب وهنا وقف الشيخ وأوقد نارا وطلب قدرا فجيء بها اليه فوضعها على النار ثم رمى فيها قطعة من الحديد وتركها الى أن احمرت فمد يده الى جيبه فأخرج علبة وفتحها وأخذ منها ذرة من مسحوق كيمي ذره على الحديد فاذا به يتحول بقدرة قادر الى ذهب(*)

(*) راودت الانسان فكرة الغنى عن طريق تحويل المعادن الى ذهب فاخترع الكيمياء لاجل هذه الغاية ولكنه لم يتمكن من تحقيق امنيته الا في الخيال والحكايات كما تشاهد هنا .

يخطف بريقه الابصار لا شائبة فيه ثم قدمه بعد ان برد هدية الى مضيفه الذي سر وبش لما رآه وشكر له هديته ومكث الشيخ عدة أيام وهو في كل يوم يحول قطعة من الحديد الى ذهب ويعطيها لمضيفه هدية حتى أخذ نعمان يراود الغنى ويمني نفسه بالجاه والاموال الطائلة ويشكر الحظ الذي أرسل له السعادة بوساطة هذا الضيف الغريب وبعد أيام قال الشيخ متحسرا كنت اتمنى أن أقدم اليك مالم تطمح اليه نفس وأن أجعلك في أعلى مراتب الغنى لانني رأيتك فتى شريفا عظيم السجايا والصفات ولكن المادة التي تحول الحديد الى ذهب قيدتني عن ذلك اذ نفذت من عندي وأنا حزين على ذلك أشد الحزن ومستعد أن أقدم لك ماتريد اذا رافقتني في رحلة قصيرة لا تتجاوز ثلاثة أشهر في البحر لنصل الى محل ينبت فيه نبات خاص اذا اقتطف وجف وسحق أنتج مادة تحول المعادن الى ذهب فصدق نعمان وعده واطمأن اليه واعتراه شوق دفين الى الاسفار وأخبر امه العجوز التي مانعته في رغبته ولكنه لم ينصت اليها ثم أخذ يعد العدة للرحيل حتى حان اليوم الموعود فخرج هو والشيخ من داره وغادرا المدينة يقطعان البيد ويجوبان في الآفاق الى أن وصلا ساحل البحر فانتظرا هناك أياما قليلة حتى وصلت سفينة تعود الى الشيخ نفسه فركباها وأخذا يقطعان البحار في الليل والنهار وبعد أيام لاحت لهما عن بعد جزيرة واسعة يشمخ في وسطها جبل تناطح قممه السحاب وتزاحم النجوم ليلا في أفلاكها فأمر الشيخ بأن ترسو السفينة في هذه الجزيرة وبعد أن رست أخذ معه الصائغ وسارا بعيدا حتى وصلا الجبل وصارا أمام سفحه العظيم فقال له لقد وصلنا المحل الذى كانت تصبو اليه نفوسنا هذا المحل الذى يضم أنفس نفائس الدنيا الا ترى هذه الحشائش اليابسة في أعلى الجبل انها العقار السحري الذي يحول المعادن الى ذهب فأذا بها صفراء بقدرة قادر ولم يبق بيننا وبين أن نكون أغنى رجلين في العالم الا ساعات قلائل

والا أن ترقى هذا الجبل فنظر نعمان الى القمم العالية التي يستحيل على المرء بلوغها والتفت الى رفيقه حائرا مندهشا فما كان من الشيخ وقد فهم ما يدور في خاطره الا أن قال له لاتخف سادعو لك أحد عبيدي ليرفعك الى المحل المطلوب فلا ترى نفسك الا في أعلى قمة بلمح البصر وبدون أن تتحمل الصعاب والمخاطر وبعد أن تقضي مهمتك سينزلك كما صعدت فاطرب يا صديقي للحظ السعيد الذي جمعك بي ثم انتحى جانبا عن صديقه وفرك خاتما في كفه فأذا بمارد أسود من الجن يقف أمامه وينحني بخضوع قائلا لبيك لبيك أنا عبد بين يديك فاطلب آمرا بما تريد فلما رأى نعمان العبد ذعر وحار في أمره ولكن حيرته لم تدم اذ سرعان ما أمر الشيخ المارد بأن يطير بصديقه الى أعلى قمة في الجبل فحمله بين ذراعيه وطار به مسرعا كأنه شهاب ثاقب ووضعه في احدى ذرا هذا الطود العظيم ثم تركه ومضى ، ولرب سائل يسأل لماذا لم يأمر الشيخ مارده هذا بقطف الحشائش السحرية ولماذا استعان بنعمان ؟ وهل فعل ذلك لاجل اسعاده ؟ والجواب على هذا هو أن هذه الحشائش مسحورة لا تقطع الا من قبل رجل جاهل مسكين ضعيف الادراك عديم الذكاء وقد وجد الشيخ ضالته في هذا الصائغ الذي يدل مظهره على ما يريد ولكن الأحداث جعلت منه في المستقبل رجلا ذكيا اذ صقلته وأججت ذكاءه ووسعت ادراكه كما ستحدثنا الحكاية .

بعد أن وجد نعمان نفسه على ذروة الطود وقف متحيرا ونظر الى أسفل فوجد صديقه كأنه في حجم عصفور لبعد المسافة بينهما ولم يطل به المقام بل ناداه قائلا اسرع يا صاحبي واقطف من العشب الذي حولك وارمه الي بسرعة قبل فوات الاوان لئلا يمضي العبد فلا أتمكن من ارجاعك فأسرع يقتطف ما تقع عليه عيناه ويرميه لصاحبه الذي يسرع في جمعه ووضعه في أكياس صغيرة أعدها لذلك حتى تعب فناداه قائلا ارم

لي ولا تتوقف والا تركتك ومضيت فأعاد الكرة ثانية حتى وهى جسمه فناداه ولكن نعمان لم يتمكن من تلبية طلبه لان التعب لم يدعه يتحرك فما كان من صاحبه الا أن تركه وكر راجعا وهو ضاحك يقول له ستنال نفس المصير الذى لاقاه من سبقك فوق هذا الجبل واعلم انني لن أنزلك اذ لا يمكن أن أجعل رجلا غبيا مثلك شريكا وندا لي ثم شرع يعود مسرعا من حيث أتى .

أفاق نعمان من حيرته وقد هز الرعب كيانه والتهب كالنار في رأسه فغرس فيه نفحات من الذكاء والفطنة بعد أن كان غافلا خاملا ولولا غفلته لما وقع فريسة في يد هذا الوحش الذى أتاه في صورة شيخ وقور فأمنه وصاحبه الى هذه المنطقة المسحورة ثم أخذ يتلفت يمينا وشمالا فلم ير الا صخورا كأنها أشباح تسخر منه وتقف منتظرة هلاكه واصاخ السمع فاذا به يسمع عواء الذئاب وفحيح الافاعي وعويل الحيوانات الوحشية فحمل جسمه المنهك وأخذ يتنقل رويدا رويدا في أنحاء الجبل فاذا به يقف أمام منظر هز كيانه من أخمص قدميه الى أعلى رأسه اذ رأى هياكل بشرية التهمتها الضباع والذئاب مبعثرة هنا وهناك وما تلك الا عظام من سبقه من الرفاق الذين غرر بهم الساحر اللعين فالتهبت احشاؤه حقدا وغيظا مما أعاد اليه بعض شجاعته وطرد شبح الفزع عنه ففكر قليلا وكانت الغزالة قد أخذت تميل نحو الغروب مرسلة أشعتها الصفراء كأنها تنظر حزينة الى مصيره المحتوم أو تخبره بنهايته المخيفة وهنا انطلق وأخذ يفتش له عن ملجأ ولحسن حظه رأى شجرة عالية لا تبعد عنه كثيرا فأسرع اليها متسلقا اياها ليجعل من أغصانها سترا يخفيه عن الحيوانات الضارية ويمنعها عن التقرب منه وبعد أن ربط نفسه بها لئلا يسقط أغفى اغفاءة طويلة أنسته واقعه المؤلم واعادت اليه قوته وعزمه ولم يستيقظ إلاّ على أصوات الطيور التي فارقت أعشاشها ووكناتها صباحا فقفز

من الشجرة وأخذ يجوب أنحاء الجبل لعله يجد له طريقا ينزل منه ويؤدي به الى النجاة والحرية ولكنه باء بالفشل ولما يئس من هذه المحاولة التفت الى ناحية البحر وأخذ ينزل من السفح قليلا قليلا فوجد نفسه في فجوة لا يمكن أن يتجاوزها الا اذا قفز في قعر اليم وهنا فكر وقال اذا بقيت في مكاني فالموت المحتم ينتظرني واذا رميت نفسي في البحر فأنا ميت كذلك ولكن في هذه المحاولة أجد خيطا من الامل اذ ربما أخرج منه سالما الى محل أمين وبدون أن يفكر أو يتوانى رمى بجسمه في البحر العظيم ثم أخذ يسبح ويسبح حتى وصل اليابسة فتنفس الصعداء وحمد الله على نجاته التي كادت تكون مستحيلة وبعد أن استراح قليلا واستعاد قواه أخذ يسير في هذه الجزيرة الموحشة فاذا بقصر عظيم تشمخ شرفاته في عنان السماء فأسرع اليه الى أن وصل بابه فاختفى ليستطلع خفاياه قبل أن يدخله لئلا يقع في مأزق ثان لا نجاة منه وبينما هو في حيرة من أمره اذا به يرى فتاة رائعة الجمال تتوارى لمرآها الشمس خجلا وتهفو لها النفوس طربا فخفق قلبه لهذه المخلوقة الحبيبة وتقدم نحوها يمد رجلا ويسحب أخرى فلما رأته أسرعت اليه وبادرته بالتحية وتعجبت كيف تمكن من المجيء الى هذه البلاد البعيدة التي لم تطأها قدم انسي من قبله فقص عليها قصته وما لاقاه من الهول فهنأته بالسلامة وأدخلته القصر ونادت اختين لها فاسرعتا اليها فاذا بهما لا يقلان عنها جمالا ومروءة فالتفتن حوله بأعجاب وأخذن يشجعنه وقدمن له الطعام والشراب واستعاد رباطة جأشه وطاب له الاستقرار وأحس بطيب المقام ورجا منهن أن يخبرنه بمحل الساحر الغادر الذي كاد يورده المهالك ويذيقه الردى فأرينه قصرا يلوح من بعيد وقلن له قبل أن تصل الى القصر يلقاك كلب قذر قد نهش الجرب جلده النتن فارمه بسهم فأذا مات

فاعلم ان الشيخ اللعين قد مات أيضا لان روحه مخفية في صدر هذا الكلب(*) ولا تنس أن تدخل عليه وتأخذ منه خاتمه لانه خاتم مسحور من يمتلكه يستعبد الجن الذي رصد له فلما اقترب من القصر تقدم منه الكلب هاجما عليه ومرسلا نباحا مفزعا فوجه نحوه سهما أصابه في مقتله حيث يكون اللب والرعب والحقد فخر قتيلا وصدره ينزف دما ثم أسرع الى القصر وما أشد دهشته حين رأى عدوه اللدود قتيلا مضرجا بدمائه والسهم الذي رمى به الكلب مستقر في قلبه المظلم النتن فانتزع منه الخاتم وعاد مسرعا الى صديقاته الثلاث الفاتنات اللاتي كدن يطرن من الفرح لنجاته ونجاحه في مسعاه فالتففن حوله ضاحكات ووجوههن تطفح حبا وعطفا نحو هذا الشاب الشجاع الذكي الذي لا يلين أمام حوادث الزمان ولا تفارقه المروءة في جميع الحالات وبينما هم في غمرة الفرح اذا بغيمة عظيمة تسرع نحو القصر وهي ترعد وتبرق فيرتجف رعبا كل من يراها فاعترى نعمان فزع شديد ولكن الفتيات الثلاث التففن حوله وقلن له لا تفزع فهذا والدنا فاختف هنالك بعيدا عنا ونحن سنتوسل اليه ليعطف عليك ويساعدك ولابد أن يستجيب الى طلبنا لانه يحبنا حباً جماً .

وبعد دقائق هبط مارد جبار أمام الحوريات الثلاث وأخذ ينظر بعينين تقدحان الشرر غضبا ويزمجر زمجرة تهتز لها أبراج القصر الشاهقة ثم دوى بصوت كالرعد القاصف قائلا من منكن ادخلت غريبا في قصري وتجرأت على تدنيس ساحاته به ؟ ثم التفت اليهن مخاطبا اياهن : اني أشم رائحة انسي فكيف تجرأتن على ذلك لابد أن أقطعه ارباً ارباً وأجعله طعاماً للوحوش الضارية وهنا تقدمت كبرى بناته وانحنت أمامه وتبعتها الأخريان وفعلتا كما فعلت ثم خاطبنه بصوت يلين الصخر الأصم : إنه رجل مسكين

---

* هكذا كان يعتقد الناس ان ارواح السحرة وغيرهم لا يحملونها في جسمهم بل قد تكون في قرن غزال او كلب او اى شيء اخر ولعل هذه الفكرة انتقلت الى الحكاية من الهنود الذين يؤمنون بتناسخ الارواح .

يا أبتاه التجأ الينا فأعطيناه الامان ولا نعتقد انك ستخالفنا وستجعلنا ننكث وعدنا ونخون عهدنا معه وهنا رفرفت الابتسامة على محياه وتغيرت نظراته من الغضب الى الرضا ثم قال لن أخالف رأيكن فادعون الانسي ليقص علي قصته حتى أعينه ولعلي أنقذه مما حل به ، ثم ناداه بصوت رقيق يفيض عطفا ومحبة وقال : تعال الي يابني فأنت آمن ، فخرج نعمان وأخذه الذعر من مرآه لاول وهلة ولكنه استعاد رباطة جأشه وتقدم اليه وانحنى أمامه وقبل يده فقال له الغول : أقصص علي قصتك فسرد مأساته من أولها الى آخرها فتعجب مما مر به وأدهشته شجاعته وذكاؤه ورد عليه قائلا سأساعدك ولكن أمري بيد ملك الجزيرة لانني لا أتمكن أن أفعل شيئاً بدون رضاه فخذ هذا الخاتم وهذه التفاحة وسر متوجها الى الشرق فسيصادفك كبشان كبش أبيض وكبش أسود فأطعم التفاحة للكبش الابيض الذي سيحملك(*) الى قصر الملك العظيم واذا وصلت اليه فأره الخاتم وهو سيتدبر أمرك ، ففعل ما أمره به وسار ترفعه أرض وتضعه أخرى الى أن لاح له كبش أسود فاقترب منه متوسلا اليه ليطعمه التفاحة ولكنه ابتعد عنه ولم يخدع بتضرعه حتى رأى الكبش الابيض فأسرع اليه واعطاه التفاحة ولما فعل ذلك حمله على ظهره وأخذ يستبق الريح بسرعة كأنه برق خاطف ثم حط به بعد لأي في قصر العاهل الاعظم الذي كانت حاشيته تحيط به وكلهم غيلان جبابرة ، فلما رآه الملك غضب وزمجر وتوعد وتهدد ولكن نعمان انساب اليه محني الرأس حتى قرب منه وأراه الخاتم الذى أهداه له والد الحوريات الثلاث فحين لمحه انقلب غضبه الى رضا وبش في وجهه وسأله عن حاجته فأخبره قصته ولما انتهى من حديثه قال له ان نصيبك في جوزة ولن تهلك حتى تكسر تلك الجوزة فأبشر بالنجاة والعمر الطويل ثم قال

---

* هنا أيضا تأتي الحكاية بالكبش كوسيلة للطيران والسير السريع ليحقق امنية تمناها الانسان منذ وجد .

خذ هذه الريشة وحين تعود الى أهلك أفركها فستأتيك احدى الفتيات الثلاث فتزوجها وعش سعيدا معها وبعد ان أنهى حديثه أمر الكبش الابيض بأرجاعه الى قصر الغول ففعل وحمله طائرا في السماء حتى أخذت تلوح الارض كأنها صينية كبيرة ثم كرة ثم اختفت عن نظره وأخيرا حط به في القصر وعاد الى محله فلما رآه والد البنات سر بمقدمه وعندما علم بخبر الريشة أطرق قليلا ثم قال له أسمح لك بتزوج احدى بناتي ولا أعصى أمر الملك العظيم ولكنني أشترط عليك ان تعود معها لزيارتي كل سنة فقال له نعمان سمعا وطاعة وهنا بادره الغول قائلا والان لابد أن الشوق يدفعك الى وطنك ورؤية أهلك ووالدتك ولهذا خذ ماتشاء من الجواهر واللآلىء من قصري وأسرع بالاياب فلما تزود بما أراد أمر الغول أحد عبيده وقال له خذ هذا الانسي الى بلاد الرافدين وفي لمح البصر حمله في السماء بعيدا بعيدا كأنه البرق الخاطف وطار به بين الشهب والنجوم وبعد برهة حط به في مدينة بغداد في داره نفسها فرأى والدته في حالة يرثى لها وقد افقدها البكاء نظرها فاقترب منها وناداها فلما سمعت صوته ردت اليها الروح وعاد نور عينيها فاحتضنته وأوسعته ضماً وتقبيلا وفي اليوم الثاني دار في المدينة واشترى قصرا فخما وفرشه بالحرير حتى بدا كأنه قطعة من الجنان واشترى الاماء والعبيد وبعد أن انتهى من اعداد كل شيء فرك الريشة واذا بالفتاة الكبرى تقف فبهر لمرآها وأخذها الى القاضي وعقد قرانه عليها ولعل سائلا يسأل كيف يمكن ان يكون الغول والدا لهؤلاء الحوريات الثلاث والجواب على ذلك أنه اختطفهن صغيرات ورباهن ونشأن عنده فصرن كبناته وأخذ يعطف عليهن كما أخذن يدارينه ويولينه رعايتهن بينما هن في الاصل أميرات يملك آباؤهن ممالك عظيمة واسعة .

ولم ينس أن يزور والد الفتاة كل سنة حيث يقضيان اسبوعا ثم يعودان ولما طال الزمن على زواجهما ورزقا ثلاثة أبناء كأنهم البدور جمالا

واشبال الاسود شجاعة وقوة أبطرته السعادة وأنساه النعيم وعده فلم يمض معها لزيارة والدها وبعد اسبوع عاد من عمله الى الدار فوجدها خاليـــة تصفر في وجهه فجن جنونه من الفزع واعتراه ذهول شديد وحار في أمره وهنا تذكر عدم وفائه بالوعد فأخذ يعض يديه من الندم ويضرب أخماساً بأسداس ولكن الندامة لا تفيد بعد فوات الاوان وقعد حزينا مهموماً لا يدري ماذا يفعل وبعد شهور بينما كان مطرقاً يفرك أصابعه من حيرته فاذا بمارد يقف أمامه منحنيا ويقول له لبيك لبيك أنا عبد بين يديك مرني بما تريد أنفذه لك حالا فتذكر خاتم الساحر وطرب للحظ السعيد الذى وافاه فرد عليه متلهفا خذني الى قصر المارد العظيم والد زوجتي فطار العبد حتى حط به بعد برهة في قصر حميه فما ان وقف على الارض حتى أسرع اليه حزينا نادماً وانحنى أمامه طالباً الصفح ، فرق له وأجابه لماذا خنت الامانة ؟ ونكثت بالوعد يا ولدي ! والآن اعلم ان زوجتك في بلاد واق واق فاذهب وفتش عنها وستلاقيك أهوال يشيب منهـا الولدان ولكنك شـجاع وذكي واعلم انك ستقتحمها والنصر والنجاح يحالفانك وسأعطيك أشياء تعينك وتدفـع عنك المخاطر وتجعل وصولك ورجوعك محاطين بالسلامة ، ثم قدم له حذاء وعصا وطاقية وقال له البس الحذاء فأنه يحملك فوق البر والبحر الى المحل الذى تقصده انت ومن يكون معك من الاتباع أما العصـــا فأنك بضربة خفيفة منها تقضي على أخطر عدو في البحر أوفي البر وأما الطاقية فأنك اذا وضعتها على رأسك تخفيك عن أعين الناس فلا يمكن لاحـــد أن يراك(*) .

★ هنا نتطلع الحكاية الى ثلاث امنيات راودت الانسان منذ وجد حتى الان وهي : الاولى قطع المسافات الطويلة والسفر حيـث يريد والطـيران بسرعة ، والثانية القوة التي يتمكن بوساطتها من تحطيم اعدائـه الذين يحاولون الفتك به ومن شق طريق النجاح امامه ، والثالثة الاختفاء عن أعين الناس حينما يريد لكي يقاوم اعداءه ويطلع على اسرارهم واسرار غيرهم دون ان يعلموا ، وقد حققتها الحكاية عن طريق الخيال هنا .

فأخذ يقطع الارض طاوياً حزونها وسهولها بحذائه السحري الذي سار به في خفة البرق الى أن أتى الى البحر فخشي أن يخونه الحذاء ولكنه ما ان وضع رجليه في الماء حتى وجد نفسه يطير عائماً مسابقاً الريح وبعد أن أمضى عدة ساعات مسافرا فوق البحر اذا بحوت مخيف يعترض طريقه ويفتح فاه لابتلاعه فأراد أن يتجنبه ولكنه لم يتمكن فلم يسعه الا أن يرفع عصاه المسحورة ويضربه بها فأذا بالحوت يرتجف رجفة يهيج لها الموج ثم يغوص جثة هامدة في قاع البحر وبعد ذلك تابع سيره حتى وصل جزائر واق واق فلبس الطاقية التى أخفته عن أعين الناس ولكن حيثما كان يسير كانت الحجارة والاشجار والطيور والحيوانات تردد صارخه (واق واق هذا الانسي من العراق) وبينما هو يفتش في المدن سمع رجلا يصرخ في امرأته قائلا ان لم تفعلي ما أمرتك به فسوف أضربك وأسجنك كما فعل الملك بامرأته التي هربت اليه من زوجها الانسي فعلم انها عند الملك فأسرع الى قصره وفتش الحجرات والغرف حتى عثر عليها واختفى وراء الباب فشاهد رجلا غليظا يدخل عليها صباحاً وبيده سوط يجلدها به جلدات حتى يطفر الدم من عروقها ويخضب ثيابها لانها لم تقترن منه وبعد أن خرج دخل أحد العبيد عليها وقدم لها فتات الخبز مع أقداح من الماء تقتات بها مع أولادها الثلاثة فأخذ الحزن من نعمان كل مأخذ واستشاط غضباً وصمم أن ينتقم من هذا الغادر اللعين الذى أوكلت الايام زوجته به بسبب خيانته للعهد مع أبيها فظلم نفسه وظلمها وبينما هو يسرح في خيالاته المجنحة اذا بولده الكبير يقترب منه فرفع الطاقية فرآه ولده وهشّ لمرآه وأخذ يصرخ فرحاً) ماما ، ماما : إنّ بابا وراء الباب فأسرعت أمه اليه ولكنها ما كادت تقترب منه حتى أعاد الطاقية ولما هدأ روعها رفع طاقيته واخبرها قصته فقالت لقد مضى الملك الى بلدة بعيدة مع جيوشه وسيعود بعد أسبوع فانتظره حتى يرجع لتنتقم منه فمكث معها هذه المدة

من الزمان الى أن حـــان وقت عودة الملك الظالم فلما دخل القصر عرج على غرفة نعمان وكعادته توسل اليها طالباً منها أن تبادله الحب فلما وجـد منها الاعراض الذى ألفه دائما رفع السوط ليضربها وهنا صاح به نعمـان مكانك ياظالم ستؤدي جزاء ما صنعته يداك ثم رفع طاقيته فلما رآه الملك استخف به ومد يده الى سيفه ليستله ولم يكد يفعل ذلك حتى ضربه نعمان بالعصا فخر قتيلا وهنا أسرع فأخذ زوجه وأولاده ولبس حذاءه المسحور وأمره أن يحملهم جميعاً الى بلاد العـــراق وبعد زمن قصير اذا به يرى نفسه في قصره بين خدمه وحاشيته فحمد الله على السلامة وعاش مع زوجه عيشة سعيدة ونشأ أولاده شجعـاناً أذكياء كما ينشـأ أولاد الملوك ونالوا مناصب عالية ولم ينس أن يزور حماه كل سنة وبقي على هذه الحال حتى داهمه مفرق الاحباب وانتزعه من بين زوجه وأولاده كما ينتزع القمـر المنير من كبد السماء(★) .

★ يتطرق القاص هنا الى قضية اشغلت عقول الناس وحتى العلمـــاء منهم وهي نيل الغنى عن طريقة تحويل المعادن الى ذهب وقد حولت بقدرة قادر عن طريق وضع بعض الحشائش المسحورة على المعدن المصهور فحقق الانسان امنية له عن طريق الخيال في هذه الحكاية وغيرها حين استحـــال تحقيقها في الواقع .

ونجد ايضا في احداث القصة الانسان يحقق كل ما كان يصبو اليه خياله فقد حقق الطيران والسفر السريع عن طريـق الكبش والحـــذاء السحري والعبد كما حقق القوة عن طريق العصا السحرية التي يقتل بها اعداءه وينتقم منهم وحقق اخفاء نفسه عن اعين الناس عامة واعدائه خاصة عن طريق الطاقية المسحورة ، وهكذا بقدرة قادر تمكن ان يحقق المستحيلات وهذا كما قلنا خيال يراود الضعيف ولما كان الانسان ضعيفا لا يمكنـــه وبخاصة في ذلك الزمان ان يحقق شيئا مما ذكر في دنيا الواقع تمكن مـن تحقيق كل امنياته مهما بعدت عن طريق الحكاية والخيال .

ومن ناحية اخرى نجد هذه الحكاية تقضي على الظالمـين والعتـاة بحكمها القاسي فيقتل القاتل والظالم المجـرم وحتى بطـل القصـة يذوق العذاب هو وزوجه واطفاله لانه ابتعد عن المثل الرفيعة حين خان العهد مع حميه ولم يصدق في وعده وتهاون في زيارته السنوية له ، ومن ناحية =

٤

صاحب الخيمة الزرقاء

كان ما كان وعلى الله التكلان كان في قديم الزمان رجل يدعى عليـاً فقير الحال يعمل أجيرا عند أحد التجار ينقل بضاعته نهارا ويخدم في مجلسه ليلا ثم يعود بعد العشاء حيث تنتظره زوجه وابنته وهما على أحر من الجمر فترحبان به وتتناولان العشاء معه ثم بعد أن يتسامروا ساعة أو بعض ساعة يذهبون للرقاد حيث يحلمون بأطياف السعادة وأشباح الطمأنينة التي تزجيها اليهم قناعتهم وطيبة قلوبهم وكان هذا الرجل يعمر قلبه بالايمان الذى أضفى على حياته إشراقا وبهجة .

= اخرى فهي لاتنسى ان تعطي للمجد المكافح الحظ الذي يرنو اليه ويستحقه اذ لولا كفاح نعمان المستميت لما تمكن من النجاة ولكان نصيبه نصيـب من سبقه من الذين هلكوا في قمة الجبل المسحور بعدما اشبعوا نهم الشيخ اللعين بالكميات الكبيرة من الحشائش المسحورة التى تحيل الحديد ذهبا ، ولا ننسى ان نشير الى ان الحكم كان شديدا في كل حالة بعيدا عن الرحمة وان كان عادلا فلا تترك الظالم ابدا وشأنه ولا ترضى بعقاب بسيط له بل لابد ان ينتقم منه لاجل المظلوم الذى لا بد ان يأخذ ثأره بسحقه واهلاكـه فلا نجد ترفعا من احد عن الثأر ولا عفوا عند المقدرة .

وأخيرا فأن هذه الحكاية مقتبسة من ألف ليلة وليلة ولكن القصاص من العامة لعب بحوادثها فحذف كثيرا من اخبارها وصورها واتى من ناحية اخرى بتفاصيل واخيلة جديدة غير موجودة في الاصل وحور قسمـا اخر من فصولها الى ان جاءت في وجهها الحاضر وفيها شيء من الجدة والاختلاف وقد فعل العامة هكذا مع كثير من حكايات الف ليلة وليلة التي انتشـرت ليس فقط في بلادنا بل في معظم بلاد العالم ولا عجب ان تقتبس اخبارها أو بعض حوادثها هذه الحكاية وغيرها من الحكايات التي تدور في مجتمعنا بين الناس ويتناقلها الصغار عن الكبار ويقضون معها اجمل الساعات واحلى الاسمار .

ومرت الايام والشهور وتتالت الاعوام وهو قانع مرتاح البال حتى سمع حديثاً ذات مساء يدور بين سيده وأصدقائه القاعدين في مجلسه اذ سمعهم يعدون العدة لاداء فريضة الحج فهاجه الشوق الى زيارة بيت الله الحرام والتبرك بمرقد خير الانام واستلام الحجر الاسود واستار الكعبة الشريفة فوقف أمامهم ساهما ينظر اليهم نظرات حائرة يكاد شوقه الملحاح يحيلها الى جمرات من نار وفجأة نظر اليه التاجر وشعر بما يحس به وقرأ الرغبة الجامحة في نظراته وكان يكن له حبا وعطفا لاستقامته وتقواه فبادره قائلا : أراك حائرا يا علي ألا تخبرني ما بك وماذا تريد ؟ فتلعثم علي ولم يحر جوابا ورد على مخدومه قائلا أريد سلامتك وسعادتك ولكن هذا الجواب لم يقنعه اذ كان قد قرأ دخيلة نفسه فأجابه لا تحزن يا أخي بل اعلم انك سترافقنا في سفرنا المبارك الى الحج وستكون واحدا منا وأنا اعترافاً بخدماتك لي سأقوم بكل نفقاتك لارد لك دينك علي تجاه هذه الخدمة التي قدمتها بأمانة واخلاص عشرات السنين ومن ثم فأنا شيخ ضعيف احتاج الى من يعينني ويساعدني في هذا السفر الطويل ولا أجد أفضل منك فاذهب الى بيتك من اليوم وأعد عدتك للرحيل واعلم اننا سنسافر بعد عشرة أيام .

عاد علي الى بيته وهو يكاد يطير فرحاً واستبشارا وما كادت قدمه تطأ الدار حتى صاح بزوجه مبشرا اياها زافاً اليها نبأ عزمه على السفر لحج بيت الله الحرام فوقفت المرأة حائرة لا تدري ما تقول ووقفت بجانبها ابنتها الوحيدة تحدقان فيه من أعلى رأسه الى أخمص قدميه وهو يقص عليهما بحماس الاحاديث التي دارت بينه وبين سيده وكيف أنه تبرع بنفقاته وما كاد ينهي حديثه حتى ردت عليه زوجه بصوت خافت : وماذا

سيكون مصيرنا نحن الاثنين ؟ من الذي سيقوم بتدبير أمورنا ورعايتنا والانفاق علينا اذا نفذ ما عندنا ؟ فصدمه هذا الحديث وأثر فيه حتى كاد يرده عن عزمه ولكن ايمانه القوي العميق وشوقه الثائر الى زيارة الأراضي المقدسة والطواف بين الصفا والمروة واستلام الحجر الاسود أعادا عزماته اليه فرد بصوت كأنه تضرع واسترحام : يوجد في البيت مؤونة تكفينا لمدة تزيد عن الشهرين وسأعطيكما من المال ما يقيم اودكما ويرد عنكما عادية الحاجة وسؤال الناس لمدة طويلة ، ولكن الزوجة لم تقنع بهذا الكلام لانها تعلم أن المدة التي سيقضيها ذهاباً وايابا طويلة وربما تتضاعف اذا أصيب بمرض واعترضته عقبة في الطريق فردت عليه قائلة : وماذا نفعل اذا نفذ ما عندنا ؟ هنا أطرق علي هنيهة وتخيل أمامه مناظر الحجيج يطوفون بالبيت ويرددون الدعاء حتى كاد يسمع أصواتهم وتلبياتهم فبثت هذه الصور العزم والقوة في جنانه فرد عليها بألفاظ تفيض أيماناً وثقة لا ريب فيهما قائلا « توكلا على صاحب الخيمة الزرقاء » ثم رفع رأسه الى السماء كأنه يطلب منها تأكيدا لما يقوله أو آية تقنع زوجته ولكن يظهر ان نبرات صوته وصدق عقيدته قد أثرا تأثيرهما المطلوب في زوجته اذ اقتنعت وآمنت بقوله واجابته « نعم فسنعتمد على صاحب الخيمة الزرقاء » دون أن تفقه أي معنى لما قاله زوجها ولما رددته من كلامه حرفيا اذ جال في خاطرها أنه يقصد تاجرا في السوق يضع بضاعته داخل خيمة زرقاء .

مضى علي يقطع الفيافي حزونها وسهولها قاصدا بيت الله الحرام ومضى الزمان حثيثاً أياماً وأسابيع وشهورا حتى نفذ ما عند زوجه وابنته من مال وأخذ الجوع يكشر عن أنيابه لهما والفقر يشتد بقبضته القاسية عليهما حتى ضاقتا ذرعاً فقالت الفتاة متضرعة لامها لقد قال والدي :

« اطلبا ما تحتاجانه من صاحب الخيمة الزرقاء » فلنفعل ما أمرنا به وهنا فرحت الام اذ تذكرت شيئا مهما كانت قد نسيته ولكنها ما لبثت أن اعترتها حيرة مذهلة اذ لم تعرف من صاحب الخيمة الزرقاء ؟ وندمت لانها لم تسأل زوجها عنه وكانت ساذجة الى حد كبير ثم اطلعت ابنتها على الافكار التي حيرتها وطلبت منها أن ترشدها الى طريقة يتمكنان فيها من معرفة هذا المجهول الذى طلب منها زوجها الاعتماد والاتكال عليه ، ولكن الفتاة لم تترك امها مستغرقة في حيرتها بل أجابتها مسرعة : المسألة بسيطة يا أمي امضي معي لكي نسير في المدينة ونفتش عن صاحب الخيمة الزرقاء فلابد أن يكون شخصا مشهورا أو تاجرا كبيرا ولا أعتقد انه سيخفي عنا أمره ، ولم تتراخ الام بل أسرعت ورافقت ابنتها وأخذتا تسيران وتسيران في المدينة طولا وعرضا ينظران يمينا ويسارا وشمالا وجنوبا وقد اضناهما التعب وفي هذه اللحظة نظرت الفتاة فاذا بحانوت كبير لاحد التجار قد علق في أعلاه ستر أزرق فرقص قلبها طربا وهزت أمها فرحة وقالت لها انظري هذا هو سؤالنا الذي أنهكنا أنفسنا في البحث عنه وقد صدق والدي في كلامه فلابد أن يكون قد اشتغل عنده وأمن في خزائنه بعض ماربحه ورجا منه أن يرده الينا اذا طلبنا ذلك ، فأسرعتا الى التاجر صاحب الحانوت الواسع وبخطوات يمسكها الخجل والحياء تقدمتا اليه وبعد التحية قالت له الام : أنا زوج علي وأنت تعلم انه قد مضى الى الحج وقد أوصانا قبل ذهابه أن نتوكل على صاحب الخيمة الزرقاء وقد فتشنا عنك في المدينة حتى وجدناك وعلمنا انك المقصود بكلامه اذ تظلل حانوتك هذه الخيمة التي ذكرها زوجي ، ثم قالت له والان ياسيدي قد نفذ ما عندنا ولم يبق لنا ما نسد به رمقنا فأرجوا أن تعطينا ما تركه زوجي عندك أو ما رجاك اقراضه اياه ،

ثم صمتت وأخذت تسترجع أنفاسها مبهورة لانها تكلم رجلا غريبا لـــم تعرفه وان أوصاها زوجها بمراجعته .

لما سمع صاحب الحانوت كلامها ابتسم متعجباً من أمرها وكاد أن يقول لها امضي عني فلن أعرف زوجك وانه أوصـــاك بالتوكل على الله صاحب الخيمة الزرقاء لا علي ولكن هذه الكلمات ماتت في فمه ولم يتمكن من تلفظها واعتراه ذهول وحيرة شديدان لامر هذه المرأة التي تتراءى له البساطة في ملامحها وصوتها مما أثار عطفه وحنانه عليها وعلى ابنتها فرد عليها بكلام يشرق في نبراته الايمان والمروءة وقال : لبيـك لبيـك يا أختي لماذا لم تأتي الي قبـلا ولماذا تحملت هوان الفقر والجوع هذا الردح من الزمان سأرسل معكما حالا أحد عبيدي فأرشداه الى داركمـا ومن ثم سأرسل لكما كل ما تحتاجانه من مؤونة وحاجيات ضرورية ولمـا عاد مخدوم الرجل أرسل الى دارهما مؤونة تكفيهما شهورا عديدة واتبعها بثياب وكان يرسل لهما في كل يوم اللحم والخضروات اذ غرس الله في قلبه الرحمة والعطف عليهما .

استبشرت الام بما أرسله اليها واطمأن قلبها وزادت ثقتها بزوجهـا وحبها له وبعد أيام بينما كانت في قبو بيتها تدق قطعة من اللحم لتحضر طعام الغداء شعرت بالارض ترن من تحتها واذا ببلاطة تغوص أمامها فـي الارض فنظرت فاذا بها أمـام حفرة صغيرة فمدت يدهـا ورفعت بعض الصخور الصغيرة وما أشد دهشتها عندما رأت صندوقا حديدا فرفعـت غطاءه مسرعة وما أعظم حيرتها عندما رأت عـددا لا يحصى من الدنانير الصفراء المشرقة فما كان منها الا أن صرخت منادية ابنتها التي أسرعت اليها كلمح البصر مذعورة ولكنها لم تكد تصل حتى زفت اليها النبأ فأتت

الى جوار والدتها وأخذت تداعب هذه الدنانير وتشنف سمعها برنينها العذب وبعد ان زال عنهما الذهول والاندهاش أخذتا تفكران فيما ستصنعانه بهذا الكنز الذى لا يثمن وبهذا المال الذي لا يملك بعضه أغنى الاغنياء في بلادهما ولكن الفتاة قطعت هذه الحيرة بقولها هيا ياوالدتي الى صاحب الخيمة الزرقاء لنخبره الخبر ٠

أسرعت الام وابنتها الى دكان التاجر الرحوم كأنهما قطاتان مذعورتان فما كاد يراهما حتى تعجب من أمرهما وعاوده شكّ في حالتهما وخاطب نفسه قائلا ما الذي جاء بهما إليّ وانا ساهر على مصلحتهما ولم أترك أي شيء ينقصهما ولكن عجبه لم يطل اذ اقتربتا منه واخبرتاه بالحادثة المدهشة وبالكنز العظيم الذي شاهدتاه فلم يصدق أولا ما سمعه منهما وظن انها قطع من النحاس أو الحديد المطلي أو انها حيلة قد يقصد منها الايقاع به ولكنه تشجع وسار معهما حتى وصلوا الى الدار فدخلوا جميعهم ثم نزلوا في القبو وما أروع دهشته وفرحه عندما رأى الاصفر الرنان بأم عينيه وقال لهما : بشرى لكما بهذا الكنز العظيم الذى لابد أن الله تعالى أرسله اليكما جزاء ايمانكما وتضحياتكما ولم يتمهل بل جمع المال وأمرهما بحفظه في دارهما والمحافظة عليه واخذ قسما منه معه ومضى وفي اليوم الثاني فتش في المدينة حتى وجد قصرا فخما معدا للبيع واشتراه لهما ثم اشترى أضخم الاثاث وأجمل الرياش وبعد أن ملأه بما لذ وطاب جاء اليهما وأخبرهما بما فعله وأعده لهما وطلب منهما الاستعداد للانتقال الى دارهما الجديدة ولم يطل انتظاره بل رجاهما أن يذهبا معه حالا بعد ان ينقلا ما تبقى لهما من الذهب ففعلتا وعاشتا في ذلك القصر أسعد عيشة تحت رعاية هذا الرجل الصالح ٠

ومضى الزمان حثيثاً وكان الرجل يتسقط انباء علي وسيده ويسأل الرائح والغادي عنهما وعن أخبارهما فعلم انهما تأخرا لمرض ألم بسيد علي مما اضطرّه الى السهر على راحته حتى تماثل للشفاء ثم شدا رحالهما للعودة وبعد مدة علم انهما سيصلان المدينة بعد أيام قلائل فأخذ يترقب يوم وصولهما فعلم أنهما سيقبلان الى البلدة مع أول قافلة فخف لملاقاتهما وبعد السلام انفرد بعلي وأسر اليه خبر زوجته وابنته مبشرا أياه بالكنز الثمين الذى وجد في دارهما وبالقصر الذى اشتراه لهما ثم سار معه الى ذلك القصر فأعجب علي بهذه النعم التى أنعمها الله عليه وشكر للرجل الصالح أياديه البيضاء وعطفه الأبوي الذي لا ينسى مدى الدهر . وبينما هو في غمرة الفرح تقدم هذا الرجل اليه طالباً يد ابنته الوحيدة لابنه الوحيد الذى لا يختلف عن والده خلقاً فسر لهذا الطلب وأجابه الى مايريد وأقيمت الافراح وبسطت الموائد في قصره الجديد احتفاء بزواج ابنته الوحيدة وقضى الجميع عمرا يفيض بالسعادة والاطمئنان ويطفح باليمن والسرور(*) .

(*) هذه حكاية دينية تشابه فى هدفها بعض قصص تولستوى القصيرة التي كتبها في أطوار ايمانه ولهذا نراها تؤكد على البساطة والايمان وترى ان الانسان اذا امتلك قلبا بسيطا نقيا ساذجا وآمن ايمانا لا يداخله الريب فان ايمانه يقدم له الاعاجيب ويسعده فى الدنيا والاخرة ولو قعد بلا عمل كما أتت الثروة والغنى يسعيان لهاتين المرأتين الام وابنتها وهكذا كان يعتقد كثير من الاقدمين تاركين الذكاء والمثابرة والعمل جانبا .

ومن ناحية اخرى نجد الغنى يأتيهم عن طريق اكتشاف كنز فى باطن الارض وهذه الفكرة كانت منتشرة في جميع المجتمعات وتدور كثير من حكاياتهم حولها وتجد آثارها فى عصرنا الحاضر اذ يعتقد كثير من الناس بوجود كنوز مخفية داخل بعض الدور أو الاطلال ولها اساس واقعي =

= وهو ان كثيرين من الاغنياء كانوا يخفون ما عندهم من ذهب ومجوهرات في باطن الارض خوفا من اللصوص او من مصادرة اولي الامور لاموالهم من حكام ظالمين وغيرهم أو من تقلبات الزمان وانتشار الفوضى وكثيرا ما كانوا يموتون ويغيب معهم سر كنوزهم ويصادف أن يعثر أحد المجدودين على هذا الكنز او غيره فينال الغنى والجاه وهذه الحوادث النادرة جعلت كثيرين من الخاملين أو الفاشلين في الحياة أو الفقراء المعوزين تراودهم فكرة العثور على كنز ويعيشون لحظات او ساعات جميلة هى اقرب الى احلام اليقظة وكثيرا ما ادى بحثهم الى هدم دورهم دون جدوى ولا تنسى القصة ان تتوج وقائعها بالحب فتتزوج ابنة علي الوحيدة من ابن الرجل الصالح وتربط هذه الزيجة بين العائلتين ويخلفان اولادا ويعيشون سعداء ولكنها نسيت ان ترفعهم الى مصاف الملك كما تفعل دائما .

٥

الجندي والملك

كان ما كان والله ينصر السلطان كان في قديم الزمان جندي شجاع يعمل في خدمة ملك خدّاع فقد خدم هذا الجندي سيده خدمة صادقة وأفنى زهرة شبابه في الحفاظ على ملكه واسعاده وطوى الليل والنهار ساهرا يترصد أعداء البلاد ليردهم خاسرين يتعثرون بذيل العار والهزيمة وكم خاض الغمرات وقارع الشجعان واستسهل الاهوال والاخطار في سبيل شرف سيده والذياد عن حياض الوطن وتثبيت رايته عالية خفاقة بين الدول تهابها الملوك وترتجف رعباً اذا خفقت قرب بلادهم ولما طال به الزمن وجاوز سن القوة الى الكهولة وصار لا يقوى على النزال والكرّ في يوم القتال تغير له الملك الخؤون وقلب له ظهر المجن وأظهر النفور والسخط بعد الرضا والحظوة وفي يوم من الايام طرده شر طردة من خدمته وأمره بالعودة الى قريته ولم يبال بتضرعاته وتوسلاته لان قلبه لم يكن من لحم ودم بل من صخر أصم .

فمضى الجندي يجر آلامه ويحمل صدأ السنين الطويلة على كاهله وهام على وجهه في القفار دون أن يقر له قرار حتى خيم عليه الليل وأسدل ستار ظلامه فوجد نفسه قد ضل الطريق وتاه في صحراء لا يوجد فيها رفيق فأخذ يسرع في السير ويتلفت يمينا ويسارا لعله يرى ضياء أو يسمع صوت انسي في هذه الارض الموحشة ولم يطل به التجوال بل رأى عن بعد وميضا يخترق الظلام كالامل البسام فطار قلبه فرحاً وتوجه اليه وما كان أشد دهشته عندما رأى كوخا صغيرا تحيط به واحة صغيرة لم يسمع بها من قبل وهو الجندي الذي خبر الارض طولا وعرضا كأنها

واحة مسحورة أرسلتها اليه قوة خفية فاقترب من الكوخ وقرع الباب فخرجت اليه عجوز شمطاء قد غضن الزمن وجهها فبادرها بالسلام ورجا منها مستعطفا أن تؤويه عندها وتطفيء غلة عطشه وتسكت جوعه ولو بفتات خبز ثم أخذ يتوسل اليها حتى لان قلبها ورقت لحاله وقالت له لا يوجد في الدنيا من يضيف شيخاً كبيرا مثلك يبعث منظره الكآبة في النفوس ولكنني وقد رققت لحالك سأضيفك وأروي ظمأك وأفثأ جوعك مقابل شرط واحد وهو أن تقوم بتنفيذ كل ما آمرك به دون تردد فهل ترضى بذلك ؟ فأجابها : سمعا وطاعة ستجدينني جنديا طائعا لا أعصى لك أمرا ولو طلبت مني اقتحام النار وقطع البوادي والقفار وخوض البحار ، ثم أومأت اليه بالدخول فدخل الكوخ وأسرعت فأعدت له من الطعام والشراب مالذ وطاب ثم أخذا يتجاذبان أطراف الاحاديث المختلفة حتى بدأ النعاس يداعب أجفانهما فأشارت اليه بالرقاد في فراش وثير لم يجد مثله في حياته فأسرع اليه ونام فيه نوماً هادئاً لا تقلقه الاحلام الى الصباح اذ استيقظ على نداء المرأة العجوز تدعوه للفطور وبعد أن شبع ذكرته بوعده وطلبت منه سقي حديقة الدار من بئر في وسطها وكانت حديقة واسعة فشمر عن ساعد الجد وأخذ يستقي الماء ويروى الاشجار والازهار حتى انتهى من مهمته بعد أن جن الظلام فعاد الى الكوخ حيث استقبلته العجوز الساحرة بلطف وبشاشة وقالت له صدقت الوعد وأحسنت الخدمة ووفيت بالعهد فكل مريئاً ونم هنيئاً وفي صباح اليوم الثاني بعد تناول الافطار أمرته بتنظيف الكوخ وما يحيط به من الاقذار والادران وفي لمح البصر أخذ يجمع الاوساخ والنفايات وينظف الارض ويغسلها بالماء الى ان انتهى من عمله مساء ففرحت العجوز وأطرت عمله وأزجت اليه الثناء وابتسمت في وجهه ابتسامة صفراء تخفي تحتها الاهوال والارزاء وفي الصباح بادرته قائلة لم يبق الا مهمة بسيطة ستقضيها ثم تمضي في سبيلك

محملا بالهدايا الثمينة **فأنا أريد أن تحضر** لي من قعر البئر الواقعة وراء الكوخ شمعة ذات لهب **أزرق قد سقطت** فيه قبل أيام عندما خرجت بها ذات ليل أريد استقاء الماء وهذه الشمعة مصنوعة من مادة عجيبة فلا ينطفيء لهبها ثم قادته مسرعة الى حيث البئر وربطته بحبل قوي وأمرته أن يتدلى الى القعر ويلتقط الشمعة مسرعا ويهز الحبل وهي بدورها سترفعه الى الاعلى فهبط رويدا رويدا وقد انتابته الشكوك في المرأة وقرأ في نظراتها في أثناء حديثها معه صباحا الحيلة والغدر فارتاب في الامر وبعد ان هبط الى القعر وجد الشمعة مطروحة على حافة الماء فالتقطها وهز الحبل فأخذت العجوز الساحرة تجره لتساعده في الصعود حتى بلغ فوهة البئر وبكلام رقيق رجته أن يناولها الشمعة لئلا تسقط من يده ثم يستأنف الخروج من البئر فمد يده ليفعل ما أرادت ولكن قوة خفية جعلته يتردد في تلبية طلبها تلك قوة الشك العظيم الذى ساوره في هذه المرأة اذ قرأ الغش في نظراتها ورآها تحاول ارخاء الحبل من يدها لتوقعه في البئر حالما تتسلم الشمعة فامتنع وطلب منها أن تساعده على الخروج أولا ثم يقدم لها الشمعة مدعياً أنها سوف تمنعها من الشد بقوة على الحبل وسحبه من البئر اذ لا تتمكن من سحبه بيد واحدة بينما تكون اليد الاخرى ممسكة بها ولكنها لم ترض لانها كانت قد أخفت الوقيعة والغدر وبعد جدال لم يدم طويلا غضبت وأرخت الحبل من يدها فهوى مسرعا الى قاع البئر وتمكن بعد لأي وجهد أن يمسك بجذع شجرة مثبت كالجسر فوق مياهها العميقة وقعد فوقه وقد أخذ منه الخوف كل مأخذ ولم يلبث ان استرد وعيه وأخذ يتلفت يمينا ويسارا لعله يرى طريقا للنجاة ولكن جهوده باءت بالفشل فأخذ ينظر حائرا وثارت أشجانه وبحركة غير ارادية أخرج من جيبه غليونا وسرعان ما ملأه بالتبغ ووضعه في فمه ثم مد يده الى جيبه ليخرج

ولاعته(*) ولكنه فتش دون جدوى وفي غمرة اليأس نظر الى جانب البئر فرأى الشمعة ذات اللهب الازرق ملقاة جانبا فوق الماء فمد يده مسرعا واشعل منها غليونه وما كاد ينتهي حتى رأى غمامة سوداء تغطي البئر جميعها واذا بهذه الغمامة تنكشف قليلا قليلا عن عفريت من الجن يقف أمامه منحنياً وهو يردد : لبيك لبيك(*) أنا عبد بين يديك ماذا تأمر ماذا تريد ؟ فانتابته رعدة اهتز لها جسمه من رأسه حتى أخمص قدميه ولكنه استرد جأشه وتذكر ما سمعه في الحكايات عن الجن وخدمتهم للانسان فطار فرحاً وأجابه بصوت يطفح أملا : أخرجني من هذه البئر ، وفي لمح البصر حمله العفريت بين يديه وغاص به في باطن الارض وأخذ ينتقل من سرداب الى آخر ويطلب منه أن ينظر بوساطة نور الشمعة الى الكنوز الدفينة وليأمر بالتوقف حيث يريد ليحمل ما يشاء من اللآلىء والماس والاحجار الكريمة وبعد أن حمل نفائس لا يوجد لها مثيل عند الناس جميعاً قفز العفريت قفزة فإذا به فوق سطح الارض في ضاحية من ضواحي مدينته الاصلية حيث يعيش الملك الخداع فأخذ يجر رجليه الى أن دخل المدينة ونزل في أحد فنادقها وفي اليوم الثاني نزل الى السوق وساوم على أجمل قصر فيها فاشتراه وأثثه بفاخر الاثاث والرياش وأتى بالخدم والاتباع وأجرى لهم رواتب شهرية مغرية واتخذ لنومه غرفة في الطابق العلوي أخفى فيها شمعته السحرية .

وبعد ان استقر به المقام تذكر الملك وما فعل به وثار في قلبه حب الانتقام منه فلم يجد أحسن من اذلاله عن طريق تزوجه من ابنته الوحيدة

(*) يظهر ان هذه القصة وضعت بعد اكتشاف التبغ والولاعات او تكون هذه الفقرة قد ادخلت فيها حديثا بينما كانت تروى سابقا بشكل آخر .

(*) بهذه الطريقة كان يسهل الانسان الامور الصعبة ويحقق المستحيل عن طريق الخيال بخلقه هذا العبد الذي ينفذ جميع ما يؤمر به .

فأشعل ذات ليلة غليونه ولما حضر العفريت أمره أن يحضر له حالا ابنة ملك البلاد الاميرة بدر البدور ثم يعيدها صباحاً وفي لمح البصر وجدها بجانبه ترنو بعيني جؤذر وتتمايل بقد كغصن البان وتسحر الناظر بوجه فتان كأنه البدر سناء فاقترب منها وأخذ يداعبها وهي نافرة ويشبعها ضماً وتقبيلا وقضى معها ليلة كأنها الصباح أشراقاً وجمالا وما كادت الشمس ترسل خيوطها البيضاء في أستار الليل السوداء حتى تقدم العفريت حاملا اياها في الفضاء كالنسر الجبار ليعيدها الى قصر أبيها ، فلما وجدت نفسها في غرفتها أطرقت مذعورة ثم حملت جسمها المنهك الى أبيها مخبرة اياه بما حل بها في الليلة السابقة فضرب أخماساً بأسداس واشتد به الغيظ وأخذ يتهدد ويتوعد ولكنه لم يعرف غريمه ، ثم جمع أبناءه ومستشاريه وأخبرهم بجلية الامر فاحتاروا حيرة عظيمة وأخيرا أشاروا عليه أن يملأ جيوبها بالفول ويثقبها فأذا حملها العفريت تساقط الفول وكان دليلا لهم على المحل الذى تحمل اليه حيث يتمكن من القبض على المجرم اللئيم والقضاء عليه ولكن هذه الحيلة لم تنطل على العفريت اذ ما كاد يؤمر بأحضار الاميرة حتى وجد الفول يتساقط من جيوبها فوضعها في غرفة سيده ثم مضى مسرعا فملأ المدينة كلها فولا وفي اليوم الثاني عندما أخذ الملك وحاشيته يتتبعون خط الفول عادوا يائسين والغيظ يحرق قلوبهم اذ وجدوا أن خطتهم باءت بالفشل ورأوا المدينة كلها قد امتلأت فولا .

ففكر المجلس الاستشارى للملك بحيلة اخرى يكتشفون بوساطتها هذا المجرم الوقح الذى سولت له نفسه الاعتداء على الاميرة العظيمة فأمروا بتعليق فانوس في سريرها وعندما حان الوقت طار الجني بالاميرة وسريرها والفانوس يضيء الظلام ففرح الجميع لنجاح خطتهم ولكن فرحتهم لم تدم الا لحظات اذ رأوا السماء بعدها مملوءة بالفوانيس تطرد ظلامها الحالك وتجعلها في أجمل منظر ولكنه كان برأيهم منظرا قبيحا لانه أحبط

سعيهم فضربوا أخماساً بأسداس وحاروا في أمرهم وبعد جهد وتفكير قر رأي الملك على أن تخفي الاميرة حذاءها في محل سري في بيت هذا المجرم المغتصب ورغم أن الجني عرف الخطة وأخبر بها صاحبه الا أنه لم يتمكن من العثور على الحذاء لان الاميرة أخفته على حين غرة اذ دخل الجنود قصره بعد أن فتشوا القصور الاخرى وما كان أشد دهشتهم وفرحهم عندما وجدوا حذاء الاميرة في المحل الذى وضعته كما وصف لهم فهجموا على صاحب الدار وأوسعوه لكما وضربا وأخذوه مقيدا الى الملك فوقف أمامه مغلوبا على أمره لا يتمكن أن يفعل شيئاً ولا يحير جواباً لان الشمعة ذات اللهب الازرق لم تكن معه وهي بعيدة عن حوزته وبعد أن أوسع شتماً وتعذيباً وبعد أن قرت عينا الملك بالقبض على غريمه أمر بشنقه صباحا ونادى المنادي في المدينة ليخبر الناس بهذا الخبر السار ليروا عاقبة الخيانة والاجرام واستباحة الحرمات ثم أمر بأيداعه السجن فقعد حزيناً كئيباً لا يعلم ماذا يفعل وبينما هو في حيرته اذا به يسمع وقع أقدام أحد الحراس فتجرأ وناداه متوسلا طالبا اليه بألفاظ تقطر أسى وحسرة أن يشفق عليه وان يمضي الى قصره ويطلب من الخدم أن يعطوه غليونه والشمعة الزرقاء وبعض التبغ ليهديء من هيجان أعصابه ولعله يحرق احزانه بدخان ذلك الغليون وأسرع فمد يده الى جيبه ثم أخرج حفنة من الدنانير الصفراء التى خطف بريقها عيني الحارس ووضعها في جيبه ووعده بالمزيد بعدما يعود فطار فرحاً وأسرع الى دار السجين وأحضر ما طلبه ونال مزيدا من الدنانير جزاء عمله وأخذ يتخيل مع نفسه ما سيعد وما سيشتري بهذه الدنانير أما الجندي السجين فما ان رآهما حتى طار قلبه فرحاً ولكنه لم يستعجل في انقاذ نفسه بل انتظر الى الصباح حيث أتى اليه الحراس وأخرجوه من السجن الى ساحة المدينة حيث الملك وحاشيته والجموع الغفيرة ترسل اليه نظرات السخط التي

تكاد تحرقه وتنتظر اللحظة التي يهوي بها وحبل المشنقة في عنقه وقبل أن يتقدم الجلاد ليقوده الى سلم المشنقة طلب ان يدخن ملء غليون من التبغ قبل موته وهو حق يتمتع به كل محكوم بالاعدام اذ تنفذ له أي رغبة معقولة من رغباته الخاصة فأجيب الى طلبه فأشعل الغليون وحضر الجني فارتج على القوم من الرعب والهول ثم أمره أن يبعد الحرس والناس ويبقي الملك وحاشيته ثم يقف حارساً الى جانبه وفي لمح البصر أخذ الجميع يلوذون بالفرار أمام سياط كاللهب تحرق جلودهم وتنهال عليهم من كل ناحية لان الجني استعان ببني جنسه وأعوانه في تنفيذ ما طلبه صاحبه فجاؤا من كل صوب يحملون سياطاً كألسنة النار فنفر الناس بعد أن ذاقوا الآلام المبرحة التى لم يسمعوا بها طوال حياتهم وابتعدوا من المكان المخيف ملتجئين الى بيوتهم لينقذوا جلودهم من هذا العذاب المرير حتى خلت الساحة منهم ، فوقف الملك وحاشيته مذعورين من هول ماراًوا وهنا تقدم الجندي منه وقال له ألا تعرفني أيها الملك ؟ لقد خدمتك عمري وأفنيت زهرة شبابي في الدفاع عنك ولم أفد شيئاً من متع الدنيا لانني ضحيت بالغالي والنفيس لاجلك ولكنك لما رأيت علائم الكبر تبدو على أسارير وجهي طردتني شر طردة كما تطرد الكلاب ونسيت أيادي البيضاء في خدمتك ، ثم توقف وصاح يا صاحبي الجني أذق الملك وأصحابه طعم سياطك لينال درساً في الوفاء فانهالت عليه الضربات من كل ناحية مع أصحابه فأخذوا يصيحون ويستنجدون وليس من مستمع أو مجيب ثم أخذوا يستعطفون الجندي ويطلبون منه المغفرة وبعد أن لاقوا من العذاب مالا يمكن تحمله أمر الجندي بالكف عن ضربهم ثم تقدم من الملك وقال له الان تحضر ابنتك وتزوجني منها مقابل عفوي عنك وان تلكأت أمرت بقتلك أنت وجميع أفراد حاشيتك ونلت ما أطلبه رغما عنكم جميعا ولكنني رعاية لك لانك ستغدو حمي سابقي عليك وعلى ملكك ، فوافق الملك وأمر

بأحضار الاميرة حيث عقد قرانها على الجندي الشجاع وزفت اليه في قصره بعد ما أحاطه العفريت بحراس أشداء لا يغمض لهم جفن ثم أقيمت الافراح بالمدينة اسبوعا كاملا ووزعت الهدايا على الناس ونثرت في الشوارع الدنانير والدراهم وقضى مع الاميرة منعما بقية عمره التي أطالتها النعمة والسيادة وخلف امراء كالنجوم جمالا وذكاء ورفعة منزلة حتى دهاه مفرق الاحباب وسالب الافراح بعد أن ورث ابنه البكر الملك من جده فنشر الامن وحكم الناس بالعدل(*) .

(*) فى هذه الحكاية تعويض عن المواقع فكم مظلوم مثل هذا الجندى لم يتمكن من استرداد حقه والاقتصاص من ظالمه واخذ الحقد يحرق احشاءه دون جدوى لانه لا يتمكن من الانتقام او ينال حقه السليب لان ظالمه قوي فاندفع بعيدا في احلام اليقظة حتى اخترع هذه الحكاية او غيرها التى لعبت بها يد الفن فجاءت على هذه الصورة فاذا به يستعين بقوة الجن ويتخيل نفسه قد امتلك شمعة مسحورة يتمكن من التغلب بوساطتها على خصمه واذلاله .

وكم من محكوم بالموت لا امل له بالنجاة ولكنه لا يريد ان يقضي يومه الاخير يائسا ولم يرض اصحابه وأهله ان ييئسوا فقضوا اليوم الاخير وهم يتخيلون مفاجأة يترقبونها كالمفاجأة التى اتيحت للجندى اذ اتته النجدة عن طريق الشمعة المسحورة حيث هبت العفاريت لنجدته والتغلب على خصومه فنجا من الموت المحقق ولكن هذه الخيالات لا تدوم الا وقتا قصيرا ولابد ان يتلقى جزاءه في الوقت المحدد دون ان تجديه هذه التخيلات التى تبدو اوهى من خيوط العنكبوت او كخيوط الشمس لا يمكن لاحد ان يصعد بوساطتها الى السماء ولكن مهما يكن من شيء فقد كسب المحكوم واهله شيئا من الراحة والطمأنينة عن طريق هذه الاحلام والاخيلة المجنحة .

ثم ان هذه الحكاية تعطينا درسا اخلاقيا وتساعدنا على غرس المثل العالية فى المجتمع حيث ترينا ان الظالم لابد ان يلقى جزاءه وان كان ملكا جنوده ضاق عنها السهل والجبل وان المظلوم لابد ان يسترد حقه ولو كان ضعيفا لا حول له ولا قوة كما حصل مع الملك الظالم وجنديه الامين المظلوم الذى جعل منه الحقد رجلا غليظ القلب مبعدا في انتقامه واذلال عدوه .

٦
لا تصنع معروفا مع بني آدم

كان في قديم الزمان وسالف الاوان رجل قد عرك الايام وخبر الانام يعيش مع ولده الوحيد في أحدى المدن النائية يصارعان تقلبات الدهر بجلدهما وذكائهما وينالان مأربهما وامتدت السنون فبلغ الاب من العمر عتيا ووهن عظمه واشتعل رأسه شيبا ولاح هامة اليوم أوغد ولما شعر بقرب أجله دعا ولده وفلذة كبده وأوصاه قائلا خذ هذه النصيحة مني فقد استنتجتها من تجاربي ومعاملاتي مع الناس في عمري المديد وها أنا قبل أن أفارق الدنيا أحذرك ثم أحذرك وأقول لك أياك أن تصنع معروفاً مع بني آدم لانهم يخونون الامانة ويقابلون الاحسان بالاساءة والخير بالشر فاياك اياك منهم ومن مكائدهم وبخاصة اذا كنت صاحب نعمة وفضل عليهم ، ولم يمهله الموت بعد هذا الحديث الا ساعات قليلة انتقل بعدها الى عالم الاموات فأخذ ولده يكافح وحيدا في طلب الرزق ويطمح في نيل الغنى والجاه بجد ودأب وبينما هو يسعى في مناكب الارض في مساء يوم من أيام الشتاء القارصة البرد اذا بعصفور مهيض الجناح يقفز قفزات يائسة أمامه لا تمكنه من الطيران فحزن لمرآه وأسرع اليه وضمه بين يديه واضعاً اياه في صدره لينال الدفء ثم انساب الى البيت فضمد جراحه وداواه حتى شفي ولكن العصفور لم ينس ما فعله معه بل أقام في بيته وكان كل يوم يطير صباحا من عشه ويأتي بعد مدة حاملا قطعة من الياقوت الثمين فيضعها في غرفته فوق المائدة التى تجاور سريره ثم يزقزق ويصفر الى أن يستيقظ الرجل على ألحانه العذبة فينظر اليه والى هديته الثمينة فيلتقطها باسما ويضعها في خزانته ومرت الايام والسنون والرجل يزداد غنى وجاهاً ، وفي يوم

من أيام الربيع قرر الذهاب الى الصيد فبكر مع اتباعه وحاشيته وقضوا نهارا ممتعا وحظوا بصيد وافر وبينما هو يطارد أحد الغزلان اذا به يرى أمامه افعى مريضة مقطوعة الذنب لا تتمكن من الحركة الا بجهد ومشقة فرق لها ونزل من فرسه وحملها وعالجها بما عنده من دواء وفي المساء اصطحبها معه الى داره وأخذ يلاحظها ويداويها حتى شفيت ولكنها كصاحبها العصفور لم تنس فضله وكانت تخرج كل يوم باحثة في آفاق الارض وتعود حاملة جوهرة ثمينة تضعها بين يديه ولسان حالها يقول : انني لا أتمكن ان أفيك مهما قدمت لك لان فضلك علي لن ينسى وأنا مدينة لك بحياتي ولا دين أكثر من هذا وأعظم .

ومرت السنون تلو السنين وهو يرتفع منزلة ومكانة حتى صار من شيوخ البلد وزعمائها المقربين عند ملكها الذى كان لا يفصل في أمر الا بعد أن يستشيره وقد أقام له قصرا فخما فيه كل ما تشتهي الانفس من أثاث ورياش وحدائق تنعش القلوب وتطرد عن الحزين همومه وآلامه وقد تفرقت في نواحيه الحراس والخدم والاماء كأنه بلاط عاهل عظيم لا تغيب الشمس عن ملكه .

وفي مساء أحد الايام خرج هذا الرجل المحظوظ من قصره بين أفراد حاشيته وحرسه يتنزه خارج المدينة قاصدا بستانا له كأنها قطعة من جنان الخلد وبعد أن تمتع بساعات رفرفت فيها أطياف السعادة ونعم فيها مرحا ولهوا عاد في المساء الى قصره وبينما هو يسير في الطريق اذا به يسمع أنينا خافتا قربه فنظر الى جانبه فرأى رجلا طريحا جريحا يئن في وسط حفرة وهو في حالة يرثى لها فأشفق عليه ورق لحاله وهب لمساعدته ناسيا نصيحة والده الذي قال له « لا تصنع معروفاً مع بني آدم » لأن حميته ونخوته جعلتاه يغض النظر عن ذلك فأخذ الرجل الى داره وعالجه فشفي ثم ألحقه بحاشيته وقربه منه

وتعاقبت الايام وكان هذا الرجل يعجب بغنى صاحبه وعلوّ منزلته وتمادى هذا الاعجاب فانقلب الى حسد فظيع أحرق أحشاءه وجعله شقيا مضطربا لا يقر له قرار وفي صباح يوم من الايام دخل على سيده فوجد في صدره جوهرة لا يمتلك مثلها الملوك فاستشاط غضبا وحقدا ولكنه لم يؤذ الا نفسه لان سيده كان أمنع من عقاب الجو رفعة وشرفا فانتظر تقلبات الزمان ودورة الافلاك حتى واتته الفرصة وكانت فرصة العمر فقد سرقت جواهر الملك من خزينته فجن جنون أولي الامر ونادى في المدينة مناد يقول : من يخبر الملك عن المجرم اللص فسينال الغنى والحظوة لديه فوجد في الوقيعة بصاحبه غنيمتين أحداهما شفاء حرقة الحسد في صدره والثانية نيله الغنى والتقرب من الملك وهما أمران لا يمران بخيال أكثر الناس جاها وقوة فخف مسرعا وطلب مقابلة سلطان البلاد سرا فسمح له بالدخول فدخل عليه منحنيا خاشعا حتى وصل أمامه فأمره بالجلوس فجلس بعيدا عنه ثم قص عليه ما عند سيده من جواهر ثمينة لابد أن تكون هي نفسها الجواهر المسروقة فوجد الملك في ذلك فرصة ليشفي غليله من هذا الثري العظيم الذى كان يفوقه غنى وقوة ومنزلة فأرسل جنوده اليه فأتوا به مكبلا بالقيود وهم يوسعونه لكما وضربا حتى وقف أمامه فقال له : الآن اطلعت على سرك لقد كنت لصا تسطو على أموال الناس ولا تتحرج من السطو على خزائني وهذا صاحبك شاهد عليك فما كان منه الا أن نظر الى صاحبه ناكر الجميل نظرة جعلته يرتجف خزيا وعارا ورعبا ثم انحنى أمام الملك وقال له : انه ياسيدي واش كاذب لابد أن الحسد قد أحرق أحشاءه فأقبل اليك بكذبته الشنعاء هذه وأؤكد لك انني رجل أمين لا علم لي بما حدث لجواهرك كما أنني لست محتاجا اليها اذ أملك أكثر منها بأضعاف مضاعفة ، فلم يصغ الملك الى كلامه بل أمر بمصادرة أمواله وجواهره ثم طلب من حراسه أن يشدوا وثاقه ويلقوه في غياهب السجن حتى يحين يوم محاكمته

ولما كانت قضيته خطيرة فقد أمر أن تجرى المحاكمة أمامه وأن يتولى هو الاشراف عليها خوفا من أن يحكم ببراءته .

أما الحية والعصفور فلم يقر لهما قرار مذ رأيا ماحل بصاحبهما واسودت الدنيا في أعينهما وصارا يضربان أخماسا بأسداس ولكنهما كتما ما بهما كي لا يعلم أحد بحقيقتهما ثم تشاورا فيما سيفعلان فطلبت الحية من العصفور أن يمضي الى السجن ويسأل سيدهما عما حل به وعما ينتظره بعد ذلك ليفكرا بوسيلة تنقذه فمضى العصفور وحط على كتف سيده الذي أخبره بالوشاية التي قام بها ذلك الخائن جزاء ماقدمه له اذ أنقذه من الموت وأعلى منزلته ثم أردف قائلا وأنا استحق ماحل بي لانني عصيت وصية والدي الذي منعني من تقديم أي معروف لبني آدم لانهم ينكرون النعمة ويجحدون المعروف ويقابلون الاحسان بالاساءة ثم أخبر العصفور ان الملك قد حدد يوم الجمعة القادم موعدا لمحاكمته وسيحضر هو وأعاظم الدولة مع ولي العهد جلسة المحكمة وهدفهم في ذلك ايجاد سبيل شرعي لمصادرة أمواله والقضاء عليه كي لا يطالب بها فيما بعد ، فطار العصفور وأخبر صديقته الحية وبعد أن تشاورا فيما بينهما قرت نفساها ولاحت على أعينهما ملامح الثقة والاطمئنان .

وحان يوم الجمعة وهو اليوم المعين للمحاكمة واجتمع أعيان البلاد ودخلوا الى قاعة المحكمة وتجمع الناس من كل حدب وصوب في الطرقات وهم يذرفون الدموع أسى على ما سيحل بهذا الشخص العظيم الذي أغرقهم بفضله واحسانه وزرع النور في طريقهم المظلم واعانهم في النكبات حتى ملأ عليهم حياتهم وملك مجامع قلوبهم وبينما هم في غمرة الحزن اذا بالابواق تدوي معلنة قدوم الملك فنهض الجميع احتراما وكلهم ينظرون اليه نظرات لو تحولت الى نار لاحرقته واحالته الى جمرة مشتعلة وأحرقت كل من يتبعه فتقدم الملك محاطا بحرسه ومعه وزيره وولده ولي العهد ودخلوا

قاعة المحكمة في ابهة عظيمة ثم نودي على المتهم فتقدم ذليلا يئن من السياط التي انصبت على جسده كلهيب النار ثم تقدم بخضوع وانحنى راكعاً ثم أمر القاضي بأن يتلى عليه قرار الادعاء بأسناد تهمة الخيانة والسرقة اليه وطلب الحكم عليه بالموت مع مصادرة أمواله ، وما ان انتهى القاريء من قراءة القرار اذا بصوت يرتفع من ولي العهد اهتزت له القاعة وهب الجميع واقفين ولكنهم تسمروا في أماكنهم لا يعرفون ماذا يفعلون فقد رأوا افعى هائلة يقطر السم الزعاف من أنيابها تلتف حول رقبته وتفتح فاها مهددة بغرس أنيابها في عروقه فحاروا في أمرهم لانهم اذا تقدموا منها أو حاولوا ايذاءها هلك ولي العهد لا محالة فلم يجدوا أفضل من الصبر والتفكير وبينما هم في حيرتهم وذهولهم نظر الرجل المتهم فرأى صاحبته الحية ملتفة حول عنق ولي العهد فعلت شفتيه ابتسامة وعلم أنها لم تنسه في أشد حالات الخطر وتأكد من النجاة مما حل به فالتفت الى الملك وطلب أن يسمح له بحل وثاقه كي يتقدم وينقذ ابنه الحبيب وولي العهد وهو يتعهد بألا يصيبه أي أذى فسمح له الملك وهو لا يكاد يصدق اذ كان كالغريق يتعلق ولو بعود صغير لا يغني صاحبه شيئا ثم تقدم من الافعى ومد يده اليها فتحولت اليه ثم أمرها بالانصراف فاختفت من بينهم ، فلما رأى الملك ما قدمه هذا الرجل وكيف أنقذ ولده الوحيد وفلذة كبده وقف معلنا العفو عنه شاكرا اياه على حسن صنيعه ولم يكتف بذلك بل أنعم عليه برتبة رفيعة في الدولة وجعله من خاصة حاشيته المقربين اليه وطلب منه أن يقص عليه قصته فقص الرجل على الملك كيف انه أنقذ العصفور والحية فلم ينسيا احسانه وكيف انه أنقذ هذا الرجل فقابل احسانه بالاساءة حتى كاد يورده موارد التهلكة ثم قال للملك لو كنت أريد السوء لجلالتكم أو كنت أطمع في ملككم الذى وهبه الله تعالى لكم لما تمكن أحد من منعي فأني أقدر أن آمر الحية فتقتل أي شخص أريده دون أن يعلم أو يعلم الآخرون

جلية الامر وبعد أن أنهى حديثه هش الملك له وأبدى أسفه عما بدر منه من تسرع في الحكم عليه وتصديق أقوال الوشاة الخائنين ثم أمر بقتل الرجل الخائن بعد أن نادى المنادي في المدينة مخبرا الناس بجلية الأمر ومبشرا أياهم بنجاة المحسن الحبيب الى نفوسهم كما أنه ازداد ثقة به واطمئنانا اليه وهكذا كانت عاقبة الخونة(*) .

(*) هذه حكاية تشكك الناس بعضهم ببعض وتصم الانسان بالخيانة والغدر ونكران الجميل بينما تولي الحيوان صفات الامانة ورعاية الجميل ولا عجب في هذا فانها نشأت في محيط قد عمه الفساد وضاعت فيه المثل وعمته الفوضى والاضطراب اذ انقلب بعض افراده الى ذئاب ضارية وهذه الفكرة كانت ولا تزال شائعة في مجتمعنا ويعتقد بها الكثيرون اعتقادا جازما وبخاصة عندما يصابون بخيبة أمل من أحد أصدقائهم كما اننا نلاحظ واضعها قد أعطى كل شخص ما يستحقه فقد نال الخائن الموت جزاء خيانته أما الرجل المحسن العطوف فقد نجا مما أريد له من سوء ولقي اعظم الحظوظ من الملك فارتفعت منزلته وعلت رتبته وهذه هى النتيجة السائدة في جميع الحكايات العامية فلابد للحق ان ينتصر وللمظلوم ان يسترد حقه وللظالم أن يسحق .

وتروى هذه الحكاية روايات أخرى أو قد تكون حكاية منفصلة تعالج نفس القضية أى قضية عدم وفاء الانسان ففى حكاية اخرى نجد البطل شواكا وجد في بئر ثعلبا وذئبا وأسدا وافعى وانسانا وقد أنقذهم فكان الثعلب يقدم له الدجاج والذئب الغنم والاسد يهجم على قافلة تحمل خزائن الدولة فيأخذها الشواك ويغتني أما الافعى فتعطيه شعرتين وتطلب منه ان يفركهما اذا وقع في ضيق شديد فتأتي مسرعة لانقاذه وأما ابن آدم فقد التقى به بعد مدة فوجده فى نعمة وغنى وجاه فسأله عما حصل له فقص له قصته وما قدمه له الثعلب والذئب والاسد وهو يعتقد ان هذا الرجل سيبادي تلك الحيوانات في اظهار وفائه واخلاصه له ولكن هل تعلم ماذا فعل ؟ لقد مضى واخبر السلطان خبر الشواك متهما اياه بسلب خزينته فقدم للمحاكمة ففرك الشعرتين فأتت الافعى والتفت حول رقبة ابن السلطان وجمع الحكماء والاطباء لابعادها عنه دون جدوى حتى قال احدهم لابد انك سجنت مظلوما وطلبوا ان يمر المسجونون أمام والي العهد لتراهم الافعى لعلها تتركه اذا رأت المظلوم وقد نجا ، فتقدم المسجونون الا الشواك فلم يحدث ما يغير الموقف فسئل هل بقي أحد ؟ فأجاب صاحب السجن نعم لقد بقي =

= الشواك ولا يمكن ان يكون مظلوما فطلب السلطان حضوره وحالما حضر تقدم الى الحية فتوجهت اليه فامسكها وحملها بعيدا وطلب منهـا ان تختفي عن الانظار فعفا عنه السلطان ولما علم الحقيقة أمر بشنق الخائن الذى قابل الاحسان باشنع اساءة كما في قصتنا السابقـــة ولكن في هـذه الحكاية ثغرة اخلاقية وهى ان أموال الشواك منهوبة من خزينة السلطان فهى قد واتته عن طريق بعيد عن الحق والقانون وقبـــوله لها يجعـله شريكا للاسد في سرقته ويجعله أهلا للعقاب ويجعل الرجل الاخر مثاليـا في تطبيق القانون بعكس القصة الاولى التى لا تجد فيها ثغرة اخلاقيـــة أو قانونية تبيح للرجل الخائن الوشاية ٠

هاتان القصتان وما شابههما من قصص تتفرع جميعها من أصـل واحد هو ألف ليلة وليلة ولعل ملخص الحكاية المذكورة في هذه الحاشية ينطبق في اكثر صوره على الحكاية الاصلية الواردة في الف ليلة وليلة ٠

ولا ننسى أيضا ان في هذه الحكاية تعويضا لامان بعيدة تراود معظم الناس اذ يتمنون الغنى الواسع والثروات الطائلة دون جدوى والاماني رأس مال المفلس فحققوا هذا الحلم عن طريق الخيال اذ جعلوا العصفور والحية يأتيانهما يوميا بالجواهر واليواقيت عوضـــا عن تحقيقه عن طريق تحويل المعادن الى ذهب أو اكتشاف كنوز دفينـــة في باطن الارض أو امتلاك عبد من الجن يحضر لهم ما يريدون وهكذا ، وكم من محروم راودته هذه الخيالات لتخفف من عبء الفقر عن كاهله ولكنه ما كاد يقع على صخرة الحقيقة حتى وجد نفسه في متاهة قاحلة من الفاقة والحاجـة لا نهاية لها نتيجة تخلفه عن غيره في الجد والمثابرة او في سلوك الطرق الصحيحة الشريفة في الحياة ٠

٧
العصا السحرية

كان ما كان وعلى الله التكلان كان في قديم الزمان راع عجوز يعيش في ناحية بعيدة متنقلا بين الحقول والمروج ليرعى قطيعا صغيرا له ومعه ولدان كبراهما ابنة جميلة والأصغر ابن لا يقل عنها جمالا ، فكان هذا الرجل يغدو صباحا قبل أن تطل الغزالة من وراء الافق ويقود قطيعه أمامه مصطحبا معه ولديه ليساعداه وليؤنساه وليتعلما بنفس الوقت كيف يكافحان في هذه الحياة الصعبة ثم يعود في المساء الى مستقره وهو يطفح بشرا وسعادة وولداه معه يرقصان طربا وحبورا والاغنام أمامهم تسير رويدا رويدا تلتقط الاعشاب أو ترد الماء وثغاؤها يملأ الافاق ويرن في آذانهم كأنه أشجى الالحان وفي أحد أيام الربيع الجميلة وقد فرشت الارض بحللها الخضراء السندسية التي طرزتها الازهار بألوانها الساحرة خرج هذا الرجل كعادته الى المراعي الفسيحة صباحا وابتعد فوصل الى غابة فأعجب ولداه بمنظر الغابة الرائع وأشجارها الباسقات فطلبا من والدهما أن يسمح لهما بالتجول فيها واللعب بين أشجارها وأغصانها ثم أخذا يمرحان ويجريان ويتبع أحدهما الاخر وبينما هما في مرحهما شاهدا طائرا جميلا بدا لهما ضعيفا لا يتمكن من الطيران فأخذا يتبعانه طمعا في صيده فكان ينزل على الارض وكأنه معيا لا يطيق حراكا فيركضان نحوه وما يكادان يصلان اليه حتى يطير الى محل بعيد ودامت مطاردتهما له ساعات فلم يشعرا الا وقد مالت الشمس نحو المغيب وأخذت ترسل أشعتها الصفراء مودعة الارض فاحتارا في أمرهما ولم يعرفا طريق العودة وأخذتهما حيرة وارتباك شديدان أضاعا عليهما رشدهما حتى اهتزت الاشجار والازهار من حولهما شفقة وحزنا عليهما

اذ دوى صراخهما وعويلهما في أرجاء الغابة وتركها مصعدا في بروج السماء العالية وكانا يركضان هنا وهناك كالحائر الهيمان أو يقفان اعياء الى ان غابت الشمس وأظلمت الدنيا فاتجها الى شجرة ضخمة وصعدا عليها وما كادا يغمضان جفنيهما حتى صرخت الفتاة منادية أخاها : انظر يا أخي أرى في القرب منا هنالك فوق الاكمة أضواء مصباح تحصد ظلام الليل من حولها فلنمض الى هنالك لنستضيف القوم ونجد لنا مأوى أمينا الى الصباح ونطلب منهم أن يرشدونا الى ديارنا فأسرعا الى أن وصلا الاكمة فوجدا أمامهما كوخا تحيطه حديقة جميلة فطرقا الباب فخرجت امرأة عجوز ما كادت تراهما حتى هشت وبشت في وجهيهما وقالت لهما : أهلا وسهلا ومرحبا بكما ادخلا الى داري على الرحب والسعة وان حظكما هو الذى هداكما الي لان المنطقة تعج بالوحوش المفترسة وهي بلاد مسحورة لا يسكنها الا القليل من الناس ثم أطعمتهما وأعدت لهما فراشين وثيرين فناما نوما هادئا .

وفي الصباح أعدت لهما الفطور ثم قالت لهما في أثناء ذلك ان عودتكما الى والدكما وبلادكما صعبة لانكما عبرتما الخط المسحور ولم يكن ذلك الطائر الا موجها من ساحر كبير لكي يدخلكما هذه البلاد وان حظكما السعيد قادكما الي فلنعش معا وانت ياغلام عليك ان تسقي حديقة الدار من هذه البئر وأنت يا فتاة عليك أن تنظفي الدار وترتبيها وتحضري الطعام واياك اياك أن تفتحي هذا القبو وتنزلي فيه كما أنني أحذركما من الخروج ليلا من غرفتكما ومن الدار لانكما ستلاقيان الاهوال ولان المنطقة غير مأمونة كما أخبرتكما .

وهكذا دأب الولدان صباح مساء على ما أمرتهما به العجوز وفي احدى الليالى المقمرة سمعا في منتصف الليل باب الدار يفتح فلم يطق الولد الا أن يستطلع جلية الامر فخرج خفية فرأى العجوز من بعيد تسير متجهة

الى واد ويالهول ما حدث بعد ذلك فاذا بها تنقلب الى سعلاة مفزعة لهـــا أنياب تسحق الحديد ثم تتجه الى كهف فيه غول لا يقل بشاعة ورعبـــا عنها فما كاد يراها حتى طرب لمجيئها وأخذ يناديها أهلا ياحبيبتي أما أعددت لي لحما انسيا فأجابته لقد سحرت ولدين وجئت بهما الى بلدنا هذه ولكنهما صغيران فلنصبر عليهما كي يكبرا ويمتلئا لحما واذ ذاك نعد منهما وليمـــة رائعة ثم أخذا يتغازلان حتى كاد الصبح ينبلج فعاد الولد مسرعا الى الدار أو الكوخ الكبير والتف بفراشه ولما عادت العجوز وجدت كل شيء عـلى حالته ولم يساورها الشك في أحد وفي الصباح أخبر اخته الخبر الصحيح وطلب منها كتمان السر وعدم اظهار أي بادرة تنم عما شـعرا به وأخـذا بعد ذلك يتحينان الفرص ويفكران في طريقة للنجاة فلم يتوصلا حتى الى خيط من الامل وفي أحد الايام أخذت الفتاة تراقب العجوز فوجدتها تدخل الى غرفتها وسمعتها تتحدث الى أحد لا تدري أهو انسي أم جني أم شبح فنظرت من ثقب المفتاح فوجدت في يدها عصا تتكلم معها وتطلب منهـــا احضار دواء لزوجها المريض ولا يخفى عليك ان زوجها هو ذلك الغـــول المفزع الذي شـاهده أخوها بأم عينـه ، ثم أخفت العصـا تحت الوسادة وخرجت وأغلقت باب الغرفة كعادتها وفي المساء أسرت الاخت الى أخيها ما رأته وطلبت منه أن يتدبر أمرهما ليصلا الى تلك العصا السحرية ولم يطل بهما الانتظار فقد طلبت العجوز بل السعلاة من الولد أن يحضر لهـا ماء لتستحم فاستجاب لطلبهـا ولمـا دخلت الحمام نزعت ثيـابها وطلبت من الفتاة أن تأتي وتساعدها في تنظيف جسمها القذر فسرقت الفتاة المفتـــاح ثم أسرعت ففتحت باب الغرفة وأخرجت العصا السحرية وحدثتها قائـــلة قيدي العجوز ولا تجعليها تتحرك فأذا بها تراها مقيدة منطرحة في جانبهـا

بحبال غليظة وكانت قد شعرت بسرقة المفتاح فخرجت تعدو وراء الفتاة التي كانت أسرع منها فسبقتها الى العصا السحرية ولما نظرت اليها الفتاة قربها اعترتها ارتعاشة اهتز لها جسمها اذ تخيلت عاقبتها الفظيعة ومصير أخيها المفزع لو انها لم تسبقها الى تسلم العصا ومخاطبتها أو لو تأخرت ثواني معدودات وبعد ان تخلصت من احلامها ارتدت ثابتة العزم ونادت أخاها فأعدا عدتهما وفتشا الدار ورأيا فيها نفائس لم يجد انسان مثلها في سالف العصور فجمعاها وقبل أن تبدأ الفتاة بمخاطبة العصا لترجعهما الى أهلهما عن لها طلب العجوز التي أمرتهما ألا يفتحا القبو فأرادت أن تعرف ما فيه ففتحته ودخلت فيه مع أخيها فوجدا عظام من سبقهما من الانس رجالا ونساء وأولادا افترستهم العجوز وزوجها الغول البشعان فحمدا الله الذى أنقذهما من هذه المصيبة التي لم تقيض النجاة لاحد منها قبلهما وما كان ذلك الا بذكائهما وصبرهما ثم خاطبا العصا وأمراها أن تنقلهما الى والدهما فاذا بمارد جبار ذي جناحين كبيرين يحملهما بعيدا في السماء فبدت الارض لهما كأنها جفنة كبيرة ثم كرة صغيرة ثم اختفت عن النظر واذا بهما بعد ذلك يجدان المارد ينحدر بهما كالصاعقة على الارض التي أخذت تتكشف لهما ثم اذا بهما أمام كوخ والدهما فدخلاه مسرعين فوجداه في حالة يرثى لها من الحزن وقد وهن عظمه وصار هامة اليوم أو غد ولكنه ماكاد يراهما حتى ردت اليه روحه وقوته فنهض وعانقهما ثم قصا عليه الخبر وطلبا منه أن ينتقلوا الى المدينة ليبنوا لهما قصرين عظيمين مما معهما من النفائس ففعلوا وهنا ذاع صيتهم وعلوا ثراء ومنزلة واكتسبوا احترام الناس واكبارهم فتزوج الولد بعد ان بلغ عنفوان الشباب من أميرة البلاد

وتزوجت اخته من أحد القواد العظام وعاش الجميع عيشة سعيدة حتى داهمهم مكدر اللذات ومفرق الاحباب ومنغص سعادة الناس(*) .

(*) لعل هذه الحكاية ترمز الى أن الانسان عنده طبيعة وحشية كامنة فيه فبينا يدل ظاهره على انه انسان لا يخشى منه يحمل روحا طيبة واخلاقا انسانية رفيعة ويفيض رحمة وعاطفة كهذه العجوز اذا به يخفي في داخله وحشا مخيفا هائلا لا يتورع عن افتراس لحوم الناس الاخرين كما تفعل الغيلان والسعالي وغيرهن من الوحوش المفترسة كما كانت تنقلب هذه العجوز خلسة الى سعلاة مخيفة ، ومن ناحية ثانية نجد الضعيف الواقع في محنة لا يرجى خلاصه منها تأتيه النجدة عن طريق خيالي فتتيح له القصة عصا سحرية يأمرها فتطيع وتصنع المستحيل كما انقذت هذه العصا الفتاة واخاها وكم من بائس أو ملهوف انقطعت سبل الامل أمامه ولكنه أخذ من صور هذه الحكاية موءنسا فقضى ساعات أو أياما ينتظر الفرج عن طريق هذه العصا السحرية دون جدوى لان الواقع غير الحكاية والخيال .

واخيرا فالحكاية هنا كما اعتدنا دائما تأخذ بيد المظلوم وتسحق الظالم ولهذا سهلت سبل النجاة للفتاة وأخيها ولم تبخل عليهما بنفائس الدنيا واعظم الرتب في المجتمع اما العجوز السعلاة فكان جزاؤها كعملها اذ قيدت وتركت ولابد ان تموت شر ميتة جوعا وعطشا في قيودها قبل ان يتيح لها القدر غولا ينقذها وهكذا طبقت المثل الاخلاقية والقوانين الانسانية والعدالة التى يصبو اليها كل فرد في هذه الحكاية وان كان الواقع خلاف ذلك . ولا تنس احداث القصة ان تحث الانسان على الكتمان في الشدائد والتفكير والعمل في السر اذا كان العدو يراقبك ويلاحظك وانتهاز الفرص والا فأقل بادرة تدل على مبتغاك توردك موارد مهلكة فلولا الكتمان لما تمكنت الفتاة واخوها من النجاة .

٨
الامير نور الزمان والاميرة فتيت الرمان

كان ما كان كان في قديم الزمان ملك عظيم الشأن دانت له البلدان وامتد حكمه شرقا وغربا ، واهتزت له الملوك رعبا ، ولكن الدهر لم يكمل عليه نعمته ونغص عيشته اذ حرمه من ولي عهد يشرق كالنجم في سماء حياته وفي آفاق بلاده فقصد المعابد والكهان وتضرع للملك الديان أن يمنحه سؤله ونذر النذور حتى صمم اذا رزق بأمير أن يجري ساقيتين في بلدته أولاهما تسيل عسلا والاخرى تسيل دهنا بعد ان يستوى رجلا كاملا ويبلغ أشده ثم ينثر الدنانير ويغني الفقراء والمساكين .

ومضت الايام ورق له الزمان واستجاب لدعائه مصرف الحدثان فحملت امرأته وبعد تسعة أشهر ولدت له أميرا كأنه البدر حسنا فسماه نور الزمان وبعد ان اكتمل وبلغ مبلغ الرجال الاشداء وفى الملك بنذوره وأجرى ساقيتين من الدهن والعسل واجتمع حولهما الناس يملأون جرارهم حتى اذا حان المساء ونضب مافي الساقيتين قدمت عجوز حنت السنون ظهرها وقارب الزمان خطوها تحمل اناء قديما من الخزف فأخذت تملأ قليلا من هنا وقطرات من هناك فرآها نورالزمان وساءه حرصها وأراد أن يمازحها فصوب سهمه الى جرتها وكسرها فسقط في يدها وأخذت تصرخ غضبا والتفتت لتعثر على الفاعل فرأته وعرفت انه الامير فصاحت ماذا أدعو عليك يا أيها الامير المغرور اني أرجو من الله الذى يستجيب دعاء المظلومين أن يوقعك في غرام الاميرة (فتيت الرمان) وكانت العجوز ساحرة وسرعان ما نفثت سحرها في قلبه حتى تغلغل حب الاميرة من حيث لا يدري في شغافه وهو لم يرها ولم يسمع بها قبلا فأخذ اسمها يتردد في

مخيلته في الليل والنهار ويتخيل صورا ساحرة لها في العشي والاسحار فلم يطق صبرا ولم يتمالك نفسه حبا فعزم على الطلب والسعي لنيل الارب وفي فجر أحد الايام خرج الامير من قصر والده خلسة تاركا رسالة تخبرهم جلية الامر وترك المدينة ممتطيا جواده ومتقلدا سيفه ، وسار يقطع المسالك يسأل عن الاميرة كل من رآه حتى مر في مساء أحد الايام بكوخ يسكنه شيخ ذو وقار قد خبر الدنيا وعركها فقصده الامير وطلب منه أن يؤويه تلك الليلة فرحب به الشيخ وبعد ان تناولا العشاء أخذا يتسامران فسأل نورالزمان مضيفه عن الاميرة التي فتنت لبه وشغفت قلبه فأطرق الشيخ هنيهة ثم قال : لقد طلبت يا ولدي ما يشقيك وفي المخاطر والاهوال يرميك واعلم ان بلوغها يشيب الولدان اذ دونه خرط القتاد ولكنني سأرشدك لعلني بنيلها أسعدك فسر يا بني سالكا الطريق الشرقي وبعد مسيرة ثلاثة أيام ترى أمامك واحة صغيرة في وسط الصحراء تلك هي مملكة السعلاة فانتظر الفجر وتقدم الى أعلى الشجرات حيث تراها نائمة هناك فانزع نعليك وامش على رؤوس قدميك رويدا رويدا كما يمشي النسيم حتى تقترب منها فارم نفسك على صدرها وارضع من ثدييها وقل لها انني صرت كأحد أولادك وقد جئتك طالبا مساعدتك وسوف تدلك هي بعد ذلك وتعينك فيما تريد أما ان شعرت بك قبل أن ترضع من ثدييها فالويل لك واعلم انك ستكون وجبة شهية لها ولاولادها .

وفي الصباح ودع الشيخ الوقور وسار يقطع الحزون والسهول ويسير في الشعاب والبطاح ترفعه أرض وتضعه أخرى سالكا الطريق الذي أرشده الشيخ اليه وبعد أن أهزله السرى وأضناه السفر ولقي ما لم يلقه بشر قدم الى الصحراء التي يجب أن يقطعها ليصل واحة السعلاة فتزود بالماء والطعام ثم أغذ السير وهو حذر وبعد أيام قليلة لاحت له عن بعد أشجار نخيل كأنها عرائس تتهادى في السماء فنزل ولقي له منخفضا من الارض

توارى فيه حتى اظلم الليل فاستراح قليلا وغفا غفوة أعادت اليه قواه وقبل الفجر استيقظ وأخذ يسير رويدا رويدا الى أن بلغ الواحة ونظر من بعيد فرأى شجرة عالية ولمح شبح السعلاة تحتها فأخذ يدب حذرا ترعبه هزات النسيم ويقلقه حفيف الاشجار حتى صار قاب قوسين أو أدنى منها ورآها أمامه تغط في نوم عميق وثدياها مكشوفان فوق صدرها فقفز كالسهم ورمى نفسه قربها ومد فمه فرضع من ثدييها وهنا تنبهت السعلاة وأخذت تزمجر وترعد ولما رأت الامير أمامها قالت له ويحك يا انسي كيف جرؤت على الوصول الي سأقطعك اربا اربا وآكلك وأرمي عظامك للكلاب فرد عليها خاشعا متوسلا لقد جئتك من مكان بعيد محتميا بك طالبا عونك وقد صرت الان بعد أن رضعت من ثدييك كأحد أولادك وهنا تبسمت في وجهه وقالت له لك الامان فاذكر قصتك وارو لي ما أهمك فأجابها اني جئتك أطلب عونك في بلوغ الاميرة فتيت الرمان ، فضربت أخماسا بأسداس وقالت ماذا فعلت وستفعل بنفسك أيها الشقي ألم تعلم أن الموت عاقبة من يبغيها وقد سبقك كثيرون جاؤا الي فساعدتهم ولكنهم مضوا ولم يعودوا حتى الان كأن البرية ابتلعتهم فأزجي اليك نصيحتي وأرجوك أن تعود الى أهلك وتترك هذا المطلب الصعب فأجابها يا أماه لقد علق حبها في قلبي وملك علي لبي فلن أتمكن من العيش بدونها فتعطفي علي وساعديني في مطلبي فاما ان أحظى بقربها واما أن أموت في طلبها فرقت له السعلاة وقالت : أمض من هذا الطريق وبعد مسيرة شهر تجد قصرا كبيرا يملكه أخي الغول العظيم فقف ببابه حتى يفتح في الصباح وانتظر حتى يخرج ثم تقدم اليه وقل له لقد أرسلتني اختك وطلبت منك ان تساعدني ثم قدم له هذا الخاتم دليلا على صدق قولك واعطته خاتما نزعته من اصبعها ، وبعد ذلك ودعها ومضى مستسهلا الصعاب في بلوغ الرغاب مسترخصا النفس في سبيل من وله بها وهام في حبها وما يزال يواصل الليل بالنهار والعشي بالاسحار ويقطع

الفيافي ويخوض البحار حتى وصل قصر الغول العظيم فأخذ يخب فرسه اليه الى ان بلغ بابه فتوقف وترجل ومال قليلا وقعد ينتظر الصباح وبينما هو غارق في ذهوله واحلامه اذا به يسمع صوتا كأنه دوي القضاء المحتوم فانتفض من مكانه مذعورا ونظر أمامه فعلم أنه صوت الباب يفتح صباحا كما أخبرته السعلاة فوقف منتظرا خافضا رأسه واذا به يرى غولا كأنه الطود وما كاد يلمحه حتى زمجر وناداه متوعدا ويلك يا انسي هل القى بك حتفك الى باب قصري ولكنك نحيل لاتصلح لان تكون وجبة طعام لي وهنا تقدم الامير وانحنى أمامه وناداه : رحماك يا أيها الجبار لقد جئتك من اختك الاميرة وهي تهديك السلام وتطلب منك مساعدتي وقد أعطتني هذا الخاتم ليكون دليلا على صدق قولي ومد يده بالخاتم الى الغول فعندما لمحه عرفه وقال له : لك الامان والاطمئنان لماذا أتيت وماذا تريد ؟ فقص له قصته ولما انتهى من حديثه هز الغول رأسه أسفا وقال له : يا ابن أختي لقد ربطتني بك رابطة الرضاعة وأنا اشفق عليك من هذا المطلب والويل لك ان لم تمل اليك الاميرة فأنك ستكون طعاما لوالديها أو حطاما تنهشه وحوش الفلاة فكف عن مطلبك وارجع الى أهلك ، فرد عليه الامير ضارعا متوسلا انني لن أطيق الحياة بدونها وعندئذ قال له : أسلك هذا الطريق وبعد أيام ستجد جبلا عظيما أمامك فأجبل فيه طالبا أعاليه الى أن تبلغ قمته فيلوح لك قصر كأنه الجبل الذي بني فوقه فاقترب منه حتى تصل الى شباك يتراقص النور خلفه فقف تحته وناد : يافتيت الرمان يافتيت الرمان اسحبي اليك المشتاق الذي جاءك من بلاد واق واق ، فان عطفت عليك ومالت اليك مدت شعرها لكي تتسلق القصر بوساطته وتصل اليها والا ستبقى تردد هذا الكلام ولا تسمع الا صدى صراخك بين الاكام والادغال حتى يأتي والداها فيجعلاك طعاما لهما أو يرمياك للوحوش فتقطع أوصالك .

ثم ودعه وبعد أن تزود منه بما يحتاجه للسفر أخذ يقطع الارض

ذات الطول والعرض ويطويها طيا مواصلا الليل بالنهار وبعد أيام من التعب وليال من السرى والنصب لاح له عن بعد جبل عظيم يناطح شهب السماء بقممه الشماء ويسد مهب الريح عن كل وجهة فرقص قلبه فرحا وأسرع في السير حتى بلغه فاستراح في كهف منحوت من الصخر اخفى فيه فرسه وفي اليوم الثاني بادر في الصعود الى الحبيب المنشود وهو يمني نفسه بتحقيق الاحلام والظفر بالاميرة الحسناء الى أن وصل مستقرها ويا لهول مارأى لقد رأى قصرا تشمخ شرفاته كأنها رؤوس الجبال وبدا كأنه جبل فوق طود أشم ولمح من بين الشرفات مسكن الاميرة ولمح شباكها السحري الذى يتراقص نورها في جنباته كما تتراقص الآمال البيضاء في خيالاته فتقدم منه ونادى بصوت يقطر رقة ويفيض سحرا لان حبه الذي شغف قلبه تسلل في كلماته فأكسبها روحا جبارة تهز حتى الجبل الذي يقف فوقه وردد : يافتيت الرمان اسحبي المحب المشتاق الذي جاءك من بلاد واق واق وتناثرت ألفاظه في الفضاء وتسابقت الى مسامع الاميرة الحسناء ولم يكد يهم بتكرار ندائه حتى سمع صرير نافذتها تفتح وأحس بشعرها يتدلى لان نداءه فعل فيها أكثر مما يفعل السحر وهكذا الحب العظيم يفعل الاعاجيب فربط نفسه بخيوطه الذهبية وأخذت الاميرة تسحبه الى أن صار أمامها وجها لوجه فرأى جمالا لم يخلق مثله ولا يتمكن اللسان من وصفه مهما أوتي من البلاغة والبيان فعانقها وعانقته وظلا حتى المساء يتبادلان الاحاديث وينفثان غرامهما المشبوب بألفاظ كاللهيب وبينما هما في نشوة اللقاء وغمرة الهوى اذا بصوت يزمجر كالرعد فانتفضت فتيت الرمان وقالت : لقد أنى الغولان اللذان ربياني فصارا كوالدي وهما مفزعان متوحشان لو رأياك عندي لقطعاك وجعلاك طعاما لطيور السماء ووحوش الارض واني قد تعلمت السحر منهما ولابد أن أخفيك لانقذك يا حبيبي وسأحولك الى مكنسة وبأسرع من لمح البصر تحول نور الزمان الى مكنسة جميلة أخذتها

الاميرة ووضعتها وراء الباب وقدم الغولان وكانا قد اختطفاها من قصر والدها أحد ملوك الارض العظام لانهما أعجبا بجمالها وربياها فشبت كأنها ابنتهما وكانا كل مساء يدخلان غرفتها ليرتاح قلباهما بمنظرها وسحرها وحسنها البديع وما كادا يطآن الباب حتى زمجرا قائلين اننا نشم رائحة انسي عندك فأخرجيه حالا فردت عليهما ببرود قائلة انني سجينة هنا في هذه القلعة الحصينة فمن أين يأتيني الانسي وما أظن هذه الرائحة الا من عندكما لانكما تقضيان النهار بين الأنس تدوران وتصطادان ولا بد انها دماء احدى ضحاياكما . فسكتا ثم بعد ان قعدا مدة قليلة حسبتها الاميرة لاول مرة في هذا اليوم فقط كأنها دهر طويل نهضا ومضيا الى جناحهما وفي الصباح تركا القلعة قبل أن تشرق الشمس بل قبل ان تفارق الطيور وكناتها فلم تضع الاميرة أي ثانية بل أسرعت وردت الامير الى انسي كما كان ثم أخذته وتركا القصر ونزلا منه وامتطيا الحصان الذى أخفاه في الكهف وبادرا بالهرب واخذا يقطعان السهول والحزون وينهبان الارض نهبا ويسابقان الريح ولما حان المساء عاد الغولان فلم يريا الاميرة فتيت الرمان فجن جنونهما وصمما على اللحاق بها وبعشيقها والفتك بهما وجعلهما عبرة لمن اعتبر ونزلا من القصر كأنهما سحابتان سوداوان تبرقان وترعدان وفي العصر التفتت الاميرة فلمحتهما وشمت رائحتهما وسمعت هديرهما لانها اعتادت ذلك سنين طويلة في قلعتها فلم تجد طريقة للهرب والاختفاء في هذه الارض المنبسطة فاحتارت في أمرها وايقنت بالهلاك ووطدت النفس على ذلك واخبرت محبها الخبر وما كادت تنهي حديثها معه حتى لمعت فكرة مشرقة في خاطرها فحولت نفسها في لمح البصر الى منارة عالية يقف فوقها الامير يردد الاذان وبعد دقائق أقبل الغولان فوقفا تحت المنارة وسألا المؤذن : أما رأيت شابا وشابة قادمين من هذا الطريق ؟ وأطرق نورالزمان هنيهة مفكرا في جواب مفحم كأنه يريد ان يتذكر ثم رد بهدوء قائلا :

اني اؤذن العصر فقط ولم أرهما في هذه المدة ولعل مؤذن الظهر رآهما ولكنه بعيد الان اذ مضى لزيارة أقرباء له في المدينة المجاورة ثم سكت وقلبه يخفق رعبا منهما ولكن انتظاره لم يدم طويلا اذ بادرا بالسير مسرعين حتى غابا عن الانظار وفي لمح البصر عادا كما كانا وسلكا طريقا غير الذى سلكه الغولان وأخذا يواصلان السفر ليلا ونهارا الى أن بلغا عاصمة والده فرأيا المدينة تنوء بالسواد وعلامات الحداد ففزع نور الزمان وظن ان أحد والديه أصابه الحمام وأطاحت به حوادث الزمان فتقدم من أقرب حانوت وسأل صاحبه عن الخبر فشهق المحدث ونفث زفرة لو تحولت الى لهيب لأحرقت كل من لفحته بحرها وقال : لقد كان لنا أمير استبشرت به البلاد خيرا وقرت بمرآه عيون والديه ولكنه في صباح يوم مشؤوم غادر المدينة ولم يعد وبعد أن أرسل الملك حراسه باحثين عنه في كل مكان عادوا صفر اليدين يجرون اذيال الخيبة ولما يئس منه وتيقن من هلاكه أعلن الحداد في المدينة واقيمت المناحات في قصر الملك وفي الحارات الكبيرة فارتج على الامير وتغير منظره ولم يدر ما يقول بل أشار الى حبيبته باللحاق به فذهب مسرعا الى القصر وما كاد يدخله حتى رآه الخدم والحاشية فأسرعوا يخبرون الملك والملكة وانقلبت الاحزان الى أفراح والمآتم الى أعراس وطربت المدينة كلها واهتزت فرحا لهذا النبأ العظيم ثم تزوج الأمير الاميرة فتيت الرمان التى صارت مضرب الامثال بحسنها وأدبها وأقيمت الحفلات في جميع المملكة وعاشا في سعادة وأمان ورزقا امراء كانوا أعجوبة الزمان حتى أتاهما مفرق الاحباب وسالب اللذات ومنغص السعادة بعد عمر طويل وعيش رغيد وبعد أن حكما البلاد وعدلا بين العباد(*) .

(*) في هذه الحكاية نجد نظرة دقيقة طموحا في اختيار الزوجة فنراها رفيعة المنال لا يحظى بها الانسان الا بعد ان تطحنه المآسي والاهوال ولعل سعي نورالزمان الى فتيت الرمان يرمز الى هذه الناحية والى ناحية أخرى وهي على الشاب ان يقتحم الاهوال ويتحمل الصعاب في =

= سبيل من يهوى ، ومن ناحية ثالثة نرى الحب يصيب الانسان عرضا كما يقولون في المثل طائر الحب أعمى فقد يحب الانسان لاول نظرة أو لمجرد وصف بسيط كما أحب نور الزمان ولكن هذا الحب الذى يهجم بغتة لم يلبث ان يستفحل ويقود صاحبه الى انجاز جلائل الاعمال فى سبيل حبيبته ٠

ونلاحظ في هذه الحكاية وغيرها ان الغيلان والسعالي لا تسكن الا في القصور الفخمة العالية مع انها نوع من الوحوش فمن أين أتت هذه الفكرة في الحكايات ؟ وانا اعتقد انها ربما كان يرمز بها الى الامراء والحكام الطغاة الذين ساموا الرعية سوء العذاب وكان الناس يهابونهم فلا يتمكنون من التعريض بهم فوجدوا في هذه الصور فرصة مؤاتية لارواء حقدهم وجعلوهم كالغيلان المتوحشة ولم تكتف بهذا بل نسبت اليهم طبيعة بشرية في الاخاء والتبني عن طريق الرضاعة وهي سنة شائعة في بلادنا وغيرها نقلها الرواة في حكاياتهم وجعلوا حتى غير الانسان من الوحوش يعتقدون بها ٠

ونرى في هذه الحكاية ايضا حلولا سريعة تنقذ اصحابها من الخطر وتأتى هذه الحلول عن طريق السحر اذ تحول الاميرة عشيقها الى مكنسة ثم تتحول هى الى منارة يوءذن فوقها حبيبها لتنجو من الغولين اللذين تبعاهما وكم من انسان وقع في مأزق حرج وتمنى ان يخرج منه دون جدوى ولكنه وجد في الخيال مخرجا فتراءى له ساحر يتقدم اليه ينجيه بطرق السحر المتعددة وبينما هو في غمرة الاوهام السعيدة اذا به يصطدم بالحقيقة المرة التى لا يجدى معها شيء فينصاع للواقع بعد ان نعم دقائق أو ساعات بالاخيلة العذبة وتكثر هذه الاخيلة في المجتمعات الجاهلة أو عند الاطفال لانها دليل الضعيف وهى تعويض للانسان فيما يشعر به وهو يقف أمام الاحداث بلا حول ولا طول ٠

٩

العميان الثلاثة

كان ما كان وعلى الله التكلان وله الاذعان كان في قديم الزمان رجل موسر يدعى عليا يحيا في بحبوحة من العيش وينعم بالرفاهية والغنى ولكن الدهر القلب لم يدعه في سعادته بل كدر صفو عيشته وجعل شبح الفقر يدنو منه ويفزعه الى أن أفقده جميع ما يملك ولم يكتف بهذا بل اضطره أن يبيع داره التي ورثها عن آبائه ليفي دينه وليستعين بالباقى للجهاد في سبيل الحياة عله يستعيد ما ضيعه الزمان ويسترد ما أطاح به الخسران وبعد أن وفى جميع ما عليه من الحقوق سلك طريق السوق ليجد له عملا أو تجارة رابحة وبينما هو يفكر في أمره التقى به رجل فقير أفقده الزمان بصره فتقدم اليه متوكئا على عصاه يطلب منه صدقة فرق له وهو الذي عرف معنى الحاجة فمد يده الى جيبه وأخرج صرته والتقط منها درهما وقدمه للاعمى المسكين الذى فطن الى ما عند صاحبه من مال كثير وأراد ان يحتال عليه ليسلبه اياه فأخذ القطعة وقال انك اعطيتني أكثر مما يعطيني غيرك من الناس الاغنياء ولابد ان الله قد وسع لك في عيشك وهنا ثارت الاشجان في أحشاء علي فأخذ ينفث شكواه ويقص على الاعمى أخباره وبلواه وبعد ان انتهى أظهر الفقير العطف عليه وقال له ضع مامعك من مال أمامي لادعو لك من الله ليباركه ويزيده أضعافا مضاعفة فقربه منه وهو ممسك به ولكن الاعمى نهره وقال أترك المال بيدي فتركه وما أسرع ما وضعه في جيبه وسار في طريقه كأنه لم يفعل شيئا وتبعه علي صارخا مستغيثا وهو يهم أن يلقي به أرضا ويشبعه لكما ورفسا ليسترد ما استلبه من ماله الحلال فما كان من الاعمى الا أن صرخ بأعلى صوته انجدوني

يا ناس ان هذا الرجل يريد أن يسلبني مالي الذي بذلت في سبيله ماء وجهي طوال عمري وادخرته لتقلبات الزمان ولم يثنه عني ضعفي وعاهتي اذ جعل الدهر دنياي ظلاما فاجتمع الناس واسرعوا الى علي وأوسعوه لكما وتأنيبا ولم يجده دفاعه وشكواه اذ من يصدق أن أعمى يسرق من مبصر ماله ولولا أن بين المجتمعين بعض أصدقائه لسيق الى القاضي وربما لقي منه أشد العقاب ولكنهم تقدموا وأسكتوا الناس وأخرجوه من بينهم بالرغم وهم يتأسفون لما وصل اليه صاحبهم من فقر أفقده رشده ومثله وجعله في الدرك الاسفل بين حثالة القوم في صف النشالين واللصوص واعتقدوا أن الحاجة الجأته الى ما فعل حتى أنهم لم يصدقوا ما ذكره لهم لان الحجة واضحة ضده وضوح الشمس ولا مجال فيها للشك .

فسار يجر أذيال الخيبة والفشل ويحمل نير الافلاس الخانق والعار الذي لحقه من الاعمى وقلبه يغلي حقدا وغيظا فانتظر تفرق الناس ثم انساب يجري وراءه يقتفي خطاه طوال النهار حتى اذا أمسى المساء بصر به يؤم ناحية الحي القديم في المدينة فتبعه مصمما على الانتقام وان لقي في سبيل ذلك الموت الزؤام فرآه يدخل دارا قديمة ثم يتجه الى غرفة مقفلة فتح بابها ودخل وعلي وراءه لا يفارقه كظله يسير كالنسيم كي لا يشعر به أحد وبعد ان استقر بالاعمى المقام وأوصد الباب بالمزلاج وهو لا يدري أن غريمه واقف له بالمرصاد أخرج مامعه من مال حرام واتجه الى زاوية غرفته ورفع صفيحة من الصخر وأخرج من تحتها قارورة كبيرة وأفرغ فيها ما معه من مال وهو يشتكي ويقول : متى أراك تطفحين بالدنانير الصفراء المشرقة لاهيء لي قارورة اخرى ثم اعادها الى محلها وبعد أن نزع ثيابه خرج من غرفته لقضاء بعض حاجاته فأسرع علي وأخرج القارورة وأفرغ ما فيها من الاصفر الرنان في جيوبه ثم ترك الدار وأسرع لا يلوي على شيء حتى وصل الى محل سكناه فأودع فيه ما عنده من مال وهو يشعر

بنشوة النصر وحلاوة الظفر بالانتقام ولكن غيظه الشديد دفعه للذهاب الى غريمه ثانية ليسمع شكواه ودعواه بالويل والثبور .

فعاد مسرعا الى دار الاعمى واذا به يسمع صراخا يملأ الدنيا دويا ودعاء بالويل والثبور لم يستمر الا ثواني معدودات ثم هدأ وخفت كأن لم يكن شيء حتى لم يعلم أحد من الجيران والسابلة شيئا عن مصدره الا عليا فاقترب من الدار فوجد في غرفة غريمه أعميين يحيطان به ويلومانه على جهله اذ أخفى ما يملك في قارورة يسهل حملها وسرقتها على كل انسان وهو لا يبصر وأخذا يصبرانه ويحثانه على البدء من جديد في جمع الاموال ويعدانه بالمساعدة من قبلهما وطال بينهم الحديث وكان ذا شجون واذا بالاول يقف ويرفع عصا كبيرة كأنها صولجان ويقول : في هذه مخبأ لا يكشفه أحد ولو كان ساحرا ثم لواها فانقسمت الى قسمين مجوفين ملئا بالدنانير والماس والاحجار الكريمة واللؤلؤ النادر ثم أعادها ثانية فما كان من الاخر الا أن نزع بردته وكانت تحوي جيوبا سرية ملئت بالدنانير ونفائس الاحجار وقدمها لصاحبيه ليريا ما فيها وليدلهما على حذقه وبراعته في اخفاء كنوزه .

فانتظر علي حتى خرج الاعمى الاول الذي أخفى كنزه في عصاه فتبعه الى أن دخل غرفته فدخلها معه ورآه يرمي عصاه جانبا فاختطفها ومرق كالسهم من الباب لا يلوي على شيء ومضى الى داره فأفرغ ما فيها وكانت تحوي نفائس لا توصف ولم يفشأ ما فعله حدة حقده بل عاد في اليوم الثاني الى مأوى العميان الثلاثة وهو يحمل قارورة ملأى بنمل وحشرات لسعها يهيج الانسان ويفقده رشده واقترب من صاحب البرد ورمى ما في قارورته على رقبته وبين طيات ثيابه فما أن شعر الاعمى بلسعات النمل ودبيب الحشرات ووخز ابرها في صدره وظهره حتى هب وقد فقد اتزانه وعقله واضطربت أحاسيسه وأخذ ينزع برده ليتخلص منه كما يتخلص

الانسان من أفعى سامة التفت على رقبته أو من سهم اخترق جلده ناسيا أن كنوزه في داخل هذا البرد المهلهل فما كان من علي الا أن أخذه وهرب الى مأواه حيث أضاف ما فيه من نفائس وأموال وفيرة الى ما غنمه من صاحبيه السابقين ثم قعد يحس بنشوة النصر على هؤلاء المحتالين الذين ربما سلبوا اليتامى أموالهم وسرقوا ما جمعته الارامل وما أعده الاباء المجهدون لابنائهم وجمعوا من ذلك ثروة انبتتها مآسي الاخرين .

وهنا ثار الحقد الدفين في أحشائه كأنه لم يكتف بما فعل بغريمه وصاحبيه فنهض وأحضر له عصا يحملها الشرط وحذاء من أحذيتهم ومضى حتى وصل الى دار العميان فدخل في مشية عسكرية جعلتهم يتأكدون أنه من أفراد الحرس فرآهم يبكون ويضربون أخماسا بأسداس على ما حل بهم ثم اقترب منهم وناداهم قائلا ماذا حل بكم أيها المساكين الثلاثة ؟ خبروني عما دهاكم لعلي اساعدكم وأرد حقوقكم اليكم ، فشرعوا يقصون عليه ما حل بهم وأخذ يشرح كل واحد مأساته وقد أخفوا في حديثهم ما كانوا يملكونه من أموال طائلة بل ادعوا أن سارقا سلبهم ما جمعوه من الناس وهم لا حول لهم ولا قوة فأظهر الشفقة عليهم وأخذ يردد : ساعدكم الله ولعن ذلك المجرم الشرير الذى اعتدى عليكم ولم يرحم ضعفكم ولابد أنه شيطان في زي انسان والا لما فعل هذا في عميان ثلاثة أفقدهم الله نعمة البصر ، ثم أخبرهم أنه أحد حراس الامير ومن شرطه المقربين وطلب منهم أن يتبعوه ليقدمهم له وليقصوا عليه قصتهم ولابد أن يكتشف السارق الاثيم بعد ذلك وينال أشد العقاب جزاء ما قدمت يداه فتبعوه وسار أمامهم يقودهم حتى وصلوا الى شاطىء نهر وبجانبه قصر كبير أوهمهم أنه قصر الامير فأوقفهم بجانب السور وفارقهم كأنه يريد أن يدخل دار الامارة ليقص قصتهم على الامير وليطلب منه السماع الى شكواهم وبعد برهة ليست بالطويلة عاد اليهم وأخبرهم أن الامير يريد منهم أن ينزلوا ويستحموا في

هذا النهر لانه لا يرضى أن يقابلهم وهم في أجسامهم القذرة هذه فنزعوا ثيابهم ونزلوا في النهر وأخذوا يستحمون فما كان من علي الا ان جمع حصا وأخذ يرميهم به ويصيبهم في رأسهم حينا وفي وجههم حينا آخر وهكذا فهاجوا واعتقدوا ان جماعة من الصبية المارقين يريدون ايذاءهم أو تخيل كل واحد منهم ان الآخر يرميه فانكبوا يجمعون الحصا من النهر ويرمونه بعضهم على بعض الى أن امتلأت أجسامهم ورؤوسهم ووجوههم جراحات وكدمات دامية من ضرباتهم المتتالية ثم خرجوا من النهر وهم في حالة يرثى لها فاستقبلهم الناس مشفقين وتجمعوا حولهم وأخذوا يضمدون جروحهم ويتوعدون من فعل بهم ما فعل بالويل والثبور وانتشر خبرهم الى أن بلغ الامير فدعاهم اليه وأخذوا يقصون عليه ما نزل بهم من مآس واعتداء واذى من شخص أثيم لم يكتف بسرقة أموالهم حتى فعل بهم ما فعل وأراد اهلاكهم لو لم يسرع اليهم أهل المروءة من الناس فأطرق الامير هنيهة وهو يفكر فاذا به يأمر المنادي ان ينادي في المدينة طالبا ممن قام بهذا العمل أن يتقدم ويقص عليه قصته وله الامان ، لانه شعر ان في حديث هؤلاء العميان سرا مخفيا اذ كيف يفعل انسان ما فعل دون سبب مهما كان ممعنا في الفساد والاجرام وهنا تقدم علي وسلم على الامير وقص عليه قصة العميان الثلاثة من أولها وقد جلب معه ما غنمه من أموالهم وأراه للامير ليكون دليلا على اجرامهم اذ لا يمكن جمع ما جمعوه عن طريق الاحسان ثم أردف قائلا ومن يدري أنهم لم يرتكبوا حتى جرائم القتل في سبيل اشباع نفوسهم الجشعة التي عبدت المال عبادة وبعد ان أنهى حكايته هش الامير وقال له : احتفظ بما أخذته منهم فهو حق ومال حلال لك لانك أنقذت البلدة من مجرمين متسترين بالضعف وفقد البصر عاثوا فيها فسادا ثم التفت اليهم قائلا :

أما أنتم فلن أمسكم بسوء بل أطلب منكم أن تغادروا مدينتي حالا من هذه اللحظة ومن لم يفعل أو عاد اليها فسيكون جزاؤه القتل وما أنهى حديثه

حتى دلفوا من بين الجموع التي أخذت تنظر اليهم بريبة واحتقار وتقابلهم بصرخات تفيض حقدا واشمئزازا وساروا يحملون أعباء آثامهم ويحثون الخطا الى الطريق التي تقودهم الى البلدة المجاورة ولعلهم يعيدون سيرتهم الاولى أو سيصلحون أنفسهم ويحيون حياة نقية شريفة تستدر الشفقة والعطف من الناس بحق . *

(*) في هذه الحكاية صورة من المجتمع بعيدة عن الخيال وعن الجن والغيلان والسعالي اذ تعالج ناحية يشعر بها كل فرد وهي ان كثيرين من الناس يتخذون من المظاهر التى تستدر الشفقة وسيلة لتغطية نفوسهم المتوحشة ويعيثون فسادا في الارض واجراما وسرقة وبخاصة اذا كانوا من ذوي العاهات التي تجعل الناس يعطفون عليهم ويرونهم بعيدين عن الشبهات لان ظاهرهم يستدر العطف والرحمة .

ولكننا نجد غلوا أكبر في الحقد الذى يجب ان يتسامى الانسان عنه فان عليا لم يكتف باسترداد ماله بل سلب جميع أموال الاعمى الذى احتال عليه ولم يكتف بذلك بل استحل أموال صديقيه الاعميين وكان يجب ان يقف عند هذا الحد مهما كان غيظه ولو استعر في صدره كاللهيب ولكن المجتمع الحاقد لم يرض ان ينهي الحكاية عند سلب اموال هؤلاء المحتالين المتسترين بعاهة العمى بل جعل بطل القصة يوقع بهم في النهر تلك الوقيعة التي كادت تودي بحياتهم وتوردهم موارد الهلاك وقد جعلهم ينزفون دما من شدة الجراحات ويخرجون متهاوين من الاصابات التى لحقتهم لا يعون ولا يفقهون شيئا حتى انهم لا يطيقون الكلام .

وليت الامر وقف عند هذا الحد اذ نجد حتى الامير الحاكم لا ينظر اليهم نظرة عطف ويأمر بنفيهم ويغض النظر عن اعمال بطل الحكاية التي لا تقل اجراما عنهم وربما فاقهم في ذلك والسبب هو ان نظرة الناس الى المحتال المعتدي تكون نظرة قاسية بحيث تتسامح مع من يقابله بمثل اعتدائه أو أشد منه ، ومهما يكن من أمر فان ابقاء الامير على الاموال التي استلبها علي واعطاءه صفة البطولة لا يماشيان المثل والعدل بل يميلان عنهما ويخلقان افكارا في الاطفال وغيرهم قد تضر المجتمع ، وكان على مبدع الحكاية أن يجعل الامير يسترد الاموال من علي ويوزعها على اصحابها ان كانت منهوبة منهم ولابد ان يظهروا في هذه الحالة والا فانها توزع على الفقراء كما كان يجب أن يقابله على الاقل بالعتاب والردع الشديدين ويخبره ان الدنيا ليست فوضى وان الانسان اذا تسلط يجب أن يرحم وان يعفو والافانه يكون اشد اجراما ممن اجازت له نفسه الاعتداء عليهم .

١٠

ابنــة الاب

كان ما كان وعلى الله التكلان كان في سالف العصور رجل موسر حقق له الدهر جميع أمانيه في الدنيا ومنحه امرأة كأنها حورية من الجنان ولدت له ابنة لا تقل عنها حسنا وفتنة غير أن شبح النحس لم يتركه في سعادته يمرح بل أخذ يراوده الى أن سلب منه أعز ما يملك وهي زوجه الحبيبة التي ملكت عليه لبه وفرشت حياته بالسعادة وزرعت في طرقها المتشعبة أزاهير الورد العطرة فأظلمت الدنيا في عينيه وضاقت أمامه السبل وملك عليه الاسى قلبه حتى تداركه أصحابه وأقرباؤه وأخذوا يخففون عنه أثر هذه الصدمة ويحاولون دفع الكرب والهم من حوله دون جدوى واخيرا اقترحوا عليه أن يتزوج امرأة اخرى لعله يجد فيها عزاء عن حبيبته فأذعن بعد لأي وتزوج امرأة جميلة لكنها تضم بين أحشائها قلبا بشعا يقطر منه الدهاء والحقد والاجرام فما ان تركزت في بيتها الجديد حتى أخذت تسوم ابنة زوجها سوء العذاب ولكن الفتاة وهي رفيعة الخلق تفيض شفقة ومحبة لم تنبس ببنت شفة وتحملت ما تحملت بقلب صبور لئلا يسمع أبوها فينكأ الخبر جرحه القديم وتعود به الذكريات الى عهده السابق مع أمها الطهور ، ودارت الايام وولدت المرأة ابنتين جميلتين لكنهما لا يجاريان في حسنهما اختهما الكبرى فزاد ذلك من حقد والدتهما عليها وأخذت تكثر من اذلالها والاعتداء عليها ، فكانت تذهب كل يوم هي وابنتاها الى الاسواق والحدائق يحفهن الخدم والاماء وتترك ابنة زوجها وحدها تشتغل مع الخدم وتدبر أمور البيت وبقيت طوال هذه المدة صبورا لم تكشف مابها من كربة لاحد ، غير انها كانت تتحين الفرص فتنتحى جانبا في احدى زوايا الدار وتطلق لعينيها العنان فتذرفا العبرات الغزيرة لتخفف

ما بها من أسى متذكرة صور الماضي المشرقة حيث تحيا في أحضان أمها محاطة بالعطف والحنان وأي شيء في الدنيا أجمل والذ من حنان الامومة؟ وفي أحد الايام بعد ان أكملت عملها ووجهت الاماء والخدم كلا الى عمل معين شعرت كأن أنفاسها تخنقها فخرجت مسرعة الى باحة الدار ورمت نفسها في حديقتها بجانب يقطينة كبيرة وأخذت تبكي ما شاء لها البكاء وبينما هي في هذه الحالة تراودها الآلام والأشجان اذا باليقطينة تنشق وتخرج منها امرأة تشرق نورا وجمالا كأنها احدى حوريات الجنة التي أعدها الله لعباده الصالحين فارتجف قلبها رعبا أنساها ما بها من ألم وشجا ولكن المرأة لم تتريث بل تقدمت حالا وربتت على ظهرها وأخذت تخاطبها بصوت يقطر رقة وحنانا مشفقة عليها قائلة لها : لماذا تبكين يافتاتي الصغيرة وقد وهبك الله هذا الجمال الباهر وجعلك تحيين في قصر والدك هذا الذى لايدانيه في جماله وعظمته قصر آخر ؟ فما كان من الفتاة الجزوع الا أن سردت عليها قصتها شاكية من زوج أبيها التى أحالت سعادتها شقاء وبيت أبيها الذي يزهو كالجنان سعيرا محرقا ، فردت عليها المرأة قائلة : لاتخافي سأعوض لك ما أرادت تلك المرأة الحقود أن تحرمك منه وفي لمح البصر وجدت أمامها عربة فخمة وثيابا مزركشة بالحلي والجواهر وحذاء كأنه مصنوع من الاحجار الكريمة التى يرى لها بريق يعشي الابصار ثم أمرتها أن تلبس الثياب وتمتطي العربة وتمضي الى الحدائق والمتنزهات والمخازن والملاعب وجميع الاماكن التي تطرقها اختاها ووالدتهما ثم تعود الى البيت قبل أن يعدن فسارت في المدينة حيث بهرت الناس بجمالها وحلاها الذى لا تملكه حتى بنات الملوك وأخذوا ينظرون اليها مشدوهين متسائلين من هذه الفتاة ؟ هل هي حورية هربت من الجنة أو ابنة ملك دانت له الانس والجن ؟ وقد أجمعوا على أن زوجها ان كانت متزوجة لاسعد انسان والا فانها لا تليق الا لامير البلاد وانه ان رضيت به لذو حظ عظيم في هذه الدنيا ولكنها كانت تسير متهادية كبرا لا تلتفت لاحد ترمي بسهام لواحظها

الشباب ومرت بالمخازن والمتنزهات وطافت في حديقة المدينة حيث كانت اختاها ووالدتهما ونظرن اليها واعجبن بجمالها واشتعلت نيران الحسد في قلوبهن ولكنهن لم يدرين من هي ولو عرفن ذلك لطرن الى البيت واستقبلنها باللكمات والسباب •

وبعد أن انتهت من جولتها انسابت مسرعة الى البيت حيث كانت المرأة واقفة في استقبالها وفي أثناء التجوال فقدت حذاءها بسبب اسراعها في ركوب عربتها عندما لاحت لها امرأة أبيها وابنتاها فخافت منهن أن يتبين معالم وجهها وفي اليوم الثاني قدم حارس الحديقة الحذاء الى قصر الملك ظانا أنه يعود لاحدى الاميرات اذ لا يصح أن تملكه غيرهن فأعجب به من في القصر وعرفوا لأول وهلة أنه حذاء تلك الفتاة الساحرة التي لمحها ولي العهد ووقع في حبها ولكنه ضيع أثرها ولم يعرف أين تسكن وأين تقيم ولما رأى حذاءها زاد اعجابه بها وصمم ان يتزوجها لان التى ترتدي حذاء مثله لابد أن تكون فتاة رفيعة الذوق ذات صفات عالية ومزايا سامية فأعلن المنادي في المدينة ان الحارس وجد في الحديقة حذاء نادرا وقد قدمه للملك الذي قرر أن يزوج ولي العهد من صاحبته ولهذا سيرسل وصيفات البلاط الى المدينة ليجلن فيها دارا دارا حتى يجدن صاحبة الحذاء النادر •

فدارت الوصيفات في المدينة من الصباح الى المساء الى أن كدن ينهين دورها ولم يعثرن على أنشودتهن اذ ان الحذاء لم يلق في رجل أي فتاة حاولت وضع قدمها فيه وكاد اليأس يدب الى قلوبهن فعزمن على الرجوع خائبات يجررن أذيال الفشل الى سيدهن ولكن لاح لهن قصر جميل فقررن أن يملن اليه ولما دخلنه تقدمت سيدة الدار وأشارت الى ابنتيها فأسرعتا فرحتين ليجربا حظهما وما أن وضعتا رجليهما في الحذاء حتى اجترنا مرارة الفشل وعلا الذهول وجهيهما والسخط أساريرا والدتهما وفي تلك الاثناء ظهرت اختهما الكبرى وهي ساكنة هادئة موقنة بالنتيجة ولكن زوجة أبيها

وابنتيها بادرن وصيفات الملك قائلات اتركنها فانها فتاة غبية رعناء لم تخرج من دارها قط ولا يمكن أن يكون الحذاء لها ، غير أن الوصيفات أصررن على أن يجربن الحذاء على رجليها وألا يضيعن آخر سهم في جعبتهن ولشدة دهشتهن وجدن الحذاء قد صنع خصيصا لها ولرجليها البضتين فرفعنها على الاكتاف وخرجن بها مسرعات فرحات تلاحقهن نظرات الام وابنتيها اللائي كادت الحيرة والخوف والحسد يفقدنهن رشدهن .

وبعد أيام ضجت المدينة فرحا بزواج وليعهدها المحبوب من صاحبة الحذاء السحري وعلت السعادة جميع الوجوه وعاش الناس في سرور وغبطة عظيمين حتى فزع الشقاء من هذه المدينة وفر هاربا منها طالبا له ملجأ فلم يجده الا في قلوب تلك المرأة الحقود زوجة الاب وابنتيها اللاتي أخذن يعضضن أصابعهن من الغيظ ويتمنين لو يظفرن بتلك الفتاة الوضيعة التي سرقت الامير منهن وتزوجته بسحر ساحر رغما عنهن ولكنهن لم يظهرن ما في قلوبهن للاب الذى لا يمكن لاي أديب مهما كان بليغا أن يصف سعادته وهناءه . ★

(*) هذه الحكاية مسلاة للمظلومين الصبورين فكم من فتاة يتيمة اختطف الموت والدتها وكم من فتاة أبعدت عن أمها قسرا لانها طلقت فبقيت وحيدة بائسة تلاقى الامرين من امرأة ابيها ولكنها لم تتمكن ان تفعل اى شيء اذ لا خيار لها في تحمل هذا الشقاء المنصب على اكتافها من قبل القدر ولكن الخيال لم يرض لها ان تحيا في ظلام مغلق وشقاء لا منفذ منه فتخيلت أميرا أو زوجا كالامير كان فتى احلامها زمنا طويلا يأتى اليها وينتشلها من هذه الهوة كما فعل الامير بهذه الفتاة البائسة وجعلها أميرة تخضع لها زوج ابيها وابنتاها ، فهى تعويض للواقع المر ، تجد فيها الشقيات من الفتيات دنيا مشرقة ومبعثا للامل والنور في حياتهن المظلمة .

ولم تقف الحكاية عند هذا الحد بل جعلت بطلة القصة وهى من عامة الناس من طبقة الملوك تتزوج ابن الملك وولي عهده فرفعت منزلتها الى المستوى الذى تريده ويفضله الناس بنفس الوقت .

كما ان هذه الحكاية تمثل صورة واقعية داخلتها مناظر طريفة من =

= الخيال الطموح البعيد اذ كثيرا ما نسمع أو نرى ان الابناء اذا فقدوا أمهاتهم يعاملون معاملة سيئة من قبل زوجات آبائهن قد تكون اتعس من معاملة بطلة القصة هذه ، ومن ناحية اخرى نجد فيها درسا اخلاقيا رفيعا يصلح لغرس المثل العليا في الافراد والمجتمعات فبطلة الحكاية تفيض حنانا وعطفا على والدها وانها تحملت ما تحملت ولم تنبس ببنت شفة خوفا من ان يسمع بحالتها فيثور وترجع اليه احزانه وهذه البطلة ايضا لم يبد منها في أي حالة من الحالات محاولة للانتقام من اختيها وامهما أو الاضرار بهن والنظر اليهن نظرات حقد وهكذا يجب ان يكون الرجل المثالي والمرأة المثالية ولا ينسى القاص ان يجعل التوفيق والحظ يسيران في ركابها فينتصر العدل ويتخاذل الظلم كما هى العادة في معظم الحكايات.

ولابد ان نشير الى الطريقة التى تمكنت فيها الفتاة البائسة من تحقيق خيالاتها المجنحة فقد جاءتها البشرى عن طريق السحر والجن اذ تخرج امرأة من يقطينة تأخذ بيدها الى مستقبل مشرق يجعل اختيها وامهن في اشد حالات الحقد والغيظ وهكذا دائما نجد الضعيف الفاشل يحقق آماله حين يخفق في مجال الواقع ويخبط في ظلامه وشقائه خبط عشواء .

١١
الصديق الوفي

كان ما كان ولله الاذعان كان فيما مضى من الزمان صديقان مخلصان الاول تاجر موسر يملك القصور الفخمة وخزائنه تزدان بالذهب الابريز والاحجار الكريمة وتقطع قوافله الحواضر والبوادي محملة بالاموال الثمينة والبضائع النفيسة ، والآخر قصاب يعيش في سعة من العيش ويملك البساتين الغناء والمراعي الخصبة ترعى فيها ماشيته وتتهادى غدوا ورواحا على أنغام الرعاة ، وكان هذان الصديقان لا يفترقان ، يتقاسمان الشدائد والافراح حتى صارا مضرب الامثال في الود والوفاء .

وفي يوم من الايام قررا أن يذهبا للصيد في ضاحية تنبت فيها الغابات الكثيفة وفي وسطها بستان كأنها قطعة من الجنان يمتلكها القصاب وكان للتاجر عدو لدود قد أضرم الحقد في أحشائه نارا حامية لا يخف أوارها ولا يخمد سعيرها ففكر في الانتقام ووجدها فرصة أرسلتها له الايام ليروي ظمأ حقده ويشفي غليل قلبه فأسرع الى الغابة وصعد احدى أشجارها واختفى بين أغصانها وأعد قوسه وراش سهمه وأخذ ينتظر مقدم غريمه على أحر من الجمر ولما كان الصباح خرج الصديقان فرحين كالطيور وقصدا تلك الغابة وأخذا يقضيان الوقت في لهو ومرح يصطادان الطيور والغزلان حتى قربا من منطقة العدو فاذا بسهم يندفع نحو التاجر ولكن الصدف أتاحت له غصنا جعله ينحرف قليلا فأصابه بخدش في كتفه ولولا هذا الغصن لغاص في قلبه فارتمى مسرعا على الارض ونظر في اتجاه السهم فوجد غريمه فوق الشجرة يسرع في الهبوط ليهرب وهو لا يدري أن الاقدار أنقذت عدوه وانها لم ترض أن تودي ببريء بسهام رجل شرير

خائن فما كان من التاجر الا أن أسرع اليه وعاجله بضربة من سيفه فصلت رأسه عن جسده ثم وقف حائرا لا يدري ماذا يفعل وبينما هو في هـذه الغمرة من الحيرة والارتباك أقبل اليه صديقه القصاب ولما رأى القتيل بادره دون سؤال أو جواب ولو كان يعلم حقيقة الامر قائلا : لا تخف ، هيا معي نضعه في كيس ثم نحمله الى البستان فأسرعا وحملاه وحالما وصلا اقتربا من ساقية الماء وأخذا يحفران تحتها ثم ألقيا القتيل في الحفرة وأهالا عليه التراب وأعادا الساقية كما كانت وذهب القصاب الى دولابها وربط الجواد به فدار وأخذ الماء يسيل فيها كأن لم يحدث شيء وكأن لم يدفن فيهـا انسان لان الماء أضاع معالم الجريمة وآثار الحفر في الساقية ، وكان أهل القتيل يعلمون مابيته للتاجر فعندما طال غيابه ولم يعد أيقنوا بموته وأخبروا السلطان واتهموا التاجر فأرسل اليه مع القصاب للاستجواب فأنكرا رؤيتهما له ثم ذهب الشرط الى البستان وفتشوها دون جدوى وداروا فى الغابـة المجاورة وطافوا فى كل منطقة من مناطقها وفحصوا كل شبر منها ثم عادوا يجرون أذيال الفشل اذ لم يجدوا أي أثر حتى اقتنع الجميع بما فيهم أهل المقتول ان التاجر بريء منه كبراءة الذئب من دم يوسف وهكذا نجـا باخلاص صديقه القصاب وكتمانه للسر ووقوفه معه صفا واحـدا في ساعة الشدة .

ومضت الايام وتوالت السنون واختفت تلك الحادثة وراء أستار الزمن وتزوج الرجلان وخلفا أولادا كرماء أباة النفوس كأبويهم وكان للتـاجر ولد له أصدقاء كثيرون يشاطرونه أفراحه ويملأون الدار في الحفـلات والرحلات بينما والده ينظر اليهم نظرة شك فأخبر ابنه بمـا في دخيلة نفسه فرد محتدا مؤكدا اخلاصهم ووفاءهم فجاراه والده ولكنه رجا منه أن يجربهم ولا ضير في التجربة ، وذلك بأن يذهب اليهم في مساء أحد الايام ويخبرهم كلا على انفراد انه وقعت حادثة اضطر فيها الى قتل أحـد

الاعداء في حديقة داره اذ جاءه ليلا لاغتياله ففعل ما فعل دفاعا عن النفس ثم يرجوهم بعد ذلك ويطلب منهم اخفاء السر ومساعدته في حمل جثتـــه والقائها في النهر فلم يجد الشاب مهربا من رجاء والده اذ لم ير فيه مايخشى منه فوافق وهو موقن انه لو طلب منهم ان يرموا أنفسهم في جهنم لمـــا توانوا فكيف لو طلب هذا الشيء البسيط ولكن التجربة ما لبثت أن بددت أحلامه وأوقفته على واقعهم المر ، فمضى في المساء الى هؤلاء الاصدقاء واتجه الى أعزهم لديه وما كاد يخبره بالقصة حتى اصفر وجهه وأجابه بحـدة اني أبرأ من صديقي المجرم ، ابعد عني أتريد أن تدنس يدي بفعلك الدنيء واخفاء جريمتك البشعة ، لست صديقا لك ولا أعرفك ولكن حفظا مني للوداد سأخفي ما ذكرته ولا أخبر السلطان عنك فسار عنه كسير القلب ومضى الى الثاني فلم يكن رده أجمل من الاول وهكذا فعل الثالث وما كاد يخبر الرابع حتى صرخ في وجهه وطرده شر طردة ثم أسرع الى مدير الشرط وأخبره الخبر فأسرعوا الى دار التاجر وأحاطوها من كل ناحية خوفا من هرب المجرم واخفاء ضحيته المسكينة وطرقوا البـــاب وبدأوا بتفتيشها شبرا شبرا بعدما فتشوا حدائقها فلم يعثروا على أثر لما اخبروا عنه وتقدم الوالد لرئيسهم وسأله متجاهلا وهو الذى يعرف حقيقة الامر قائلا له : ماذا تريدون مني ؟ فتردد الرئيس فألح عليه التـاجر فاذا به يخبره ان فلانا وهو الذى يعتبره ولده من أوفى أصدقائه قد تقدم اليهم بخـبر يقول فيه : ان ابنك البكر قد اقترف جريمة قتل والقتيل مخفي في داره فأسرعنا لنجتلي الحقيقة فكان ما رأيت وسنعاقب المخبر أشد عقوبة ، وهنا رد التاجر قائلا : أرجوكم ألا تفعلوا معه شيئا ثم طلب منه أن يدخل مع أتباعه غرفة الطعام فاذا بخروف مشوي وبالمائدة تعج بما لذ وطاب وقال لهم هذا هو القتيل هيا شاركونا فرحتنا حيث عرف ابني حقيقة اصدقائـه

ثم أخبرهم في أثناء تناول الطعام قصة ابنه فأعجبوا من ذكاء الوالد وحرصه على نصح ولده وتعليمه .

وفي الصباح دعا ولده وقال له : سأخبرك كيف يكون الاصدقاء ؟ خذ طريقك الى القصاب وهو صديق قديم لي لم أجد في صداقته وسيرته أي ثغره أو مطعن طوال حياتنا ، وعندما تصل الى محله قل له يهديك والدي السلام ويرجوك أن تزن لي نصف أقة لحما طريا جيدا وبعد ما يزنها خذها وامض بعيدا عنه وارمها بالتراب وعد اليه وقل له ان والدي يقول : ماكنت أحسبك غشاشا حتى لاصدقائك ان لحمك نتن لا يشتهيه انسان ثم أشبعه سبا واطلب منه أن يزن لك كما وزن أول مرة وكرر عليه هذه الحالة مرات متهما اياه بالخيانة والغش وعدم الوفاء مع الاصدقاء حتى يتكلم لانه في كل مرة تأتي اليه غاضبا سينهض هادئا ويزن لك اللحم ثم يناولك اياه بدون أن ينبس ببنت شفة .

ففعل الولد كما أمره والده وكرر ذلك مرات والقصاب لا يتكلم ولا يرد عليه ولكنه في المرة الخامسة احتد ثم قال له : اهد والدك السلام وقل له مهما تفعل معي من سوء فلا تعتقد انني سأقول « على أي شيء جرى الماء ؟ » .

وهنا عاد الى أبيه وأخبره الجواب وطلب منه توضيح حديث القصاب فقص عليه القصة من أولها الى آخرها وقال له : هكذا يكون الاصدقاء ، فسر الولد لحكمة والده وترك أصدقاءه أصدقاء الرخاء وصار لا يثق بأحد الا بعد أن يجربه زمنا طويلا(*) .

(*) في هذه الحكاية لا تجد خيالا بعيدا يحلق بك في اجواء غريبة عن المجتمع كما في الحكايات الاخرى بل تراها واقعية كأنها قد حدثت فعلا أو يمكن ان تحدث في محيطنا وهي كالعادة تدعو الانسان الى الشك في الاصدقاء وتخبرنا ان الصديق الوفي نادر أو مستحيل كما قال الشاعر :

وعلمت ان المستحيل ثلاثة الغول والعنقاء والخل الوفي

وان اكثر الاصدقاء يكونون معك في اوقات الرخاء ويبتعدون عنك =

= عند الشدائد ويزوغون عند رؤيتك كأنهم لا يعرفوك وربما اوقعوا بك في تهلكة ووشوا بك عند الاخرين وضاعفوا المآسي التي حلت بك ، ومن ناحية اخرى تأتي لنا بمثال عن الصديق الوفي كما يتصوره الناس في ذلك العهد ويسعون للحصول عليه فهو كاتم للسر لا يبوح به مهما تغيرت الظروف والاحوال ولا يتردد في ايقاع نفسه في المصاعب وحتى المهالك لاجل صديقه ومهما لاقى منه من ازدراء أو من كلمات قاسية لا يغضب ولا يتصرف تصرفا أهوج يفقده اعصابه فيكشف ما خفي في قلبه من أمور لو علم بها الناس لوقع صديقه في تهلكة لا نجاة منها .

غير اننا نعلق على نقطة مهمة وهي ان الحكاية تهدف الى مصلحة خاصة فقط فترفع من قدر القصاب لانه كتم جريمة صديقه وساعده في اخفائها ولا تنظر نظرة شاملة أو تسعى للمصلحة العامة فتضعها فوق الجميع وتضع في حدودها حقوق الصداقة والاخاء ولهذا نسأل هل يجوز التكتم على جرم الصديق مهما كان سببه ؟ وهل اخفاء جريمة القتل من مصلحة المجموع ؟ وان كان القتل دفاعا عن النفس فالاصلح ان يقف الجاني أمام القضاء ويثبت براءته في شجاعة لا أن يخفي عمله فيكون ذلك تشجيعا للاخرين على التغاضي عن كل ما يقع في المجتمع من جنايات فتنتشر الفوضى ويتلاشى تحمل المسوءولية .

١٢
السرادق السحري

كان ما كان والله ينصر السلطان في كل مكان كان في قديم الزمان ملك عظيم الشان يدين له المشرقان والمغربان وتعنو له الانس والجان والملوك والحكام في كل أوان وكان له ثلاثة أولاد تسنموا عروش الامارة ووهبوا شجاعة وذكاء ومهارة وأوتوا حكمة جليلة حتى يحار في تفضيل أحدهم على الآخر كل انسان مهما وهب من فطنة وعقل ، وبعد أن خبر الملك الدهر حلوه ومره وبلغ من العمر عتيا وقاربت شمس حياته على الافول أراد أن يختار واحدا منهم ليلي الملك من بعده وليحيي ذكره ويعلي مجده فلم يتمكن من ترجيح أمير من بينهم فاستشار وزيره فأشار عليه أن يعطي كل واحد منهم مقدارا من المال ويطلب منهم أن يطوفوا في البلدان ويتاجروا به ثم يعودوا بعد سنة ومن كانت تجارته أربح وأفضل من أخويه يولى العهد ويكون له الملك من بعده .

فسار الامراء على خيولهم المطهمة يجوبون المدن والاقطار ويقطعون خصيب الارض والقفار ويسعون في الارض ذات الطول والعرض فبقعة ترفعهم وأخرى تضعهم حتى وصلوا الى نقطة تتفرع منها ثلاثة طرق لا يعرفون الى أين تطوح بهم فوقفوا حائرين لا يدرون ماذا يصنعون وبينما هم في حيرتهم اذا بشيخ قد قوس الزمان ظهره وأوهن عظمه وأشعل الشيب رأسه يقيم في كهف يقع على ربوة تطل على ملتقى هذه الطرق الثلاثة فترجلوا عن خيولهم وأسرعوا يجبلون اليه فلما قربوا منه حيوه أجمل تحية فرد عليهم بأحسن منها ثم سألوه عن هذه الطرق والى أي المدن والاصقاع تؤدي بهم فقال لهم : الطريق الاول أكثر أمانا يؤدي بكم الى أغنى المدن وأجملها حيث تتضاعف أموالكم وتربح تجارتكم وأما الثاني فان من يسير فيه يعود بأعظم الارباح وأفضل الحظوظ وان

كانت فيه بعض المخاطر ، وأما الثالث فهو طريق (الصد بلا رد) * من طرقه لم يعد منه لانه يقود الى ممالك الغيلان ومدن السحرة والجان وأهل البطش والفتك من بني الانسان وأنا أنصحكم أن تبتعدوا عنه اذا أردتم الحفاظ على شبابكم الغض واسعاد أبويكم بسلامتكم والتمتع بالنظر الى طلعتكم .

فاختار الاميران الاكبران الطريق الاول وسارا فيه مسرعين أما الاصغر فأصر على أن يمضي في الطريق الثالث طريق الصد بلا رد مهما كانت العقبات والنتائج ولم يصغ لتوسلات أخويه ولا لنصح الشيخ الكبير الذي أخذ يتضرع اليه أن يتبع أخويه حفاظا على شبابه الغض وحين أصر على رأيه قال له : انك وقعت في قلبي موقعا كبيرا وسأسدي لك النصح لعلك تعود غانما من بين الالوف الذين سلكوا في هذا الطريق وصاروا أثرا بعد عين فاذهب الان واشتر بكل ما تملك قطيعا كبيرا من الغنم وسر معه متنقلا من مرج الى آخر وبعد مسيرة شهور ستلمح في الافق طودا عاليا يناطح سحب السماء ويزاحم شهب الليل في مواقعها وفي سفح الجبل تشاهد قصرا عاليا فامض نحوه حتى تقترب منه صباحا فتخرج عليك سعلاة مخيفة وقد تدلى ثدياها وهي ترعد وتبرق غضبا لانك اعتديت عليها بدخول أرضها الحرام وتناديك مهددة بأنها ستقطع أوصالك أربا أربا وستجعل من لحمك عشاء شهيا اذ انها لم تأكل لحم انسي من مدة طويلة ، فاختف بين الخراف وسر على أربع برجليك ويديك وأياك أن تريها نفسك حتى اذا قربت منها وقربت منك استرق منها غفلة واهجم على أحد ثدييها المتدليين فوق صدرها وارضع منه ولا تتركه حتى تعطيك الامان فاذ ذاك أخبرها انك ابن أخيها الاكبر وقل لها لقد أرسلني أبي اليك لاقدم هذا

(*) هكذا تصف الحكاية الطريق الذي يهلك كل يطرقه ويطلق الوصف نفسه في كل الاحاديث حتى صار هذا التعبير كالمثل يدور على ألسنة العامة من الناس فيقولون (راح في درب الصد ما رَد) .

القطيع الكبير لك هدية منه وهو مشتاق الى رؤيتك كثيرا والى سماع أنبائك ويرجو ان تقبلي هذه الهدية البسيطة لكي تكون طعاما لك فحينئذ ستقول : شكرا لك يا ابن أخي والان أطلب وتمن وأخبرني بما تطمح اليه نفسك لاحققه فلو أردت نجما من السماء لانزلته هدية لك أو أردت ان أحمل هذا الجبل لحملته ونقلته حيث تريد ، فرد عليها قائلا : اني أطلب شيئا بسيطا يا عمتي وأرجو أن تهبيني السرادق السحري ، فستأخذك حالا الى كهف مظلم في الجبل وتعطيك السرادق وتقول لك : اهد سلامي الى والدك وبلغه أشواقي ، فقبل يدها ثم اطلب منها مباشرة الاذن بالسفر مدعيا انك قد تأخرت كثيرا في الطريق وان والدك لا بد أن يكون في قلق شديد عليك ، وأياك أن تغر وتطمع بالخزائن والمجوهرات والحوريات الحسان اللائي في قصرها أو في الكهف لانك ان تأخرت عندها أياما قد يتغير رأيها وتطلع على حقيقتك وتفتك بك .

فعمل الامير بنصيحة الشيخ الكبير واشترى بما معه من مال قطيعا كبيرا من الغنم وسار به يقطع الفيافي والحزون والسهول أرض ترفعه وأرض تضعه * في مجاهل لم يطرقها انسان ولم يسلكها الا السحرة والجان وبعد أيام طويلة وانقضاء ثلاثة من الشهور لاح له جبل السعلاة بسفوحه وربوده التي تشمخ في السماء وفي وسطه يختال قصرها المنيف فدق قلبه فرحا وحث المسير حتى شارف القصر فانتظر الى الصباح ثم أخذ يقترب منه فاذا بصوت كهزيم الرعد يزمجر فتهتز له نواحي الجبل الاشم واذا بالسعلاة تتقدم مرعدة مدوية بصوتها المرعب تتهدد بالويل والثبور ولكنه لم يفزع ولم يفقد صوابه أمام هذا الوحش الذي يفزع الصخرة الصماء بل سار على أربع بين القطيع الى أن قربت منه فانتهز منها غفلة وارتمى على ثديها يرضع منه فاذا بها يزول غضبها وتقول له

(*) هذا أيضا اصطلاح أو تعبير يتردد كثيرا في الحكايات عند قطع المسافات الطويلة والطرق المختلفة وقد فصحته اذ ان العامة تقول (ارض تشيله وأرض تحطه) .

لك الامان أيها الشاب الشجاع ما هي قصتك وما هو مطلبك ؟ فأخبرها أنه ابن أخيها الاكبر وقد اشتاق اليها وأراد معرفة أخبارها فأرسله اليها ليقدم هذا القطيع هدية لها فهشت وبشت ورحبت به أشد الترحيب وطلبت منه أن يدخل قصرها فرأى فيه أنواع الجواهر والفرش الثمينة وبساتين تحمل أشجارها اللاليء والاحجار الكريمة كما لاحظ فيه ما أحزنه اذ وجد فتيات من الانس من أبناء جنسه يخزين البدر المشرق بجمالهن وهن ذليلات يخدمن في قصرها ورأى غيرهن مقيدات سجينات ولابد أن تكون كل واحدة منهن أميرة من الاميرات ، وما ان استقر به المقام حتى بادرته بالسؤال ، ماذا تريد أن أهديك يا ابن أخي ؟ فأظهر التردد أولا ثم أجابها أخيرا يا عمتي أنا أطلب منك « السرادق السحري » فقد وصفه لى بعض الاقران وجعلوني اشتاق الى تملكه وحيازته ولما علمت أنه ملك لك رقص قلبي فرحا وقلت ان عمتي لن تبخل علي انا ابن أخيها بهذه الهدية فأتيت اليك وكلي أمل بألا أرجع صفر اليدين مما كنت أمني نفسي ببلوغه فأن كان ابن أخيك عزيزا لديك فأرجو ألا تردي مطلبي ، فقطبت وجهها وتغيرت أساريرها ونظرت اليه نظرات الريبة والغضب حتى خشى أن تفتك به ولكن مافتئت أن تغيرت ملامحها وابتسمت فتنفس الصعداء كأن طودا عظيما انزاح عن صدره وطلبت منه أن يتبعها فسارت الى كهف في الجبل ملىء بعجائب الدنيا وبين حين وآخر كان يرى عظاما وجماجم منثورة هنا وهناك وقبل أن يسأل بادرته قائلة : انظر الى هذه العظام انها لجماعة من الشباب الحمقى أتوا فرادى وجماعات ليسرقوا مني هذا السرادق فكان جزاؤهم أن قطعوا اربا اربا وقدمت أوصالهم طعاما للكلاب فخفق قلبه ولكنها بقدرة قادر تركت هذا الحديث وانصرفت تلاطفه وتسأله عن أبيه فأخذ يختلق الاحاديث وهو يحاذر أن تصدر منه كلمة تورده موارد العطب الى أن وصلا الى خزانة كبيرة ففتحتها بكلمة سحرية لم يفهمها ثم مدت يدها وأخرجت السرادق وقالت : خذه هدية

مني يا ابن أخي العزيز وما ان خرجا وانتهيا من الكهف حتى تقدم اليها وطلب منها الاذن بالرحيل مخبرا اياها أنه قد أمضى وقتا طويلا في السفر ولابد أن أباه قلق عليه ولهذا يطلب منها السماح له بالعودة لتقر عين أخيها به فأجابته الى طلبه وفتحت له باب القصر فركب فرسه التي كان قد أخفاها قبل في أحد الكهوف وأخذ يقطع السهول والجبال ويطوي البيد طيا حتى وصل الشيخ الكبير الذي فرح به أشد الفرح وخفق قلبه طربا عندما علم انه ظفر بالسرادق المسحور ثم سأله الامير : ماذا يفيد هذا السرادق ؟ فطلب منه الشيخ أن يفتحه ثم ينصبه فاذا بجيش عظيم كثير العدد والعدد تهتز له الارض رعبا واذا بقواده يتقدمون من الامير وينحنون أمامه طالبين منه الامر فبهت وحار في الجواب ولكن الشيخ قال له : هذا هو جيش السرادق السحري وسيكون كل من فيه كالعبد لك يطيعك أكثر مما يطيع الجنود قائدهم وان من يملكه يمتلك الارض كلها ولا يمكن لاي ملك أن يقف أمامه وان كانت جيوشه عدد الحصى والرمل فامض به الى والدك عظيما عزيزا .

فمضى يقطع البوادي والشعاب بهذا الجحفل الجرار الذي تعنو له الملوك وتهتز لسطوته حتى الجبال الشم وقبل أن يصل الى حاضرة ملك أبيه التقى بقافلة قادمة منها فسألها عن المدينة وحالة مليكها وسكانها فزفر من سمع سؤاله زفرة كأنها لهيب النار وقالوا لقد حلت بمدينتنا أفدح المصائب اذ ان الامير الاصغر الذي كنا نرجو منه خيرا للبلاد قد مضى مع أخويه في مهمة أرسلهم لها والدهم العظيم وعاد الاخوان الاكبران ولم يعد معهما وعندما سألهما عن اخيهما أخبراه انهما لم يرياه وانه لابد أن يكون قد لاقى حتفه لانه سلك طريقا لم يسلكها أحد من قبل الا وكان الموت الزؤام في انتظاره فاظلمت الدنيا في عينيه وصعق لهذا النبأ المفزع وفارق الحياة من هول هذه الصدمة وما كاد يوارى التراب ويشيع

الى مثواه الاخير حتى أخذ الاخوان يقتتلان على الملك وكل يدعى انه أحق به من أخيه بينما المدينة مجللة بالسواد حدادا على الملك الراحل وابنه الامير الاصغر وانقسم الجنود الى فريقين يحارب بعضهم بعضا لان الوالد انتقل من هذا العالم قبل أن يبت في تعيين ولي عهد له والان يعيش الناس في حيرة وشقاء والدماء تسيل غزيرة ولا ينقذهم مما هم فيه أحد فأسرع الامير بالمسير وأخذ يحث الركاب الى أن لاحت له شرفات بلدته ومرتع صباه وقبل أن يقترب من أبوابها شعر به أهل المدينة وحراسها فارتعبوا وقالوا : هذه ثالثة الاثافي ولابد أن هذا جيش لملك مجاور يضمر العداء لنا وقد سمع بما يدور بين الاميرين من الحرب والنزاع فأتى ينتهز الفرصة لتحقيق مطامحه فاجتمع الوزراء والحكماء وأهل الرأي والشورى وقرروا أن يرسلوا اليه وفدا يستعطفه ويوصيه خيرا بالرعية التي لا تتمكن من المقاومة لان الحرب الاهلية قد انهكتهم وما كانت أشد دهشتهم عندما عاد الوفد فرحا مستبشرا مخبرا أهل المدينة ان القادم أميرهم المحبوب وأسرعوا يبشرون الجميع فردا فردا وتقدم منه القواد والحكام وبايعوه وكذلك تقدم أخواه اللذان كادا يوديان بملك أبيهما فعنفهما على تسرعهما في اخبار والده خبرا لم تتأكد صحته وحملهما تبعات المآسي التي حلت بالبلدة وحكم عليهما بالنفي وأن يعيش كل منهما في قرية نائية ليتلقيا جزاء أعمالهما وسعد الناس بحكمه العادل وأفزعت سطواته الملوك والامراء المجاورين وقدموا له الطاعة وبقي يحكم البلاد بالعدل والحكمة حتى أتاه مفرق الاحباب ومنغص اللذات فانتقل من هذه الدنيا تودعه قلوب رعاياه الكليمة ودموعهم الغزيرة وزفراتهم المتتالية . ★

(*) كم من ملك أو أمير غلب على أمره أو من رجل طموح أراد أن يملك ويحكم فخاب رجاؤه واذا به يجد نفسه في واقع مظلم يجتر فشله ويجر آلامه ويحمل رفات آماله ولكن عقله الباطن لم يرض ان يدعه في هذا الواقع البشع فشق له طريقا في عالم الحكاية واذا به يتخيل نفسه =

= يحوز على سرادق مسحور حالما ينصبه يتجمع حوله جيش عرمرم لا يقوى احد عليه واذا به ما بين غمضة عين وانتباهتها يجد نفسه منتصرا وقائدا عظيما قد حقق الامال ولكن اين ؟ والجواب انه حققها في الخيال ، فاذن يمكن أن تعد هذه الحكاية تعويضا عن الواقع المر الذى يشعر به كثير من المغامرين أو من المغلوبين أو محاولة ساذجة لتحقيق مطامح لم تسمح الحقيقة ببلوغها فحققتها الحكاية عن طريق بطل خيالي هو الامير الاصغر .

ومن ناحية اخرى نجد الحكاية هنا ترفع الامير الاصغر وتجعله بطلها بلا منازع كعادتها دائما وتجعل ظهوره في ايام حرجة بعد ان يئس الناس منه وايقنوا بهلاكه كما يتكرر ذلك في جميع الحكايات عندما يعود البطل وقد حقق الامال بينما اليأس مخيم على الجميع ، ونلاحظ ايضا في هذه الحكاية ان النصيحة توجه الى الامراء من شيخ كبير وهكذا تصدر الحكمة في جميع الحكايات دائما والرأي الصحيح عن الشيوخ المسنين لانهم خبروا الدهر وعرفوا خيره من شره والناس موقنون بهذا الرأي يقينا لا يداخله الشك أبدا أما الاعمال العظيمة التى تدل على الشجاعة والقوة فانها تصدر عن الشباب الصغيري السن ولهذا تفضل الحكاية دائما الاخ الاصغر على أخوته في خوض الغمرات واقتحام الامور العظيمة الجليلة لان الشاب الاصغر يكون مندفعا اكثر من غيره في أعظم الاحيان وقد أكد علم النفس هذه الوجهة اذ أثبت ان الولد الاصغر يوهب ذكاء أكثر بصورة عامة ، ولعل هذه الفكرة آتية للتعويض اذ ان المجتمعات القديمة كانت تخص كل شيء بالولد البكر وتحرم الاخرين ولهذا خصت الحكاية الاخ الاصغر بهذه المميزات لتعوض عن هذا الواقع ألذى يشعر لاجله ألاخوة الاخرون بالمرارة والحرمان .

١٣
الثاني عشر

كان ما كان ولله الاذعان وله الملك في كل مكان كان في قديم الزمان فارس مغوار تخافه الاقران يحكم أمارة صغيرة يعيش فيها مع رعيته في رغد وسلام يعدل بين الناس ويشجع أصحاب العمل والزراع حتى غدوا في سعادة يحسدهم عليها جيرانهم من الامارات المجاورة وقد أنعم الله عليه بأحد عشر أميرا جميعهم كملوا خلقا وبرزوا في الشجاعة والفروسية وقد نذر قائلا ان رزقت بولد آخر فسأسميه « الثاني عشر » ولم يخب الدهر ظنه فقد ولدت امرأته بعد تسعة أشهر طفلا لايدانيه أحد في جماله سماه « الثاني عشر » وقد شب هذا الامير شجاعا مقداما لا يهاب الاهوال حتى ان والده أخذ يفضله على أخوانه اذ بدا بينهم كالبدر الساطع بين نجوم السماء وقد تمكن بفضل ذكائه وقوته وحزمه أن يأخذ القيادة من اخوته الذين سلموها له طوعا وكانوا معجبين بما يتصف به من سجايا ومواهب يندر وجودها بين الناس ، ولكن الدهر لم يتركهم في غبطتهم وفرحهم اذ رمى الوالد بداء عضال لا يرجى منه شفاء وقبل أن تحين وفاته أوصى أبناءه ان يكونوا يدا واحدة ولا يتفرقوا فتذهب ريحهم وأوصاهم أيضا أن يحملوه بعد موته على ظهر جمل ويتركوه يسير حيث يشاء وهم يسيرون خلفه أياما وليالي وحيث يقف فهناك يحفرون قبره ويوارونه التراب ، ثم قضى نحبه وفارق الحياة فأسرع ابناؤه الى تنفيذ وصيته فركبوا خيولهم ووضعوا والدهم على نعش وربطوا النعش على ظهر جمل وتركوه يسير وأخذوا يسيرون خلفه فمضى يقطع البقاع ويطوي الارض وئيدا ولم يقف الا بعد مضي عشرة أيام فأناخوه وترجلوا عن خيولهم ونصبوا

خيامهم استعدادا لمراسيم دفن أبيهم في الصباح ، وفي الليل هبت ريح باردة فأرادوا نارا ولكنهم لم يجدوا أي أثر لقرية أو انسان فصعد « الثاني عشر » على رابية ونظر من بعيد فرأى بريق نار فهبط مسرعا وأسرج فرسه وامتطاه حاثا اياه على الجري فانطلق كالسهم أو كالريح العاصفة وبعد لأي أشرف على موضع النار فرأى خياما فلما قرب منها تصدى له فارس وسأله عما يريد فأخبره بغيته فرد عليه الفارس اهلا بك ايها الاخ الكريم لك ما تريد ولكننا جئنا هنا لان ملك الغيلان قد اختطف اختنا وقد حزن والدي وهو عاهل عظيم تعنو له الملوك فلم ندر ما نفعل لان خاطفها وحش مخيف لا يمكن لاحد ان يقاومه غير ان احدى الساحرات اخبرتنا ان نجاة اختنا ستكون على يد فارس مغوار وطلبت منا ان نعسكر هنا قرب حدود الملك الغول وأن ننتظر فارسا يأتي الينا طالبا نارا وأخبرتنا بصفاته فاذا بها تنطبق عليك فنحن نرجو ان تنجدنا وتسعد والدنا وتقرعينيه في آخر حياته وستكون الاميرة زوجة لك وسندين نحن وجميع الرعية لك بالطاعة فطلب منهم ان يرافقوه الى حيث يقوم بمراسيم دفن والده ويؤدي ما يجب عليه من حقوق تجاهه فانصاعوا له وفي الصباح حفروا قبرا بحد سيوفهم وانزلوا الوالد الامير في اللحد وحثوا عليه التراب وبعد ان انتهوا من المراسيم وذبحوا على قبره الضحايا أمر الثاني عشر اخوته أن يعودوا الى بلدهم وأخبرهم بما هو عازم عليه لانقاذ الاميرة السجينة ، ثم طلب من اخوتها أن ينتظروه وفي لمح البصر امتطى جواده واخذ ينهب الارض نهبا متجها نحو بلاد الغيلان حتى لاح له بعد أيام قصر منيف تناطح شرفاته السحاب فاقترب منه وربط فرسه في جذع شجرة ثم اخذ يتجه الى بابه متخفيا فراى سبعة غيلان يقومون بالحراسة وقد نام ستة منهم وبقي واحد يدير نظراته هنا وهناك لئلا يقرب عدو من قصر ملكه فاقترب منه الثاني عشر متخفيا وراء الاشجار وبعض الصخور حتى صار على مسافة قريبة فانقض عليه كالريح

العاصفة وعاجله بضربة من سيفه فصلت راسه عن جسمه ثم اسرع الى الغيلان النائمين فعاجلهم بضربات مهلكة قبل ان ينتبهوا ويتجمعوا عليه فلا يتمكن من مقابلتهم والقضاء عليهم ، وبعد ذلك دخل القصر فراى الاميرة وكانت ذات جمال لا مثيل له فأومأت اليه فوقف في مكانه فاقتربت منه وقالت انك لا تتمكن من قتله لان روحه ليست في جسمه بل هي مخبوءة في ثلاث *دودات والدودات مختفيات في قرن غزال وقد اخبرني هذا السر ظنا منه انه لا يمكن لانسي أن يلج هذا المكان فامض الى الغابة وهناك تجد أربعين غزالا وتجد من بينها غزالا اجرب تشمئز منه النفوس ولا يرضى احد باصطياده فارمه بسهمك ثم اسرع اليه واقطع راسه واكسر قرنه فستجد في داخله ثلاث دودات فخذها وتعال هنا الى القصر مسرعا وحالما تشاهده اسحقها بيديك ففعل ما أمرته به اذ ذهب الى الغابة ووجد قطيع الغزلان وبينها الغزال الاجرب فقتله واخذ الدودات الثلاث من قرنه وعاد مسرعا الى القصر ودخل غرفة الملك الغول فوجده نائما على ركبة الاميرة الحسناء وما كادت تراه حتى نهضت مسرعة ورمت راسه على الارض فاستيقظ فراى «الثاني عشر» فزمجر ونهض ليقطعه اربا اربا ولكن الفارس الشجاع عاجله فقتل الدودات الثلاث فخر ميتا كأنه جبل هوى على الارض فاسرع مع الاميرة وجمعا من القصر النفائس والمجوهرات وكل ما خف وزنه وغلا ثمنه ثم امتطى فرسه وأردفها وراءه وأسرع في الجري حتى وصل الى حيث

(*) هذه محاولة جديدة حققها الانسان عن طريق الحكاية للحفاظ على نفسه من الموت ومن الاعداء فتمنى لو تمكن من حفظ روحه في محل خارج جسمه حتى لا يتمكن اقرانه واعداؤه من قتله والقضاء عليه فنجح في ذلك عن طريق الخيال فقط اذ لا يمكن تحقيق هذه الفكرة في الواقع واختار لحفظ الروح أشياء دميمة لا تخطر على بال الانسان ولا يرضى أحد ان يقترب منها ويصطادها كالدودات الثلاث في قرن غزال وقد جعل الغزال ايضا أجرب تشمئز منه النفوس حتى لا يصطاده أحد وهي تشبه فكرة قصة شمشون الجبار الذى جعلت قوته في شعر رأسه فعندما قص شعره ذهبت قوته وصار رجلا عاديا .

اخوتها ينتظرونهما ففرحوا أشد الفرح وملأوا الدنيا هرجا وطربا وساروا به مع اختهم الى مملكة ابيهم الذى بارك الاثنين وامر بعقد قران الثانى عشر على ابنته وعمت الافراح البلاد وجميع ابناء المملكة من ادناها الى اقصاها وبعد انتهاء المراسيم طلب الامير الشجاع من حميه ملك البلاد الاذن بالسفر والعودة الى امارته لان اخوته ينتظرونه على أحر من الجمر وكذلك أبناء الامارة لانه عزيز المكانة لديهم فسمح له بالذهاب فأخذ زوجته وبدأ يقطع السهول والجبال ومعه ثلة من الحرس أرسلهم حموه لمرافقته حتى وصل حاضرة ملكه وعاصمة امارته فأرسل رسولا يخبرهم بقدومه فخرج الجميع لملاقاته وذبحت الذبائح طربا لسلامته وأقيمت البشائر والحفلات ثانية احتفالا بزواجه وعاش الامير مع عروسه الاميرة واخوته الامراء في أطيب عيشة وقضى أجمل الايام وخلف امراء لا يقلون عنه شجاعة وعن والدتهم جمالا وملأ الارض عدلا وسلاما حتى فارق هذه الدنيا التي لا يخلد فيها أحد ولو ملك رقاب الناس جميعا • (*)

(*) في هذه الحكاية تلميح الى القدر الذى يسير الانسان في فلكه الذى خط له منذ الازل فالقدر هو الذى اشار على الوالد بأن يطلب من الاخوة أن يدفن حيث تقف به الناقة التي تحمل نعشه بعد موته والقدر هو الذى يجعل الناقة تسير وتسير حتى تقف في محل بعيد يقرب من بلاد الغول والقدر هو الذى يجعل الامير الاصغر « الثانى عشر » يرى النار من بعيد ويرى أمراء مجتمعين حالما يرونه يجدون فيه منقذ أختهم من الملك الغول لان القدر هو الذى جعل الساحرة ترشدهم اليه وتخبرهم بصفاته وهكذا يعد القدر الامير للاعمال البطولية التي تكلل بزواجه من هذه الاميرة الجميلة العظيمة •

ومن ناحية اخرى نجد هنا كما في كل حكاية ان الاعمال العظيمة لا تصدر الا من أصغر الامراء وهو الذى يدعى « الثانى عشر » هنا •

كما اننا نجد تلميحا الى أمنية تمناها الانسان ولم يحققها في الواقع فحققها في الخيال اذ جعل الروح تخبأ في محل لا يدور بخلد الانسان في خارج الجسم حتى يحمي صاحبها نفسه فلا يتمكن أحد من قتله والقضاء عليه لان روحه بعيدة عنه وقد خص الغيلان والسحرة بهذه الصفة من دون الناس ولربما فعل ذلك لانه كان لا يجرؤ على مقابلتهم او محاربتهم =

= اذ يحس بالضعف تجاههم ولانهم كانوا يفوقونه قوة فاخترع هذه الحكاية عنهم ليجنب نفسه عناء التصدي لهم ومقاتلتهم من ناحية وليجد له وسيلة سهلة في محاربتهم وهى التفتيش عن المحل الذى تخبـــأ به ارواحهم ثم القضاء عليهم عن طريق معرفة هذا السر فلهذه الفكرة حدان متناقضان الاول للحفاظ على أنفس الناس والثاني للقضاء على الاعداء الاشداء الذين تفوق قوتهم قوة البشر عن طريق معرفة المخبأ الذى تخبأ فيه أرواحهم ، ولابد ان تكون هذه الفكرة مقتبسة من فكرة تناسخ الارواح التى توءمن بانتقال الروح من الانسان الى غيره من الحيوان والاشياء التي اقتبست من الهند ولا يزال أكثر سكانها يعتقدون بها اعتقادا جازما .

١٤

اللص

يحكى أنه كان في الازمان الغابرة امرأة عجوز ترملت من سنين عديدة وكان لها ولد وحيد تدلله وتشتغل الليل والنهار فتغزل وتنسج لكي تعيله حتى نشأ عاطلا ولم يترك الزمان هذه العائلة وشأنها بل أصابتها الايام بنكبة أقعدت العجوز عن العمل اذ اصيبت بالعمى فعانيا آلام الجوع والحرمان حتى تشجعت المرأة وطلبت من ولدها العزيز الذي تخشى عليه من نفحات النسيم أن يضرب في مناكب الارض ليحصل ما يسد رمقهما ويقيم أودهما فحار في أمره وسلك طريقه على غير هدى وبينما هو مختار فيما يفعل اذ تلقفته جماعة من اللصوص فوجدوه خير صاحب لهم فكان يسرق ويسرقون ويتقاسمون الغنائم ويمضي بحصته الى أمه حتى اخضر عوداهما وتحسنت معيشتهما وكان للشاب ذكاء وفطنة وقوة جعلته يتفوق في دنيا الشر حتى بذ اصحابه وصار رئيسا لهم بدون منازع يخشون من بأسه وينصاعون لاوامره وهو يدبر خطط السطو ويسير أمام رفاقه في المغامرات الكبرى متنكرا حتى ضجت منه البلاد واشتكى أمره الناس عامة للحكام وبلغت الشكوى الملك فخصص الجوائز الثمينة لمن يقبض عليه أو على عصابته وبث عيونه في المدينة دون جدوى وزاد اللص امعانا في السطو والنهب واستباحة أموال الناس وامتدت يده الى بيوت الامراء والوزراء حتى سولت له نفسه أخيرا أن يسرق خزينة الدولة رغم الحراس الاشداء الذين خصصوا لحراستها فدبر خطة لم تدر في خلد الشيطان وفي يوم من الايام استيقظ الناس على أصوات المنادي ينذر بالويل والثبور للشقي وعصابته وشاهدوا الشرط تفتش الدور والطرق شبرا شبرا دون أن تهتدي

أو تعثر على أثر لانه كان قد أعد لما يسرقه مخبأ سريا تحت الارض لايهتدي اليه أحد مهما أوتي من دهاء وفطنة وأخيرا فكر الملك بحيلة لعله يمسك بخيط يدله على الجاني فنثر في ساحة قصره الدنانير وأوقف الشرط في مخابىء بعيدة ترقب الناس لتمسك من تسول له نفسه أن يمد يده لسرقة احدى القطع الذهب هذه وأراد اللص أن يمزح فأوصى جماعة من عصابته أن يضعوا قيرا (زفتا) تحت نعالهم ثم أخذوا يسيرون في الساحة جيئة وذهابا فتلتصق الدنانير بأحذيتهم حتى جمعوا كل ما على الارض منها ولشد ما كانت دهشة الملك وأعوانه حين نظروا فلم يجدوا ولو دينارا واحدا على الارض .

وبعد أن يئس أراد أن يعالج الامور بحكمة وروية ففكر قائلا لماذا لا أستفيد من براعة هذا اللص وأعوانه في نشر الامن بين الناس ؟ فأرسل مناديا ينادي بالعفو عن المجرمين وبأعطائهم الامان اذا سلموا أنفسهم للسلطان فتقدم الجميع اليه معلنين طاعتهم وتوبتهم النصوح فهش في وجههم وأمر بتعيين رئيسهم رئيسا للشرط وبتعيين أعوانه خفراء وشرطا تحت امرته وأوصاهم بالسهر على راحة الرعية فأدوا واجبهم خير اداء وأخذت الالسنة تلهج بالثناء عليهم اذ لم يمر على تلك البلدة أو غيرها من المدن التابعة لها عهد شعر به الناس بالامن على أنفسهم وأموالهم مثل هذا العهد .

وكان للملك ملك يجاور مملكته يضمر له العداء فحين سمع ماحصل وجد في هذه الحادثة فرصة مناسبة لينتقم من غريمه وينتقص منه ومن منزلته فأرسل اليه رسالة يعيره فيها ويقول : انك تحسب نفسك ملكا عظيما تدين لك البلاد بالولاء ولكنك لم تقدر على لص مجرم ولم تكتف بذلك بل جعلته حارسا للرعية ، فجن جنون الملك من غريمه وهاج كالاسد الثائر ودعا اللص الذى عينه رئيسا لشرطه وعرض عليه الرسالة فأجابه

بهدوء دعه لي سآتيك به مقيدا على حمار أعرج في حالة مزرية لا تليق بأحط الناس ثم أعد عدته للسفر الى المملكة الاخرى بعد أن وضع في ضاحية البلدة حمارا أعرج وأوكل به أحد الشرط وطلب منه أن يبقيه عنده حتى مجيئه وما أن وصل حاضرة الملك المغرور حتى أعد خطة وعاجل هو وأصحابه حرس الملك فقيدوهم عن اخرهم ثم دخل عليه وهو لابس جبة ونعالا من حديد وحامل صولجانا من الحديد بحيث تهتز الارض من مشيته ويسمع لها أصوات ترعب أشجع النفوس وحوله أصحابه في أزياء غريبة كزبانية جهنم واضعين الوجوه المستعارة وعلى رؤوسهم عمائم طويلة مخروطية الشكل حتى وصل مخدع الملك الذى ما ان رآه حتى أخذ يرتجف ذعرا فناداه اللص قائلا قم أيها الملك الحقير لقد آن موتك وها أنا عزرائيل جئت لاقبض روحك المجرمة الدنسة لقد كنت ظالما منافقا تخدع الرعية وتسومهم العذاب فناداه الملك قائلا : أمهلني بعض الوقت لعلي أستغفر ربي فيغفر لي وأكفر عن ذنوبي فأجابه ان ذلك لا يعود لي ولكنني لعظم منزلتك سأمنحك فرصة فانهض وسر معي فنهض وهو لا يدري ما يفعل من شدة الفزع فقبض عليه وقيده وعصب عينيه ودعا أصحابه فحملوه معهم ثم ركبوا جيادهم وطاروا به الى بلادهم وقبل أن يدخلوا المدينة عرجوا الى حيث الحمار الاعرج فأنزلوه وأركبوه على الحمار وغطوا رأسه قائلين له : ستسير في أرض مقدسة فلا يجوز لك أن تنظر حواليك وأعلنت أنباء قدومه بين الناس فخرجوا لملاقاته بالصفير والضحك وهم يشاهدون السلطان العاتي المغرور يسير ممتطيا حمارا أعرج واللص يقول له هؤلاء زبانية جهنم تحمل ما يفعلونه معك حتى دخل الى البلاط فرفع الغطاء عنه فاذا به يجد نفسه وجها لوجه أمام غريمه الملك فامتقع لونه وغاض ماء وجهه وحار في أمره وهو لا يدري ماذا يفعل، ولكن الملك طمأنه ثم دعاه للجلوس الى جانبه وبعد ان هدأ روعه وزال

فزعه قال لـه : لماذا عيرتني باللص الذي جعلتـه رئيسا لشرطي ؟ أتعلـم أنه هو الذي جاء بك عندي وأنت في هذه الحالة المزرية وان من يفعـل ما فعل لا يمكن أن يقاوم بالشدة كما انني بحكمتي حولته الى طريق الخير فساعدني على اصلاح البلاد واسعاد الناس ونشر الطمأنينة والامان بينهم ، وأي شيء أفضل من ذلك ؟ فأطرق هنيهة ثم رفع رأسه وهو لا يرفـع عينيه استحياء من العـار الذي لحقه واعتذر لغريمه وانحنى عليه وأخـذ يقبله فرد عليه الملك بالمثل وقدم له الهدايا والتحف واعاده الى بلاده تحفه كوكبة من الفرسان حتى أوصلوه الى قصره فدخل مرفوع الرأس وفاجأ حاشيته الذين أقاموا الدنيا وأقعدوها في البحث عنه حتى كاد اليأس يدب الى قلوبهم ، وقد فاجأهم قبل ان يسألوه أين مضى ؟ وماذا فعل بقوله : لقـد اتفقت سـرا من دون علمكم مع ملك البلاد المجاورة على أن نلتقي في بلدة صغيرة واقعة على حدود الوطن وقد سوينا جميع مشاكلنا وأقمنـا معاهدة صداقة دائمية وكفينا رعايانا شر الحرب والنـزاع وويلاتهما ففرح أفراد رعيته وعظم في أعينهم وبقيت تلك الحادثة سرا مخفيا بين الملكـين واللص لم يعرفها أحد غيرهم وان الناس الذين صفروا له كانوا يعتقدونـه أحد الخارجين على الحكم وكذلك أخبر الحرس والشرط الذين عاونوا في القبض عليه .

وعاش الملكان في محبة ووئام طوال عمرهما وأخذ لا يضمر أحدهما للاخر الا التعظيم والاحترام وسعدت رعيتهما بحكمهما حتى دهاهـما الموت الذي لا ينجو من قبضته أحد . (*)

(*) اذا كان المجرم شجاعا فطنا فالحكاية تغفر له اجرامه وتتغاضى عن نقائصه ولا تتردد في تحويل سيئاته الى حسنات لان القـوة تغفر الذنوب والبطولة تضفى على صاحبها ثوبا من المهابة والاجـلال يغطى نقائصه ولو كان موغلا في الاجرام وهكذا يتحول اللص الى بطل ولا ينال العقاب الشديد الذى ينتظر أمثاله في حكايات اخرى والسبب هو بسيط جدا وذلك لان قانون الحياة يتغـاضى عن القوى ويسـحق الضعيف وكما =

= قال احد الحكماء « القانون شبكة لا تصيد الا الضعفاء » لان البقـــاء للاصلح والاقوى ذكاء وفطنة وجسما ويكون تطبيقه أشـد في المجتمعـات البدائية او فى عهود الفوضى ولا ينجو منه الا المجتمعات المثالية وهـذه نادرة حتى فى عصرنا الحاضر فى اعظم الامم مدنية وتقدما .

ونجد من ناحية ثانية كيف ان المجتمع يقدر اذا كان حكامه عقلاء أن يحول كثيرين من الاشرار الى عناصر نافعة يفيد من قابلياتهم وكفاءاتهم كما جعـل الملك هذا اللص وعصـــابته سندا له في نشـر الامن وتحقيـق العدالة وجعلهم مصدر خير عميم للناس ولكن هذه الحالات لا تحدث الا عندما تنتشر الفوضى ويصعب حكم البلاد من قبل حكامهـــا فلا يطبق القانون لانهم لا يتمكنون من تطبيقه فيلجأون الى استرضـــاء المجرمين والشقاوات فتهدأ الامور حينا ثم تزداد سوءا حينا آخر لان تطبيـــق القانون أمر لا مناص منه لاسعاد المجتمع ، والعفو عن اناس اوغلـوا فى الاجرام وآذوا الناس يشجع غيرهم من المجرمين ويقلل هيبة النظـــام والحكم ويغرس نفورا في قلوب الناس ويدعوهم الى الانتقاض على حكمهـم والتاريخ أكبر شاهد على ذلك .

ولعل هذه الحكاية ترمي الى فكرة هى ان الانسان بطبيعته الاصيلة يميل الى الخير ولكن الظروف قد تجره الى طرق الشـــر والاجرام كمـا جرّت بطل القصة ولهذا يعود الى طريق الهدى حينما تسنح له الفرصـة فيكون حارسا للفضيلة والعدالة والامن .

١٥

القصر المسحور

كان ما كان والله ينصر السلطان كان في غابر الازمان وسالف العصر والأوان امرأة ارملة لها ابنتان لا معيل لهن فكن يغزلن الصوف ليلا ونهارا وتمضي احدى الفتاتين بالتناوب صباحا لبيع الغزل وشراء ما يحتجنه من الطعام والشراب لسد رمقهن وكانت الفتاتان ذات جمال ساحر ولكن الفقر وضع فوق وجهيهما غشاوة حجبته عن الانظار الا من أوتي فراسة ودقة نظر ومضت الايام والسنون وهن على هذه الحالة من الحاجة والفقر لا يكدن يقمن أودهن ويسددن حاجتهن الى الطعام واللباس حتى حدث ما لم يكن بالحسبان .

ففي أحد الايام استيقظت الفتاة الصغيرة ليلا وكان دورها في بيع الغزل فرأت القمر بازغا فظنت أن النهار قد أطل بنوره المشرق فأسرعت الى غزلها وذهبت الى السوق ويالعظم دهشتها وجزعها حين رأتها مقفلة وعلمت انها بكرت كثيرا وان النهار لم يطل باشراقه على الدنيا ولم يكن أمامها من مفر الا بأن تنتحي زاوية السوق وتمكث بها وبقيت كذلك حتى الفجر فباعت ما معها وشرعت تهم بالرجوع واذا بها تسمع مناديا ينادي : من يشتري قصرا فخما يقع في الناحية الشمالية من البلدة بدون ثمن على شرط أن يسكنه ويعيش فيه وهو ملك حلال له ؟ فسألت الناس تفسيرا لما يقول ، فأجابوها : انه قصر مسحور كل من بات فيه أصبح ميتا وقدمضت السنون على هذه الحالة فان يسكنه أحد يفقد حياته في نفس الليلة ، وهنا أطرقت الفتاة المسكينة مفكرة في حالتها وحالة أختها ووالدتها وما يقاسينه من الفقر والحرمان وتخيلت وجارهن الذى يسكنه كأنه غار مظلم ضيق

فقالت : لابد ان أتفق مع الدلال لان الموت أفضل من حياتنا التي نحياها وان فرصة حصولنا على هذا القصر لا تعود مرة أخرى ولننعم ولو لليلة واحدة ثم ليحدث ما يحدث ، فاتفقت مع المنادي ورضيت بالشرط ووقعت عقد البيع وتسلمت المفاتيح ثم مضت مسرعة الى دارها مخبرة ، اختها ووالدتها بما فعلت فوافقتاها وفرحتا كأنهما متيقنتان أن الموت لا يجرؤ على التقرب منهن ، ثم أخذن يسرعن بنقل ما يملكن من أثاث زهيد الى القصر الفخم الذي يحوي أبدع الفرش وأغلى الاثاث واقترحت الفتاة أن تشتري طنبورا ومزمارا وان يقضين ليلتهن بالعزف والطرب لانها ربما تكون آخر ليلة في حياتهن كي لا يتحسرن على شيء ولما حططن الرحال ورتبن أثاثهن بدأت الام بالغزل وبدأت الفتاتان بالعزف واستمررن حتى الصباح ولما رأت الاشباح التي تسكن القصر جمال الفتاتين وطيبتهما وكيف انهما مع امهما قضين الليل بالمرح دون خوف أو مبالاة ابتعدت عنهن ورضيت بسكناهن لهذا القصر ولم تكتف بذلك بل صارت حارسة لهن وما كاد يطل الصباح حتى أسرع الجيران حاملين ثلاثة نعوش الى القصر ليحملوا الموتى الى المثوى الاخير كما اعتادوا كلما سكن القصر ساكن جديد ، واذا بهم يجابهون بالفتاتين وامهما مبتسمات ضاحكات فدهشوا لنجاتهن وهنأوهن بالسلامة وقالوا لهن : أسكن في هذا القصر هنيئا لكن ، وهكذا تغيرت عيشتهن ورحبت حياتهن وأخذن يشعرن بالسعادة ولم يدرين ما تخفي لهن الاقدار من تجارب لم تدر بخلدهن ، فقد كان هذا القصر لامير عظيم استلبه حاكم البلاد منه فقرر ان ينتقم من سالبه فقتله ليلا ولم يكتف بهذا بل قرر أن يقتل من يسكنه من بعده ، وكان هذا الامير حكيما مطلعا على أنواع الحيل فتراه في النهار طائرا جميلا يحلق في الفضاء كالشهاب الساطع ويترك قصره ثم يأتي اليه ليلا ولما سكنت الام وابنتاها فيه أتى ليذيقهن الموت الزؤام ولكنه تردد حين سمع الغناء ورنين آلات

الطرب فخف غيظه وزاد ميله اليهن عندما رآهن فرحات طلقات لايحسسن بخوف فعرف انهن طاهرات ذوات أنفس رفيعة وما كاد يلمح الفتاة الصغيرة حتى وقع في حبها وشغف بها ولكنه لم يتمكن من اظهار نفسه ولو أظهرها لما أمن من اخوته الامراء العظام الذين ربما عارضوا في زواجه من فتاة فقيرة من عامة الناس مهما أوتيت من طيبة وجمال وفطنة .

ومن ناحية اخرى لم يدر أتحبه أم لا ؟ فيما اذا أظهر نفسه لها ولهذا ترك الامر للصدف وكان هذا الامير يأتي كل ليلة فينزع جلد الطائر(*) الذي يرتديه ويتجه الى غرفة حبيبته يرنو الى جمالها وهي نائمة وقبل أن يتبين الخيط الابيض من الخيط الاسود من الفجر يقبلها قبلة رقيقة لا تشعر بها ويضع تحت وسادتها لؤلؤة ثمينة ثم يمضي مسرعا فيرتدي جلد الطائر ويطير بعيدا بعيدا الى حيث لا يدري أحد به ، ومضت الايام وكانت الفتاة كل يوم تجد لؤلؤة فتذهب الى السوق وتبيعها لصائغ يهودي بثمن باهظ ثم تعود الى البيت وبتوالي الايام انقلب فقرهن الى غنى وصرن ذوات منزلة مرموقة يطمح الى قربهن شباب المدينة وتزوجت الفتاة الكبرى من ابن الحاكم أما الصغرى فرفضت ان تتزوج أحدا لانها شعرت أن قلبها يميل الى حبيب مجهول لا تعرف كنهه وفي يوم من الايام قررت أن تعرف من يضع اللؤلؤة كل ليلة تحت وسادتها فجرحت يدها لئلا تنام وأغمضت جفنيها وهي مستيقظة فتقدم منها الامير وأخذ يرنو اليها وهي تسترق النظر اليه خلسة حتى هامت بحبه وملك عليها جوانب قلبها وتغلغل هواه في شغافها وما كاد يضع اللؤلؤة تحت وسادتها حتى نهضت وقالت له يا سيدي أنا أمة لك ، ألا تخبرني من أنت ؟ وألا تظهر نفسك وتخطبني؟ فأجابها : لا أتمكن لأن مستقري بعيد عنك كبعد شرق الارض عن مغربها

(*) هكذا كان الانسان منذ وجد يطمح الى الطيران والى قطع المسافات الطويلة مسرعا كالبرق وقد تخيل في هذه الحكاية جلد طائر يرتديه فيطير حيث يريد .

فاذا كنت تحبينني وتشتاقين الى القرب مني حقا فانتعلي حذاء من حديد واقطعي الدنيا حتى يبلى واذ ذاك ستلقينني وسأتزوجك ، ثم أسرع فغاب عن نظرها حيث لبس جلد الطائر وحلق بعيدا في الافق فأخذت تبكي وتبكي حتى استيقظت والدتها فأخبرتها القصة مع الامير الشاب وعزمها على السفر حتى آخر الدنيا لتلقى حبيبها مهما كلفها الأمر من مشقة وأهوال وأرادت أمها أن تثنيها عن عزمها دون جدوى فانتعلت حذاء من حديد وسارت تقطع السهول والجبال والصحارى والمروج ترفعها أرض وتخفضها أخرى الى أن أهزلها السرى وأمضها القلق وهي لا يقر لها قرار حتى تكتحل عيناها برؤية من شغف به قلبها وفتن لبها وما زالت في تطوافها ورحيلها حتى استيقظت في صباح أحد الايام فوجدت نفسها أمام ساحل بحر عظيم متلاطم الامواج يصب فيه نهر تنساب مياهه عذبة رقراقة فنزلت على شاطئه لتغتسل ولما عادت لتلبس حذاءها الحديد وجدته قد عراه البلى فطار لبها فرحا وأحست بقرب نيل مناها وتحقيق مآربها وبينما هي في غمرة النشوة اذا بهـا تجد ناقة تحمل جرارا تتجه نحو النهر حتى بلغت الشاطيء فاذا بالجرار تنزل فتمتليء ماء ثم تعود الى ظهر الناقة بقدرة قادر بدون ان يضعها او يرفعها احد وبعد ذلك عادت الناقة واخذت تغذ السير فتبعتها الفتاة فرأتها تدخل قصرا عظيما لـم تجد اروع واجمل منه في حياتها فدخلته هي ايضا فوجدت في وسطه ساحة رائعة الجمال فيها اربعون كرسيا فانتحت جانبا واختفت في حديقة تطل على الساحة فوق شجرة وارفة الظلال ، فلما آذنت الشمس بالمغيب غطت القصر غمامة واذا بتسعة وثلاثين طائرا تنزل ثم تسرع وتنزع جلود الطير فاذا بها تسعة وثلاثون شابا وشابة لا مثيل لهم في الحسن وانتحى الجميع زوجا زوجا واستقل كل شاب وحبيبته كرسيين متجاورين ولم يبق الا شاب واحد استقل كرسيا وبقى بجانبه كرسي آخر خال يظهر انه لحبيبته التي ابعدها عنه الدهر وما كاد يستقر في مكانه حتى صرخ قائلا : ابكي يادار عـلى

حظي التعس الذي جعلني وحيدا من بين اخوتي وجعل حبيبتي تضرب في مشارق الارض ومغاربها بحثا عني .

وبالشدة دهشته عندما رأى الدار ترد عليه بقهقهة تدل على الظفر وبضحكةعذبة فاشتد حنقهوناداها قائلا : ما لك يا دار لا تبكين وقد كنت قبلا تملأين الدنيا عويلا ونواحا علي وعلى حبيبتي كلما طلبت منك ذلك ؟ فردت عليه الدار قائلة : لقد مضى عهد النحس وأتى زمن السعادة والهناء قم فتش عن حبيبتك فهي مختفية في قصرك ، فاسرع هو واخوته وزوجاتهم يفتشون حتى وجدوا الضالة المنشودة وهو يكاد يجن فرحا ، فلما وجدها احتضنها وأوسعها لثما وتقبيلا وقال : الآن ذقت طعم السعادة .

واجريت حفلة فخمة لزواجهما حضرها الملوك والعظماء وبعد ان تمت المراسيم احضر لها جلد طائر أخذت تلبسه وتطير مثله وقضت معه أسعد الايام وأجمل الساعات فيظلال الحب الوارفة يجنيان رحيق السعادةوينظران الى الدنيا بعينين تطفحان بشرا وحبورا وبعد أن استقر بهما المقام تذكرت اهلها وتتابعت في مخيلتها الظنون السوداء عن مصير والدتها واختها من بعدها فطلبت منه أن تزورهما فذهبا فوجدا امها قد أصابها العمى من البكاء والحزن فلما دنوا منها وعرفت ما حصل لابنتها وما جنته من السعادة والفوز طربت فرحا واحتضنتهما وقبلتهما وأخذ أقرباؤهما يزورونهما وبعد أن امضيا اياما معدودات عادا الى قصرهما وكانا يزوران الوالدة والاخت بين حين واخر وهما يطفحان سعادة ويقضيان ايامهما يطيران في السماء من بلدة الى اخرى ثم يعودان الى قصرهما ويجتمعان بالامراء الاخوة وزوجاتهم ويقضي الجميع الحفلات الصاخبة تحت أضواء الشموع وقد أنجبا أطفالا كالبدور جمالا اكتملوا عقلا وحكمة(*) .

(*) هكذا الفتاة تتخيل فارسها وفارس احلامها كأنه فوق البشر شابا انيقا جميلا يقرب من صنف الملائكة حتى انه ينقلب الى طائر جميل يجعلها تطير مثله ولم تكتف بذلك بل تجعل نيله صعبا او شبه مستحيل =

= كأنه عنقاء مغرب فما تكاد تجعله يقع في حبائل حبها حتى يفر فتلبس حذاء من حديد ولا تلقاه الا بعد ان يبلى هذا الحذاء وهكذا الفتاة بل كل فتاة تنتظر فارس أحلامها على أحر من الجمر وتعد دقات الزمن وتحسب الايام سنين والسنين دهورا خوفا من ان تفوتها قافلة الحياة وهذه المعركة تدور سرا في خلد اكثر الفتيات وقد تستعجل بعضهن تحقيق هذا الحلم فتسقط من حالق ضحية تسرعها وتخسر كل شيء وتكون كمن نسف قصرا فخما بناه لبنة لبنة فاذا به أثر بعد عين وانقاض متراكمة ، وهذه الحكاية تعلمهن الصبر الذى يحقق العجائب ويبلي حتى الحديد وتأتي بالبطلة كمثل يقتدى به في الاستقامة والطهر والصبر وتحمل الاهوال في سبيل تحقيق مطمحها النبيل والظفر بحبيب قلبها الذي لا ترضى بديلا به ٠

ونجد في الحكاية الطريقة العجيبة التي ظفرت بها الفتاة بفتى احلامها فهو يحيا خلفها كالخيال ويهيم بها من غير ان تشعر به ثم يكشف السر وينكشف حبهما معا وهكذا الحالة مع كل فتاة مر بها الزمن ولم يتقدم من يطلب يدها فانها تخلق لها فارسا في مخيلتها تكسبه جميع ما تصبو اليه من مثل في خطيبها ثم تحيا سعيدة في الخيال الى اجل قد يطول وقد يقصر وقد يمتد الى نهاية العمر ٠

ومن ناحية أخرى تعطينا دليلا على ان طيبة القلب وصفاء النفس يصنعان المعجزات ويبعدان اخطر الاهوال عن صاحبهما لانهما يغرسان محبته في قلوب اشد الناس قسوة وحقدا كما حصل لهذه المرأة وابنتيها عندما رضين ان يسكن هذا القصر الضخم غير مباليات بالاشباح المخيفة التي تسكنه وتقضي على كل من يبيت فيه ولكن جمال النفس يطرد خطر هذه الاشباح ولم يكتف بذلك بل جعلها تهيم حبا بالبنت الصغرى ٠

ولا يخفى اثر القضاء والقدر مع الصدف في تسيير حياة ابطال الحكاية فالصدف هي التي دفعت القصر اليهن والقدر هو الذي اوقع الامير في حب الفتاة الصغرى وهو الذى جعلها تفوز بقربه بعد ان كادت آمالها تتهاوى كأوراق الخريف الذابلة ٠

١٦

قليل الانصاف

يحكي انه كان في سالف العصر والاوان حطاب فقير الحال لايكاد يحصل ما يسد به رمقه ورمق عائلته وكان يغدو في الصباح الباكر قبل أن تغادر الطيور وكناتها الى غابة قريبة من البلدة فيحتطب حزمتين من الحطب ويربطهما على ظهر حماره الهزيل ثم يعود الى السوق فيبيعهما بدريهمات معدودات يشتري بها ما يفثأ شدة الجوع عنه وعن زوجته وأولاده وهكذا كان دأبه طوال عدد من السنين •

وفي ذات يوم شاهد في الغابة جذع شجرة كبيرة فصمم على اجتثاثه وأخذ يعالجه بفأسه حتى تمكن من اقتلاعه من الارض ويا لشدة حيرته حين رأى تحته حفرة فدفعه الفضول الى معرفة ما في كنهها فاخذ يوسعها ويرفع التراب عنها فوجد طبقا من الصخر فرفعه فاذا به أمام قبو عميق أراد أن ينزل فيه فلم يتمكن فأتى بالحبل الذي يربط به حزم الحطب والخشب وربط احد رأسيه في جذع شجرة قريبة وامسك بالرأس الاخر وأخذ يتدلى بوساطته في القبو حتى بلغ القعر فوجد هنالك دنانا من الخزف فرفع أغطيتها فاذا بها تتوهج كأنها قطع من السماء المرصعة بالنجوم فمد يده فاذا بها مملوءة ذهبا وأحجارا كريمة ولآليء تخطف الابصار فوضع في جيوبه ما تمكن من حمله ثم صعد بوساطة الحبل وأعاد الصخرة الى محلها وأهال عليها التراب وحزم الحطب فوق حماره ومضى مسرعا الى المدينة وبعد أن باع الحطب أسرع الى زوجته فأخبرها جلية الأمر فطارت فرحا وباعا بعض ما اتى به واشتريا لهما دارا واسعة واثاثا جميلا رائعا وترك عمله وأجر له دكانا في السوق وصار تاجرا يشار اليه بالبنان •

وكان لهذا الحطاب جار من رجال الدين يقضي عمره قياما وقعودا للصلاة ويسهر الليل جاثيا مغبر الجبين من طول السجود وقد لاحظ هذا العابد الناسك الغنى السريع الذي ينعم به جاره الحطاب فوسوس له الشيطان وأتى اليه يستطلع منه الخبر لابسا ثياب الحملان والطهر ومخفيا قلب ذئب ضار يرقص الموت بين أنيابه ولم يطل به المقام اذ سرعان ما باح له جاره بسره الذي بخل به على اقرب الناس اليه ولم يكتف بهذا بل وجدها فرصة سانحة لا تعود ثانية فعرض عليه أن يمضيا سوية الى مستقر الكنز ويحملاه الى البيت حيث يقتسمانه فيما بينهما فوافق الزاهد بعد تردد على ما طلبه الحطاب جاره واظهر نفورا بادىء الامر من هذه الفكرة وهذا الطلب مدعيا ان الثروة والعبادة لايتفقان غير ان صاحبه رد عليه قائلا : انها هبة من الله ارسلها الينا ومن واجب الشكر الايرد الانسان نعمة من نعم الله ولم يطل الجدال بينهما بل اتفقا على أن يعجلا بالذهاب في الصباح الباكر من يوم الجمعة وحضرا الحمير والفؤوس كأنهما سيمضيان للاحتطاب وقطع الأخشاب وفي اليوم المقرر غادرا داريهما مسرعين الى حيث يكمن الكنز ومعه الغنى والسعادة والطمأنينة وربما الموت والشقاء وما ان وصلا حتى تقدم الزاهد طالبا النزول الى القبو فمنعه الحطاب قائلا انك رجل طاعن في السن لا تتمكن من ذلك بل دعني أنزل وانتظر أنت لتسحب الكنز بالحبال الى أن أنتهي من عملي حيث تساعدني على الخروج من القبو ، ونزل الحطاب وأخذ يعبىء الكنز ويسحبه الزاهد حتى انتهى بعد ساعات طويلة قضاها بالعمل وما أن سحبت آخر دفعة حتى ربط نفسه بالحبال وطلب من رفيقه أن يساعده على الصعود ولكن صاحبه ما كاد يسمع منه هذا الكلام حتى أسرع وقطع الحبل بسكين كان يحملها ثم دحرج الصخرة الى حيث كانت سابقا وأخذ يهيل عليها التراب ولما أحس الحطاب بقرب أجله نادى صاحبه وقال له : أرجوك أن تلبي لي طلبا واحدا وأنت تنقلني الى الدنيا الآخرة وهذا الطلب

هو ان تخبر زوجتي بان تسمي وليدها الجديد الذي سيقبل الى الدنيا بعد ايام « قليل الانصاف » ثم حال التراب بينهما .

واسرع الزاهد فحمل الحمير بالكنوز الثمينة ووضع فوقها عيدانا من الحطب ليرد عنها نظرات الفضول من الناس واسرع الى داره فاخفى ما جلبه معه ولم ينس ان يرسل ابنه الاكبر الى بيت جاره الحطاب ليخبرهم ان صاحبه اخذ حصته وسافر الى بلد اخر ليهرب من زوجته التي ترك محراث الزمان آثاره الواضحة في وجهها فأفقدها جمالها وسحرها ولم تجد معه توسلاته حتى انه فارقه غاضبا واتخذ من وصية الحطاب دليلا على خيانته لابنائه ولزوجه التي شاركته في الضراء وأبى ان تشاركه في السراء وقال لولده وقل لهم انه امعانا منه في الاثم والعقوق أوصاني أن أخبركم بتسمية المولود الجديد الذي سيطل قريبا على هذه الدنيا « قليل الانصاف » وأرى الاصلح ان تسموه هذه التسمية ليتذكر والده الذي خانه وخان والدته واخوانه ولم ينس أن يرسل معه بعض النفائس التي جلبها كمساعدة منه لهم بعدما تركهم معيلهم ، وقد حارت امرأة الحطاب في هذا الخبر ولكنها صدقته ولم يساورها الشك وكيف تشك في هذا الزاهد الذي يشكو تراب الارض من طول سجوده ومرت الايام وولدت طفلا أسمته «قليل الانصاف» ليذكرها بما فعله والده كما أوصاها جارها الناسك الزاهد الذي كان لايكف عن رعايتها مع أطفالها وبقيت منتظرة شهرا وشهرين وسنة وسنتين وأكثر عودة زوجها ولكن من سمع بعودة ميت الى الحياة ؟

ومرت السنون وكبر الطفل وكان يخرج الى الحارة ويلعب مع اولاد المحلة والجيران وفي احد الايام تأخر عن العودة الى البيت فخرجت أمه واخته تناديانه من باب الدار وصادف مرور الحاكم متخفيا في ذلك الحين فسمعهما تناديان الوليد « قليل الانصاف » فتعجب من هذا الاسم وتقرب من الام ، قائلا : يا أخت ان هذا الاسم غريب ولا بد انه يخفي

وراءه سرا فهلا أخبرتني لماذا سمي به ؟ فردت عليه الام قائلة أسميته بهذا الاسم لاتذكر فعلة والده النكراء الذي تركني لما ابتسم الدهر له ومضى الى بلدة اخرى ليعاشر غيري ولم يكتف بما فعل بل أوصى نكاية في الوقيعة ان أسمي الوليد الذي لم يطل على الدنيا بعد بهذا الاسم فنفذت رغبته لتظل ذكرى خيانته ماثلة أمامي ، فأخذ يداورها في الحديث حتى باحت له بقصة الكنز وكيف ذهب زوجها مع جارهم الناسك وكيف عاد الناسك ومضى زوجها الى حيث لا تدري ولم يعد حتى الان وقد أوصاها الناسك أن تسمي وليدها الجديد حين يولد « قليل الانصاف » ليكون ذكرى لما فعله والده تجاه امه حيث تركها وارتحل بعد أن تحملت ما تحملت من الشقاء في عهود الفقر الطويلة التي قضياها معا ولتنفذ بنفس الوقت وصية والده التي نصت ان يسمى ولده بهذا الاسم بالذات فشك الحاكم عند سماعه لهذا النبأ بالقصة وتصور ان في المسألة جريمة اختفت عنه ومضى مسرعا الى المحكمة وأوصى الشرط باستدعاء رجل الدين فلما مثل بين يديه سأله عن قصة الكنز فانكر علمه بذلك ولكن الحاكم داهمه بالحقائق التي استقاها من امرأة الحطاب فاسكته وجعله يرتبك واخذت الوان وجهه تتغير ومحياه يمتقع وفرائصه ترتعد فلما وجده في هذه الحالة من الارتباك بادره قائلا : وأين صاحبك الحطاب ؟ فرد عليه لقد سافر ولم يعد وهو يتلعثم في جوابه فطلب منه الحاكم أن يدله على موقع الكنز وبعد أن حاول تضليله بقوله انه نسي مكانه لطول العهد به ولا يتمكن من معرفته وان صاحبه الحطاب هو الذي يعرف موقعه فقط ، وبعد أن حاول ذلك استجاب لطلبه حين أمر بجلده حتى الموت ان لم ينفذ ما أمر به ورضي بان يدله على ما اراد قائلا لنفسه : ان الحطاب قد بلي جسمه ولا يمكن أن تكون رفاته شاهدا عليه وسيدعي انها رفات حيوان او انسان اخر حاول ان يستخرج الكنز قبلهما فلقي حتفه . فسار الحاكم مع ثلة من الشرط يحيط به أتباعه حتى وصلوا الى مستقر الكنز فأمر بالحفر حتى ظهرت الصخرة فرفعوها ثم طلب

من أحد الشرط أن ينزل في القبو العميق وما كاد يستقر حتى صرخ قائلا يا سيدي هنا رفات انسان فطلب منه أن يأتي بما تبقى من ثيابه واذا وجد قطعة من المعدن أو خاتما أو أزرارا فليأت بها فوجد خاتما وبعض الازرار وسكينا صغيرة فأخذها ثم صعد وسلمها للحاكم الذي أسرع الى المدينة بعد ان أمر بسجن رجل الدين ووضع الاغلال في يديه ورجليه ثم دعا امرأة الحطاب وأراها ما وجد في القبو واصفر وجهها وقالت هذه الادوات تعود لزوجي فاخبرها بجلية الامر ثم دعا الناسك فاعترف بجريمته بعد ان داهمه بالحقائق الدامغة وأمر بشنقه ومصادرة أمواله وجعله عبرة لمن اعتبر ، وعاشت امرأة الحطاب بعد ذلك في سعادة وهناء وأخذت تذكر زوجها الراحل بالخير وتستمطر شآبيب الرحمة على روحه في كل حين وتلعن جارها الخائن الذي لبس ثياب الحملان وتزيّا بزي الزهد والنسك وأخفى افظع قلب مليء جريمة ووحشية(*)

(*) هكذا في الحكاية لابد أن ينال جزاءه كل مجرم ولا يمكن ان ينجو من مصيره المحتوم لان القدر يقف له بالمرصاد ولان مدبر الكون لا يغفل عنه كما وقف القضاء لهذا الناسك اذ لم يجده مظهره الزائف الذي يدل على الورع والتقوى لان الزمان اظهر زيفه وجعله ينال عقابه العادل الذي ينتظر أمثاله من الخونة المجرمين ، كما نجد في هذه الحكاية أثر الصدف في جلب الغنى للحطاب وزميله الناسك وكم من فقير معدم قضى عمره وهو يمني نفسه بان يجد في باطن الارض كنزا ينال عن طريقه الغنى والسعادة والرفاهية ولكن احلامه كانت تضحك منه وتعبث به وكان هو يعقبها دون جدوى وهذه الفكرة كانت ولا تزال حتى الان في عصر النور والعلم تراود كثيرين من الجهلاء أو الكسالى لينسوا بها واقعهم المر وليتخيلوا حياة رحبة تطفح بالغنى والمال فترفعهم بين ذويهم ومجتمعهم وترجع الى اخفاء كثيرين من الاغنياء كنوزهم تحت الارض خوفا من اللصوص او من ذوي السلطان أو من مصادرة اموالهم ان شعر الحكام بغناهم .

كما نجد فيها طعنا لبعض رجال الدين الذين يتخذون العبادة والنسك واجهة لاصطياد الناس وحبك جرائمهم الفظيعة وسلب أموال الاخرين بل أرواحهم أيضا اذا اقتضت الحاجة ذلك وفي هذا تحذير للناس لكي يكونوا على بصيرة من أمرهم حتى لا تغرهم المظاهر الخداعة الكاذبة ولا يثقوا بأحد مهما كان الا بعد تجربته والتأكد من صفاء باطنه وسمو اخلاقه .

١٧
الخيارات الثلاث

كان ما كان وعلى الله التكلان والنصر للسلطان كان في بلد من البلدان ملك عظيم الشان يدين له الانس والجان وتخشاه حتى صروف الحدثان ولكن الزمان لم يدعه في أبهته وعظمته ودولته المنيعة الاطراف يسعد ويعلو بل رماه بما ينغص عيشه ويبعد عن الهناء والطمأنينة نفسه اذ جعل امرأته عاقرا مرت سنون عديدة على زواجهما ولم ترزق بأمير يخلف أباه في ولاية البلاد أو أميرة يزدان بها قصره ويشرق مجلسه وقد طوفا في البلدان وقصدا أحكم الكهان ليتضرعا للالهة لعلّها تشفق عليهما وتحقق مطلبهما وقد نذرت الام ان رزقت بأمير ان تجري في بلادها ساقيتين تفيض الاولى عسلا والثانية دهنا حالما يبلغ ولدها أشده ويقف موقف الرجال قوة وذكاء وأشفقت السماء عليهما ورقت لدعائهما واستجابت لطلباتهما وبعد تسعة أشهر ولدت الملكة أميرا جميلا ظهرت مخائل الشجاعة والفطنة عليه منذ صغره وأخذ يكتمل عقلا وحكمة ويزداد قوة وشجاعة يوما بعد يوم حتى صار زينة للمملكة ودرة ثمينة في تاج أبيه ولكن والدته نسيت أن تفي بنذرها وكاد هذا النسيان يوقعها في داهية أمر من العقم وأن يستلب منها وحيدها لولا رقة الاقدار التي أرسلت الى الامير في الحلم شبحا يقول له اطلب من والدتك أن تفي بنذرها والا مت واختطفتك من بين ظهراني اهلك حيث لا تجدي الجيوش ولا الحراس الأشداء وشاءت الصدف أن ينسى إخبار والده وألا يعبأ بانذار هذا الشبح الذي تراءى له لانه نشأ في بلاط أبيه مغرورا لا يبالي بشيء ولا يابه لاحد اذ يأمر فيسرع اليه الجميع بالسمع والطاعة ، وتكرر الحلم دون جدوى وفي المرة الثالثة أتاه الشبح غاضبا فهزه هزة عنيفة كادت تفقده

رشده وأخذ يصرخ على أثرها فأسرع والده ووالدته اليه فأخبرهما الخبر وهنا تذكرت الملكة نذرها وندمت على غفلتها التي كادت تقوض بيتها وأسرعت في اعداد العدة فأجرت في المدينة ساقيتين تفيضان عسلا ودهنا وتقدم الناس واغترفوا منهما وملأوا الاواني حتى نضبتا وفي المساء أقبلت عجوز شمطاء وأخذت تجمع بيديها ما تبقى من آثار العسل والدهن وتملأ جرتها فرآها الامير وأغرته نفسه بمداعبتها وايذائها فصوب سهمه نحو جرتها وكسرها وهنا التفتت العجوز حانقة مذعورة ورنت اليه بنظرات تكاد تلتهمه غضبا ثم صرخت بصوت مسحور قائلة له : أدعو لك أن تهيم بفتيات الخيارات الثلاث وبتأثير سحرها أخذ قلبه يخفق شوقا ووقع في حب هؤلاء الفتيات دون أن يراهن وأسرع الى العجوز ممسكا بتلابيبها مهددا اياها بالويل ان لم تخبره بحقيقة قصتها فندمت على ما بدر منها وأخذت تلوم نفسها قائلة ماذا صنعت وماذا ستكون عاقبة الامير العظيم ؟ لقد جعلته يتشوف الى أمر لم يسع اليه أحد الا ولاقى حتفه ولكنها لم تتمكن أن تسكت تجاه تهديداته ووعيده وخشيت على نفسها فأخبرته ان هذه الخيارات الثلاث يحوين ثلاث فتيات من أجمل ما خلق الله قد أودعهن ساحرٌ فيهن ووضعهن في وسط غابة مخيفة وحشد لحراستهن الوحوش المفترسة فلا يتمكن أحد من نيلهن فاذا أردت بلوغهن فسوف تسير شهورا حتى تصل الى مفترق طريقين الاول طريق الظلام والثاني طريق السلام فسر فيه حتى تصل الغابة ثم تركته في حيرته وانسابت هاربة من أمامه لئلا يعلم بسرها أحد ويبطش بها .

ما إن سمع الامير النبأ حتى فار دمه الملكي في جسمه طالبا اقتحام الاهوال ومقارعة الشدائد ومضى الى أبويه وأخبرهما بعزمه الذي لا يثنيه عنه حتى القدر فأذعنا لمشيئته وجهزاه تجهيزا يليق به ثم ودعاه بالدعوات والعبرات فأخذ يطوي البلاد ويقطع حزونها ووهادها ويهيم في آفاقها وهو لا يبصر الا امنيته التي أوجب على نفسه تحقيقها وجعلها كالنجم تهديه

طريقه وتدله على الجهة التي يقصدها مسترشدا بما أخبرته به العجوز وغيرها عن المسالك التي يسلكها حتى بلغ به المطاف بعد شهور من الطواف الى مفترق طريقين لا يعلم الى أين يؤديان به فوقف حائرا يائسا وبينما هو في غمرة ذهوله مر به شيخ قد عرك الزمان وخبر صروف الحدثان فاستبشر الامير به وتقدم منه ضارعا متوسلا أن يدله على الطريق التي يسلكها ليصل الى غابة الخيارات الثلاث فبهت الشيخ عند سماعه لهذا النبأ واعتراه الوجوم حزنا على هذا الشاب الذي يلوح النبل في مخائله والشجاعة والكرم في شمائله وأخذ يتوسل اليه أن يكف عن بغيته ويعود راجعا الى بلدته لتقر به عيناوالديه ولكن توسلاته لم تجد اذنا صاغية لانه كان قد صمم على أن يفوز بأمنيته أو يتجرع كأس منيته ، وهنا انتحى به الشيخ جانبا وقال له : الآن وقد رأيت العزم على ما تريد يلوح في مخائل وجهك ولا يمكن لأحد ردك عن مطمحك فاسمع كلامي يا بني : امض من هذه الطريق طريق السلام وبعد مسيرة اسبوع ستظهر امامك في الافق البعيد غابة متكاثفة الاشجار فاسرع اليها ولا تدخلها الا في الصباح قبل طلوع الشمس واليك هذا الخاتم ضعه في اصبعك وحالما تصل أول شجرة في الغابة افركه بيدك فترى أمامك فرسا سريعة فاترك فرسك وانتقل اليها ثم اقطع بها الغابة مسرعا دون أن تنظر الى ما وراءك أو أمامك ولا تجزع لصيحات الوحوش وعواء الذئاب لانها لا تتمكن أن تلحق بك وأنت على هذه النجيبة المسحورة حتى تصل الى شجرة عظيمة كأنها غمامة في كبد السماء تظلل الارض وتنشر في أرجائها الخصب وترى حوالي الشجرة اسودا متوحشة تتوقد نظراتها نيرانا محرقة وبجانبها ترى كباشا لها قرون كالرماح وترى أمام الاسود عشبا وأمام الكباش لحما فانزل من فرسك واسرع بنقل اللحم من الكباش الى الاسود والعشب من الاسود الى الكباش ثم اقفز الى جانب الشجرة فترى الخيارات الثلاث فاقطفها واسرع قبل أن تلتهم الوحوش

طعامها لانها ان فعلت ذلك ستمزقك ارباً ارباً ثم امتط فرسك وان رميت نفسك على ظهرها فاعلم أنك نجوت ولو تبعتك الرعود والرياح لانهـــا ستطير بك مسرعة الى حيث تريد .

بعدما سمع الامير هذه النصائح من الشيخ الحكيم ووضع الخاتم في اصبعه شـكر له فضله ثم امتطى فرسه وودعـه الى حيث أرشـده فسار في طريق(*) السلام وأخذ يطوي الارض طيا وبعد مواصلة السير سبعة أيام لاحت له الغابة المرجوة كأنها بحر أخضر تتكسر أمواجه على عتبات السهول المحيطة به فانتظر حتى الصباح ثم أسرع قبل أن تفارق الطيور أوكارها حتى وصل حدود الغـــابة فترجل عن فرسه وفرك الخاتم فاذا بفرس كريمة لم يجد شبيها لها في حياته في جمالها وقوتهـــا وذكائها فامتطاها مسـرعا ودوي أصوات الوحوش يضرب في اذنيـه حتى كاد يفقـد السيطرة على نفسه من هول ما رأى وما سمع ولكن الفرس كانت تواصل به الجري الى ان وجد نفسه في منتصف الغابة قرب الشجرة العظيمة ورأى صفين من الاسود والكباش أمامه تحرس الخيارات الثلاث المسحورات فارتدت اليه جرأته ونزل عن فرسه واخذ العشب من امام الاسود ووضعه امام الكباش

ثم حمـل اللحم من امام الكباش ووضعه امـام الاسـود فجعلهن يلتهمن الطعـــام غافلات عنـه ثم أسـرع في قفزات ســريعة الى حيث الخيارات الثلاث فاقتطفهن ووضعهن في صدره فوق حزامه واسرع عائدا وما كاد يلمس فرسه حتى وجد الكباش والاسود قد أنهين طعامهن وأسرعن اليه ليلتهمنه ويمزقنه شر ممزق ولكنه لم يتوان بل قفز قفزة فوق ظهرها فاسرعت به منطلقة كالبرق حتى ترك الغابة ثم بعد ذلك اخذ يواصـــل سفره عائدا الى اهله لتقر به اعين والديه وهو يحمل ما سعى اليه وخاطر بحياته في سبيله .

(*) ان الحكاية هنا تسمى الشيء بضده فتسمي طريق المخاطر (طريق السلام) بينما في أكثر الاحيان تسميه على حقيقته (طريق الصد بلا رد) .

وفي اثناء سيره اشتاقت نفسه الى فتح احدى الخيارات وبالشدة دهشته حين برزت امامه حورية تخجل الشمس من حسنها وسنائها ولكنها ما كادت تستقر واقفة أمامه حتى أخذت تصرخ طالبة منه ماء ولما لم يتمكن أن يقدم لها ما تريد سقطت على الارض فاقدة الحياة فنظر اليها أسفا وكانت تبدو كأنها تمثال ابدعته يد مثال صناع ولم تجده حسراته في رد روحها اليها التي فارقتها دون رجعة ومضى كاسف البال حائرا في أمره ولم تتمكن هذه التجربة القاسية من كبح جماح شوقه الى فتح الثانية ممنيا نفسه أن يجعلها رفيقة له في سفره الطويل وقد شجعه على ذلك ان وجد قليلا من الماء ولكنه ما كاد يفتحها وما كادت الفتاة تخرج منها وتصيح ماء حتى قدم لها عدة جرعات غير ان عطشها كان شديدا لا كما تخيل فافرغ في فيها جميع ما كان يحمله من ماء دون جدوى اذ لم تجد هذه الجرعات الصغيرة معها وفارقت الحياة كسابقتها وهنا صمم الا يفتح الثالثة الا قرب ساقية أو نهر كي لايفقدها ويرجع صفر اليدين بعد ان كـــاد يضحي بحياته في سبيلهن .

وبعد ايام طويلة لاحت له ضواحي بلدته الجميلة في الافق البعيد ولاح له النهر الذي يبعث في بلاده الخصب والنماء كانه افعى هائلة تتلوى على الارض لا أول لها ولا آخر فأسرع الى ضفته وفتح الخيارة الثالثة فبرزت منها فتاة يضيء الحسن في وجهها ويخجل الغصن من قدها ويتمنى القلب ان يثب من بين الجوانح لينعم بالنظر اليها فحملها الى الماء حيث أخذت تعب منه وهي تزداد جمالا وبهاء كلما روت غليلها الى أن اكتفت فعادت الى جانبه فأخذ يشبعها قبلا ويشكر الاقدار التي ارسلتها اليه وقد هام في هواها كما هامت في هواه وتغلغل الحب في شغاف قلبيهما وملك عليهما جوارحهما وقدم لها خاتماً ملكيا دليلا على ارتباطهما وكانت الفتاة ناعمة وطلب منها ان تنتظره مختفية وراء جذع شجرة مطلة على النهر ثم اسرع

الى قصر والده وهو قاب قوسين أو أدنى منه ليخبر ابويه بالكنز الذي عاد به وليأتي بمحفة تقلها الى القصر بين الوصائف والاماء .

وبعد غياب الامير بمدة وجيزة قدمت امة سوداء تحمل طفل سيدها ووقفت أمام الشاطيء ونظرت الى النهر فرأت خيال الفتاة الحسناء التي كانت واقفة وراءها مختفية بين الاغصان فظنت انه خيالها وتراءى لها ان الأقدار حولتها الى حورية فائقة الجمال فاهتزت طربا حتى أصابتها نوبة من الجنون كادت على أثرها تلقي الطفل في الماء ففزعت الفتاة لما رأت وصرخت عليها محذرة اياها من مغبة عملها وهنا التفتت الأمة السوداء ورأت هذه الحورية الجميلة وشاهدت آمالها تتساقط ذاوية فدب الحقد في قلبها وفكرت في مكيدة توقع فيها غريمتها فاسرعت اليها وطلبت منها ان تعيرها ثيابها ولما مانعت اجبرتها على نزعها فلبستها ثم اعطتها ما كانت تلبسه وهنا خيل لها ان هذه الثياب ستكسبها الجمال وبعد ذلك رمت الحسناء مع الطفل في النهر وأخذت مكانها بين الاغصان منتظرة ما كانت تنتظره غريمتها ولكن الفتاة حالما سقطت في النهر تحولت الى حمامة طارت في السماء وأخذت تراقب الأمة وابن السلطان عن كثب تنتظر الفرصة التي يبتسم لها فيها القدر .

وبعد مدة قصيرة رجع الامير ومعه بعض أفراد حاشية أبيه وجماعة من الاماء والعبيد واشار اليهم ان يحملوا فتاته الحسناء الى بلاط أبيه في الجناح الخاص به ويا لشدة دهشته حين رآها قد تحولت الى أمة سوداء قبيحة تنفر منها النفس فاقترب منها سائلا عما جرى لها وهو لا يعلم حقيقة الامر فأجابته ان حرارة الشمس والجوع قد غيرا جمالها وجعلاها في هذه الصورة ولابد ان تعود الى ما كانت عليه بعد ان تسترجع قواها وتستريح وتنعم بقرب حبيبها فسكت على مضض ولما وصلت المنزل الفخم المعد لها حاول اخفاءها حتى عن اقرب الناس اليه لئلا يهزأوا به ويقولوا

له : ألأجل هذه تغربت وتحملت الاهوال ؟ وتزوجها مرغما وولدت له ثلاثة أبناء لا يختلفون عن أمهم قبحا .

أما فتاة الخيارة التي تحولت الى حمامة فكانت تأتي يوميا الى قصر الملك وتحط في المطبخ وتكلم الطباخ وتقول لـه : أسيدك مستيقظ أم نعسان ؟ فيجيبها : انه نعسان ويعـاشر الاماء السود من النسوان ، فترد حزينة باكية : اذرفا يا عيني الدموع من لؤلؤ ومرجان ، ثم تتساقط من أجفانهـا حبات نفيسة من أجود ما عرفـه الانسان من اللآلىء والمرجان فينشغل الطباخ بجمعها وعدها وحفظها وينسى الطعام ويتركه بدون ملح وكثيرا ما كان يحترق وهو لا يشعر به فيوبخه الامير على اهماله وهو يعجب من امره لانه يعده طباخا ماهرا لا يباريه احد وبعدما طال الأمر ونفد صبره دعاه اليه وسأله عن حقيقة امره وطلب منه ان يصدقه الخبر فقص عليه قصة الحمامة وفي اليوم الثاني قبض الامير على الحمامة ووضعها في قفص من ذهب لتزينه وتبث فيه روح المرح والسعادة والجمال ، ولكن الزوجة السوداء غارت منها وشعرت انها غريمتها الاولى تزيت بزي حمامه وأتت لتقضي عليهـا وتقوض صرح سعادتها وصـادف ان مرض ولدها الاكبر فذهبت الى الطبيب ووضعت في جيبه هدية ثمينة ورجت منه أن يخبر زوجها ان دواءه الوحيد هو اطعامه هذه الحمامة فوافق على ذبحها على مضض وهو حزين كئيب لانه الفها وكان مولعا بها أشد الولع ولكن ما كادت الحمامة تذبح ويسيل دمها على الارض حتى نبتت شجرة كبيرة تحولت روحها اليها وأخذت هذه الشجرة تزهو في باحة الدار وتزداد خضرة وجمالا يوما بعد يوم وكلما كبرت وعلت أغصانها كبر هم الامة السوداء زوجة الامير المزيفة وضاق صدرها بها لأن قلبها الوضيع الأثيـم كان يخبرها ان غريمتها تحولت الى هذه الشجرة وهي لاتكف عنها حتى تقضي عليها فطلبت من زوجها ان يسمح لها بصنع كراس لغرفتهـا من

جذع هذه الشجرة فتردد اولا ولكنها ما زالت تلح عليه حتى وافق فدعت نجارا وطلبت منه أن يقتلع الشجرة ويصنع منها كراسي وفي اثناء نشرها انقلبت النشارة الى دجاجة جميلة لم ير مثلها ابدا والتجأت الى كوخ تسكنه عجوز شمطاء وكانت تبيض كل يوم بيضة كبيرة فحرصت عليها حرصا شديدا وكانت المرأة العجوز تخرج كل يوم الى عملها وتترك كوخها قذرا وتعود في المساء فتراه رائعا في ترتيبه ونظافته فتعجبت وارادت ان تعرف من الذي يقوم لها بهذه الخدمة ؟ ففي احد الايام اختفت في احدى زوايا الكوخ ويا لشدة دهشتها حين رأت الدجاجة تنقلب الى فتاة حسناء لا مثيل لها في جمالها ثم تأخذ في ترتيب الكوخ وتنظيفه وبعد ان انتهت وكادت تعود الى وضعها وتتخفى في جسم دجاجة اظهرت العجوز لها نفسها وقالت : لا تخافي يا عزيزتي فاني لا أمسك بسوء وسأحافظ عليك بكل طاقتي وجهدي فقصي علي قصتك واصدقيني الخبر وسأقدم اليك ما تحتاجينه من المساعدة لانني صرت بمثابة والدتك وانت الآن ابنتي التي أعتز بها وأشعر بعطف شديد اليها ، فقصت الفتاة قصتها مع الأمير وما لاقته على يد الامة السوداء التي اخذت ولاتزال تطاردها لتتخلص منها ثم طلبت منها ان تمضي الى الامير وتقدم له خاتما كان قد اعطاه اياها على ضفة النهر قبل ان يتركها وهو خاتم ملكي فمضت العجوز الى مقره وطلبت من حاجبه ان يطلب منه السماح بدخولها لانها تحمل نبأ مهما فوافق الامير وهنا تقدمت العجوز وقدمت الخاتم وقالت له : أتذكر ايها الامير لمن قدمته ؟ فاحتار في امره وهنا ذكرته بجلية الامر ، ثم قصت عليه قصة فتاتها من اولها الى اخرها وما كادت تنتهي منها حتى طلب منها ان ترافقه الى كوخها مسرعة حيث مضى ووجد فتاته المنشودة وهي في أبهى جمال وأروع فتنة فاحتضنها وقبلها وسار بها الى قصره وحالما وطئت رجلاه القصر أمر بقتل الامة السوداء واولادها الثلاثة واعلنت البشائر

في البلاد وتزوج الامير والاميرة الحسناء التي كانت تزهو بها مملكته وتفخر بحسنها وصفاتها العالية وعاش الاثنان في سعادة ونعيم ورزقا أطفالا وهبوا جمالا رائعا وقوة خارقة وذكاء نادرا حتى أتاهم منغص اللذات ومفرق الأحباب(*) .

(*) في هذه الحكاية اشارة صريحة الى تناسخ الارواح تلك العقيدة الهندية ، فالفتاة الجميلة تخرج من خيارة ثم بعد محاولة القضاء عليها من قبل غريمتها تتحول الى حمامة وفي المحاولة الثانية تتحول الى شجرة وفي الثالثة تتحول الى دجاجة ومن هذه الحالة الاخيرة ترجع الى حالتها الاصلية فتاة حسناء لا مثيل لها في سحرها وجمالها وهذه الصور المتتابعة عن تناسخ الارواح فيها توحي لنا انها ربما أخذت من مصدر هندي أو أثرت فكرة تناسخ الارواح في واضعها الاصلي ، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى اذا انكرنا انها متأثرة بالحكايات الهندية أو مقتبسة منها يمكن ان نرجعها الى مصدر آخر عميق في طبيعة الانسان وهو محاولة انقاذ نفسه أو غيره ومقاومة الفناء عن طريق الخيال والتغلب على شبحه الفظيع المخيف للتسلط على الجميع بتخيله ان كل فرد بعد ان يموت لا يكون موته الا ظاهرا لان روحه خالدة تنتقل من جسم الى آخر ولهذا فهي تنتقل من صورة الى اخرى كما تشاء له الاقدار . وفي هذه الحكاية نلاحظ النتيجة الحتمية التي تتردد في جميع الحكايات وهي ان الحق لابد أن يأخذ مجراه وان الظالم لابد أن يلقى مصيره المحتوم ولابد للمظلوم أن يسترجع حقه المهضوم وهكذا تنتصر بطلة القصة وتحظى ببطلها المنشود وهذا دليل على ان الواقع خلاف ذلك فان هذا النصر لا يكون الا في الخيال وفي افكار معظم الناس الطيبين ، ولكننا نجد فيها من طرف آخر حقدا فظيعا تطبق فيه القاعدة الواردة في التوراة وهي « الاباء يأكلون الحصرم والابناء يضرسون » فلا تكتفي الحكاية بعقاب الامة السوداء بالموت بل تجعل هذا العقاب الصارم يشمل اولادها الثلاثة الذين لا ذنب لهم والافظع من هذا ان يصدر الحكم من والدهم الذى انجبهم فيحكم عليهم بالموت جميعا وهذا في منتهى القسوة ولا يغرس المثل الانسانية الرفيعة التي يجب الا تتعدى في عقابها الابرياء لمجرد جرم اقترفه ابوهم أو أمهم كما اننا نلاحظ فيها تمييزا عنصريا حيث يجعل القبح نصيب الامة السوداء والجمال نصيب الفتاة البيضاء الاخرى بينما لا يشترط في السوداء أن تكون قبيحة رغم سوادها وربما كانت جميلة والحكاية تتكلم عنها باحتقار ولابد ان تكون هذه النظرة شائعة في المجتمع وهي التي حدت بالقاص ان يجعل نصيب اولادها الهلاك كأنهم داء يجب على المجتمع ان =

١٨

النصيب

كان ماكان والله ينصر السلطان كان لاحدى البلدان ملك عظيم الشان يدين له الثقلان وتعنو امام هيبته الشجعان حتى نشر ملكه في البلاد وأحاط نفسه بجنود يقفون كالطود الشامخ للدفاع عن عزته ولقهر أعدائه وكان لهذا الملك وزير من الحكماء قد عرك الدهر وتبحر في العلم وعرف خفايا الامور حتى استوى ساحرا عظيما يتكشف له الغيب واسرار الحياة وكان الملك والوزير يقومان بين حين واخر بتفقد رعيتهما ويجولان في المناطق النائية الفقيرة ليطلعا على حاجة شعبهم وليقدما المساعدة لمن يحتاج اليها فرأيا من بعيد كوخا صغيرا فسارا حتى اقتربا منه فدخلا فيه فشاهدا رجلا قاعدا على كرسي قديم وضع يده على وجهه كأنه ينتظر شيئا جعله متلهفا حزينا ، فسلما عليه وطلبا منه السماح لهما باستضافته فوافق وبعد لحظات سمعا صراخ طفل أطل حديثا على الدنيا ثم خرجت امرأة من احدى حجرات الكوخ فبشرت الرجل بمولوده الجديد وهنا التفت الوزير وأسر في اذن الملك قائلا : ان هذا المولود سيتزوج ابنتك التي ولدت قبل ليلة في مثل هذه الساعة وسيكون لك صهرا تعتز به ، وما كاد الملك يسمع هذا النبأ حتى جن جنونه اذ كيف تبيح الاقدار لمولود حقير من السوقة وعامة الشعب أن يتزوج ابنة ملك

= يتخلص منهم ولو كانت امهم جميلة وغير سوداء لتغاضى عنهم وربما نظر اليهم نظرة اجلال واعظام .

وفي الحكاية كما في غيرها نجد سعي الانسان وبخاصة في عهد الشباب الى شريكة لحياته يلاقي في سبيلها الاهوال ويسترخص الموت وهكذا يفعل الحب لكي يجمع بين قلبين ويبقى النوع عن هذه الطريقة والمثل الاعلى الذي ينشده بطل الحكاية هو الجمال المثالي بالدرجة الاولى .

تدين له الدنيا ومن فيها ولم يدع لعواطفه ان تنمادى دون جدوى بل انثنى الى التفكير في حيلة لينجو من هذا المصير الرهيب الذي حكم به الدهر عليه وعلى المولودة التي جاء بها الى الدنيا لتمزج دماءه الزرقاء الملكية المقدسة بدماء ادنى الطبقات واوضعها ولم يلبث ان اضاءت فكرة في دماغه الذي اثقله الهم فالتفت الى صاحب الكوخ هاشا باشا ورجا منه بخبث ودهاء ان يبيعه مولوده الجديد ليتبناه اذ ان الدهر بخل عليه بمولود ذكر وسيعطيه مقابل ذلك ما يشاء من المال فاعتز الوالد بهذا العرض وباع ابنه بالأصفر الرنان الذي رفع منزلته الى مرتبة الاغنياء ، ثم اخذ الملك المولود وسار به هو ووزيره حتى وصلا شاطيء نهر فاخرج خنجرا وطعن الطفل بصدره ولكن الطعنة لم تصبه الا بخدش جانبي لأنه كان يرتدي ثيابا كثيرة خوفا عليه من البرد فمنعت هذه الثياب الخنجر وحرفت حده عن قصده ثم رماه في النهر وحالما رماه تلقفته المياه المتدفقة من تيار شديد قذف به الى الشاطيء وهناك لحظته غزالة مات خشفها فحملته الى موضع أمين وأخذت ترضعه وتعتني به حيث وجدت فيه بديلا عن وليدها الذي اختطفه الموت واخذ الطفل ينمو ويقوى والملك ساه لايدور في خلده ولو بالخيال انه حي يرزق بل كان يهزأ من القدر ويعجب من الناس الذين يعتقدون ان حكمه لا يقهر ومضت السنون سراعا وكبر الطفل حتى صار عمره سبع سنين وتعلم العدو حتى كان يسابق الغزلان التي يحيا معها واستأنست به الوحوش والخيول البرية التي كان يمتطيها فتطوي به الارض طيا وفي احد الايام أراد الملك وحاشيته ان يخرجوا للصيد فقصدوا تلك المنطقة وصادفوا امه الغزالة فرموها بسهم سقطت على اثره جريحا وبالشدة دهشتهم عندما رأوا طفلا صغيرا يجري اليها ويضمها اليه وهو يبكي ويصرخ ويتوعد من أوقع بها ولو تمكن لاهلك كل من كان سببا في هلاكها فاحاطه القوم وقبضوا عليه ومال اليه الملك فاصطحبه معه الى

مقر ملكه وتركه يعيش مع جنوده حتى نشأ جنديا شجاعا ماهرا فقربه منه وجعله أحد قواده الذين يعتمد عليهم في الشدائد وكان يزداد قوة وذكاء فاعجب به وامتد الاعجاب حتى شمل اكثر الناس والحاشية المقربة منه وصادف ان لمحته الاميرة فمالت اليه ومال اليها ولم يلبث هذا الميل ان انقلب الى حب عارم لا يبقي ولا يذر تحمله الجندي الشجاع ولكن الاميرة لم تتمكن منه وأخذت تهزل يوما بعد يوم ويعلو الشحوب وجهها ولا تقدر أن تبوح بما في صدرها خوفا من والدها الذي سيقلب الدنيا رأسا على عقب اذا علم ان ابنته احبت رجلا لايعرف اصله رجلا من عامة الناس وان اوتي شجاعة فائقة وحكمة لا يتوصل اليها أحد وأخلاقا رفيعة لا يتصف بها الا القلائل من الناس وكان والدها يؤمل ان يزوجها من امير عظيم يشد ازره ويرفع من هيبته بين الملوك لا ان تجعله اضحوكة بين أعدائه وبعد مدة وقعت طريح الفراش فجزع العاهل العظيم لما أصاب فلذة كبده وأحضر لها أمهر الاطباء وكانوا يخرجون بعد فحصها حائرين لا يعرفون موقع الداء حتى أعيا الجميع أمرها ويئس الملك من ابنته وسلم امره للمقادير لعل أعجوبة من السماء تعيدها الى قواها وتدفع غائلة الموت عنها .

وبينما هو في غمرة الذهول والحيرة اذا بوزيره يقترب منه ويقول له : لقد اخبرتك قبل نيف وعشرين سنة ان ذلك المولود المغمور سيتزوج ابنتك فلم تصدقني بل اشتريته من أهله ورميته في الماء بعد ان طعنته طعنة مميتة والآن جئت لاخبرك ما أوحى به الي الغيب وهو ان ذلك الطفل الذي تحتقره يعيش مكرما محترما بين ظهرانيك وقد اسندت اليه قيادة احدى فرق جنودك وسيتزوج ابنتك عن قريب فانتفض الملك مرتعبا غاضبا وهو يقول : ماذا تتكلم ايها العجوز لعلك فقدت رشدك ألم تعلم ان ذلك الطفل المنحوس لاقى حتفه في اليوم الذي ولد فيه ؟ فقهقه الوزير قائلا : ادع قائدك الذي عثرت عليه صغيرا في الغابة حيث كان يعيش مع وحوش

الفلاة والغزلان ثم قربته منك معجبا بشجاعته وفطنته حتى صار اقرب القواد وأعظمهم في عينيك ، ادعه اليك واطلب منه ان ينزع درعه بحجة اختبار معدنها وسترى اثار طعنتك باقية في صدره فلم يتوان الملك بل دعاه اليه حالا وطلب منه ما اشار به الوزير وبالشدة دهشته عندما رأى آثار طعنته ثم اخذ يسأله عن نشأته منذ صغره فلم يدر ما يجيب بل ذكرله ما كان يعلمه من انه وجد نفسه يعيش في الغابة مع غزالة تحنو عليه كأمه وبقي كذلك حتى أسعفه الحظ بلقيا ملكه الحبيب الذي يتفانى في سبيله وفي سبيل الذود عنه وعن مملكته ، وبعد انصرافه قال الوزير : انه يهيم حبا بأميرتك المحبوبة وهي تهيم به حبا وقد ملك الهوى قلبيهما وان مرضها سببه الحب العارم الذي ملك عليها جوانحها وان زواجهما قريب ولن تقف دونه محاولاتك وان سمو اخلاق تابعك جعله لا يظهر أي بادرة تنم عن هيامه بالاميرة أو تستدعي الشك في ذلك وبنفس الوقت لم تظهر الاميرة أي اشارة تكشف عما تكنه جوانحها ولهذا فحبهما مخفي حتى عن نفسيهما اذ لا يعلم أحد ما يخفيه الآخر من شوق مستعر بين الضلوع .

فاطرق الملك هنيهة ثم أجاب سأتاكد من صدق قولك ثم افكر في خطة احبط بها ما يدبره القدر لي ولو أدى ذلك الى هلاك ابنتي الوحيدة التي استأثرت بحبي وعطفي ثم دعا ذلك القائد الذي اختاره القدر للقيام بدور البطل في هذه القصة وامره بان يقوم بحراسة ابنته ورعايتها وما أشد اعجابه عندما وجد صحة ابنته تتحسن ويتراقص النور في عينيها وأساريرها حتى لم يعد للشك في صحة ما رواه الوزير أي محل وللتأكيد اختفى مرة في غرفة مجاورة لغرفة ابنته ووجدها تتبادل مع حارسها الحب والهيام وتعيش حياة تتخللها احلام الهوى المجنحة الساحرة فأخذ يقرع أسنانه حقدا وغيظا ودعا طبيبه الخاص وأوحى

اليه ان الاجدر بابنته لكي تستكمل صحتها ان تنتقل الى بلدة اخرى تتصف بجمالها الطبيعي ومناخها المعتدل فما أن سمع الطبيب هذا الرأي حتى بادر مؤكدا صحته وراجيا من جلالته أن ينفذه حالا ولم يتأخر اجلك العظيم بل دعا قائده المكلف بحراسة ابنته وطلب منه أن يستعد للرحيل مع الاميرة لكي تستكمل صحتها وأوصاه بها خيرا وطلب منه السهر على صحتها ثم اعطاه رسالة مختومة واوصاه ان يسلمها لوالي المدينة المتجه اليها حال وصوله ، وفي صباح اليوم التالي تأهب موكب الاميرة للسفر تحوطه مفرزة من الحراس الاشداء برعاية أشجع القواد وأذكاهم الذي كلفه الملك بحراسة ابنته والسهر عليها وسار ميمما تلك المدينة الجميلة وكان القائد محتفظا بالرسالة التي طلب منه الملك تقديمها للوالي ولم يدر مادون فيها وبعد مسيرة عدة ايام بينما هو نائم في خيمته في الصباح الباكر اذ استيقظ على صوت هديل حمامتين تنادي احداهما الاخرى وتقول هل تدرين ماذا كتب الملك في الرسالة التي يحملها هذا القائد ؟ فردت الثانية قائلة أعتقد انه كتب توصية بابنته وربما ولى قائده امارة تلك المدينة ، فتبسمت الاولى واجابتها مشفقة وهي تقول : انه طلب في هذه الرسالة أن يقتل القائد وابنته حال وصولهما ويدفنا في محل خفي لايعلم احد به ثم يشاع في البلدة ان اعباء السفر اثرت في الاميرة فقضت نحبها وبعد وفاتها انتحر القائد لانه وجد نفسه مسؤولا عن هذه الفاجعة اذ لم يدعها تنال من الراحة ما يحفظ صحتها ويدفع خطر الموت بعيدا عنها .

فأخذت الثانية تردد ألحان الحزن وتقول ولكن ماذا نفعل لننقذهما ؟ فأجابت الاولى : المسألة بسيطة فعن قريب سيصل الركب الى جبل عال تنبع منه عين ماء غزيرة فليمض القائد الى هناك ولياخذ معه الاميرة وليغسلا يديهما ووجهيهما وليخرج الرسالة ويضعها على صخرة

تطل على هذه العين المقدسة وهنا سيرسل القدر من يحور كتابتها كما يريد وستكون طلبا من العاهل العظيم الى واليه بان يزوج الاميرة من القائد حال تسلمه الرسالة، وفعل ما سمعه من الحمامتين واذا بقدرة قادر تتغير الرسالة الى ما ذكرته الحمامة وتنبأت به وحين بلغ الركب المدينة قدم القائد الرسالة الملكية لحاكمها فاذا به يهش بوجهه ويقول له أشكر نجمك السعيد الذي بلغك أقصى ما يتمناه الانسان فالعاهل العظيم يأمر بتزويجك حالا من كريمته وان تقام الافراح والحفلات اسبوعا كاملا في المدينة ويوزع الطعام على الفقراء والمساكين فلم يدر بماذا يرد عليه بل وقف حائرا لا يصدق ما يسمع ويتخيل نفسه أمام أضغاث أحلام لا أمام واقع راسخ كالصخر ثم دعا الوالي الاميرة وطلب رأيها فاجابته بأنها لا تمانع ولا يمكن أن تعصي أمر والدها ثم اقيمت الافراح وتم عقد قرانهما وبعد ان امضيا ما يزيد عن الشهر وهما في غمرة السعادة والطمأنينة تذكرت الاميرة والدها واشتاقت اليه فطلبت من زوجها ان يعود الى حاضرة الملك فعادا في موكب رائع بهت له الملك حتى وصلا بلاطه فتقدما اليه وانحنيا أمام عرشه وأخذ يقبلان يديه ويرددان الشكر لما فعله تجاههما فبهت مما رأى وسمع وأرسل الى والي المدينة رسولا يطلب منه ان يعيد اليه رسالته التي ارسلها مع صهره فاعيدت اليه ، وما اشد دهشته وحيرته عندما وجد انها رسالته بعينها وانها مكتوبة بخطه دون تحريف او تحوير وما اعظم عجبه حين رأى ما كتب فيها وقد تغير فاذا طلب مستعجل بعقد قران ابنته على هذا القائد ، وهنا عاد اليه رشده فاذعن للقدر وقال الخير فيما اختاره لي وعلم ان ما يريده الزمان لايتمكن من تغييره الانسان ولو كان عاهلا عظيما تدين له الدنيا ومن فيها ، وعاش الجميع في هناء واطمئنان يزيدون كل يوم قوة ورفعة وقد رزقت الاميرة بامراء واميرات كانوا كازهار الربيع حسنا وبهاء واخذوا

يرتشفون من رحيق السعادة ويتساقون كؤوس المجد والعزة حتى أتاهم منغص اللذات ومفرق الاحباب وسالب الارواح من الاجساد ومحول سعادة الناس الى شقاء ونحس (*)

(*) هذه الحكاية تؤكد عقيدة راسخة في عقول معظم الناس بل كلهم ما عدا افرادا قليلين وبخاصة في الازمان الغابرة وهي أن الانسان منذ ان يولد يكون مسيرا بحكم القضاء والقدر ولا ينال الا ما كتب له من خير أو شر ولا يمكن لاي قوة في العالم ان تغير هذا المكتوب مهما بذلت في ذلك من محاولات وجهود وهكذا نجد ما كتبه القدر لهذا الملك يتحقق ويتزوج رجل من عامة الناس ابنته الاميرة العظيمة وتختلط دماؤه الملكية بدم هذا الشاب الذى كان زواجه ضربة هزت الملك وكادت تفقده رشده اذ لا يمكن لاميرة أن تهون الى درجة عظيمة بحيث تحب رجلا من العامة مهما بلغ من الذكاء والشجاعة وبخاصة في زمن كان الناس يعتقدون فيه ان الملوك آلهة أو انصاف آلهة وعندما زالت هذه العقيدة صاروا يعتقدونهم اوصياء الله في أرضه ولهذا كانوا ينظرون اليهم نظرة قداسة واعظام وفي ضوء هذه العقيدة الراسخة في المجتمع القديم كانت هذه النتيجة ضربة قاصمة لعزة الملك يصعب تحملها اما بالنسبة لعصرنا فلا تعطى لها أهمية كبيرة لان الناس اخذوا يعتقدون أن الجميع سواسية .

ولكن الضربة في هذه الحكاية مهما عظمت واشتدت تتلاشى امام الضربة الفظيعة التي كتبها القدر في قصة (الملك اوديب) اليونانية اذ حكم على هذا الملك البائس ان يقتل اباه ويتزوج امه وقد حاول والده ان يمحو المقدور عليه وامر بقتل ابنه الرضيع ولكن القدر وقف له بالمرصاد حتى طبق ما كتبه حرفيا .

وهكذا نجد الناس في جميع الشعوب تؤمن بالقدر ايمانا مطلقا وتحذر منه ولكن هذا الايمان أخذ يقل تدريجيا في عصورنا الحاضرة بعد انتشار الثقافة بين الشعوب واخذ بعض الناس يحاولون ان يبنوا مستقبلهم بايديهم غير مبالين بما يقال عن اثر الاقدار بل نرى كثيرين منهم يبتسم استخفافا حينما يسمع اشارة من متكلم تؤكد تلك العقيدة .

ونجد من ناحية أخرى الحمامة تنبه بطل القصة الى ما يخبأ له وترشده الى طريقة تنجيه وتغير ما يضمر له لكي تساعد القدر في تطبيق حكمه ولا تقتصر هذه الصورة على هذه الحكاية فقط بل تظهر الحمامة في كثير من القصص العامية لمن وقع في مأزق صعب أو لمن خبأ له اعداؤه دسيسة تودي به فترشده الى طريقة تنقذه مما وقع أو سيقع فيه وتجعل النجاح حليفا له .

١٩

التفاحة المسحورة

كان ماكان والله ينصر السلطان كان لاحدى البلدان ملك عظيم الشان تدين له الرعية بالخضوع والاذعان وفي يوم من الايام طرأ له خاطر أراد فيه أن يختبر رعاياه ويرى مقدار امتثالهم لأوامره ونواهيه فارسل مناديا في المدينة ينادي أهلها ويأمرهم بألا يضيئوا نارا في الليل لان المملكة في حرب ضروس مع البلاد المجاورة ويخشى دخول الجواسيس والاعداء اليها وامتثل الناس لما أمر وكانت المدينة تتحول بعد غروب الشمس الى قطعة مظلمة لا يلوح فيها ولو وميض ضعيف ولكن في أحد أطرافها كانت تعيش فتيات ثلاث في كوخ صغير وكن يعتمدن على غزل الصوف ونسجه في اعالتهن فلما اصدر السلطان أمره لم يتمكن من تطبيقه لانهن لو فعلن ذلك لمتن جوعا فأوقدن في زاوية من غرفة داخلية شمعة وكن يسهرن بجانبها لينجزن عملهن حتى منتصف الليل غير ان عين السلطان التي لا تغفل تمكنت أن تفطن اليهن فقد خرج في ليلة هو ووزيره ورأى من بعد وميضا ضعيفا فاتجه نحوه حتى صار بمحاذاة الكوخ فسمع البنات يتحدثن وكان حديثهن عن السلطان فوقف يسترق السمع ، فاذا بالبنت الكبرى تقول : اذا تزوجني السلطان فسأنسج له سرادقا كبيرا واسعا بحيث يؤوي جيوشه فلما انتهت اجابت الوسطى لو تزوجني الملك صنعت له قدرا وطبخت له فيها رزا يشبع أفراد عسكره جميعهم ثم عقبت الصغرى بقولها : لو تزوجني الملك فسألد له اميرين واميرة لكل منهم ضفيرتان احداهما من الذهب والاخرى من الفضة ثم سكتن عن الكلام وهنا تقدم الملك وأومأ الى وزيره أن ينصرفا .

وفي اليوم الثاني استدعى الفتيات الثلاث وطلب منهن ان يعدن ماكن يتحدثن به ليلة البارحة فتلعثمن من الخوف ولكنه شجعهن ولاطفهن فذكرن له أحاديثهن وبعد أن انتهين طلب الزواج من الفتاة الكبرى وطلب منها ان تنفذ وعدها ولكنها لم تتمكن فطلقها وهكذا فعل مع الثانية فلم تحقق ما وعدت به فطلقها ثم تزوج الفتاة الصغرى وأحبها وأبقى اختيها ترافقانها وبعد تسعة اشهر ولدت ابنين توأمين يزهوان جمالا وسحرا وفي رأس كل منهما ضفيرتان احداهما من الذهب والاخرى من الفضة فحالما وجدت اختاها المولودين دبت في قلبهما نيران الحسد وارادتا الايقاع باختهما التي ارتفعت منزلة ونافستهما حتى غلبتهما وملكت قلب الملك العظيم فأخفتا الطفلين وأتتا عوضهما بجروين قبيحين وقدمتاهما للملك الذي لم يصدق ما رآه لانه كان يحبها حبا عظيما ملك عليه جوانحه واجاب سأنتظر المولود القادم لاتأكد من صحة دعواكما ، أما الطفلان فقد وضعتاهما في سلة ورمتاها في النهر فانسابت بهما حتى وصلت الى قرب كوخ يسكنه حارس شيخ مع زوجه العاقر فحالما رأى الطفلين أشرقت الدنيا في وجهه وأقبل بهما الى زوجته يبشرها بما أرسلته الاقدار اليهما رفقا بشيخوختهما ولتنير الظلمة الدامسة التي ملأت حياتهما بهذين المولودين اللذين سيملآنها نعيما وهناء ويزرعان السعادة في قلبين عاشا محرومين طوال حياتهما ، وبعد عام أتاها المخاض وولدت فتاة لم تر الشمس مثلها جمالا وفتنة وكان في رأسها ضفيرتان واحدة من ذهب والاخرى من فضة وقد تمازجت الوانهما فحين رأت الاختان هذه المولودة اسرعتا بأخفائها ووضعتاها في سلة كما فعلتا سابقا مع اخويها ورمتاها في النهر وشاءت الصدف أن يلمحها الشيخ نفسه فأسرع اليها فوجد فيها الطفلة فحملها الى زوجته وضمها الى أخويها السابقين وأخذ يعتني بتربيتهم دون ان يعلم شيئا عن حقيقتهم ، ولما أتى الملك وجد جروا

بجانب زوجته ادعت اختاها أنها ولدته فلم يبق في صدره مجال للصبر بل أسرع وطردها من قصره فمضت ذليلة حزينة وعاشت في كوخ وضيع يقع في ضاحية منعزلة وعادت الى حالتها السابقة حيث تغزل الصوف وتنسجه وتبيعه متنكرة نهارا • ومضت السنون تتلو السنين فاذا بالاميرين والاميرة يزدادون يوما بعد يوم قوة وذكاء وجمالا حتى أعجب بهم كل من رآهم وهم لا يدرون ان الدماء الملكية الزرقاء تسري في عروقهم وقد سحروا الناس باخلاقهم الرفيعة وشجاعتهم النادرة واسراعهم الى عمل الخير ومساعدة الضعفاء حتى ضربت بهم الأمثال وأخذ الناس ينظرون اليهم نظرة اجلال واعظام •

أما الملك فقد قضى تلك المدة حائرا لايعرف للسعادة طعما لان قلبه يخفق شوقا الى زوجته التي طردها ولا يتمكن من اعادتها لان الخديعة التي دبرتها اختاها جعلته ينظر الى ما حصل كأنه حقيقة مجسمة تظهر لكل ذي بصيرة وتجلب الخزي والعار له وبخاصة ان ألسن الرعية كانت تردد ماشاع عن المواليد الثلاثة التي ولدتهم امرأة ساحرة خدعت الملك ولكنه طردها شر طردة فذهبت الى حيث لا يعلم أحد مصيرها •

ولكن الاقدار لم تقف مكتوفة الايدي تجاه هذه الحوادث المضللة وهذا الظلم الذي انصب على الفتاة الطهور المسكينة من قبل زوجها المخدوع بتأثير الحبائل التي حاكت اختاها خيوطها الشائكة ، ففي يوم من الايام اصيب الملك المحبوب بداء عضال اعيا نطس الاطباء فوقفوا حائرين تجاهه وهو ينخر في جسمه ويضويه حتى سمع بذلك شيخ عجوز قد خبر الدهر وعركه فتقدم منه وأشار عليه قائلا : ان دواءه الوحيد هو التفاحة المسحورة التي تعيد الشباب الى كل من يأكل منها ولكن بلوغها صعب اذ دونه الموت الزؤام فقد حاول كثير من المغامرين الوصول اليها ولكنهم انقلبوا بسحر ساحر الى تماثيل قبيحة من الصخور مبعثرة حول

الحديقة التي تشمخ فيها فوق شجرتها الخالدة .

وبعد ان سمع الملك هذا النبأ أمر المنادي ان ينادي بأن كل من يتمكن من الاتيان بهذه التفاحة للملك فسينال اعظم المناصب وسيتولى الملك من بعده لانه لم يرزق بأطفال بعد ولديه وابنته الذين رموا في النهر وتعهد الحارس الشيخ بهم وتبناهم وهم لايعلمون أبا غيره .

فسمع الاميران والاميرة بهذا النبأ وثارت النخوة والشهامة في نفوسهم فتقدم الابن الاكبر من ابيه وقال له : سأمضي لاحضار التفاحة المسحورة التي تعيد الشباب ليشفى بها ملك البلاد وسأدع هذا السيف عندك فاذا لاح في طرائقه الصدأ فاعلم وليعلم أخي واختي أنني في عداد الاموات فأقيموا المآتم عن روحي ثم امتطى فرسه وأخذ يقطع الحزون والسهول والبوادي الفسيحة اياما وليالي متواصلة لايقر له فيها قرار حتى اشرف على مفترق طرق فرأى فوق رابية كوخا يسكنه شيخ عجوز فسأله عن الطريق المؤدي الى التفاحة فارشده اليه ثم اخبره قائلا : اذا وصلت حدود البستان فسوف تسمع أصواتا مخيفة وصراخا يصم الآذان ويرعب أشجع الشجعان فاياك اياك أن تلتفت الى الوراء لانك ان فعلت ذلك هلكت حالا وانقلبت الى صخرة وستجد في طريقك اناسا لا يحصيهم العد قد تحولوا الى حجارة لاحياة فيها واذا فشلت هذه الاصوات في استدراجك لكي تلتفت الى الوراء فستحاول الاشباح غرز ابر او أشواك في ظهرك فلا تهتم بها لانها لا خطر فيها بل غايتها تحويل نظرك الى مصدرها حيث يتلقفك الموت وتقذف في خضم العدم .

فسار الامير الشاب وحالما وصل بستان التفاحة المسحورة أسرع الى شجرتها العالية غير مبال بتلك الاصوات المتلاحقة ولكنه وهو في طريقه سمع صوتا نائيا عذبا يناديه قائلا : انا روح والدتك أتيت مسرعة اليك فانظر اليّ لكي أنعم بطلعتك البهية وأحملك دعائي وبركاتي فاهتز لهذا

الصوت وأصابته رعدة من شدة الحنان والتفت وسرعان ما تحول الى حجارة تبدو تمثالا كئيبا للفشل يبعث الحزن في نفس كل من يراه وحالا علا الصدأ السيف المودع عند والده فحزن أشد الحزن وأراد أن يقيم المآتم والمناحات ولكن أخاه تقدم قائلا : دع ذلك حتى أمضي واحقق ماسعى اليه أخي وعند عودتي سنؤدي له مايستحقه ونلبس السواد حزنا وأعطى والده خنجرا وقال له : اذا علاه الصدأ فاعلم أنني قد لحقت بأخي وانتقلت الى عالم الاموات ثم ودع أبويه واخته وأخذ يطوي الارض طيا وبعد زمن طويل قضاه حليف السفر يسير نهارا ويسري ليلا التقى بالشيخ فأشار عليه بما أشار على أخيه من قبل فسار وكله عزم على ألا يتمكن أي سحر أو قوة من أن تجعله يلتفت الى الوراء ويتحول الى صخرة ويلتحق بمن سبقه من الناس وفعلا صمد وأخذ يقترب من الشجرة حتى صار قاب قوسين أو أدنى منها ولم تجد معه كل الحيل التي جربتها الاشباح ولا الاصوات المخيفة والصرخات المفزعة وبينما هو في نشوة من الفرح لقرب بلوغ امنيته اذا به يشعر بألم شديد في ظهره وبأبر واشواك تغرز فيه فاعترته هزة عظيمة من الرعب فقد بتأثيرها اتزانه ونسي ارشاد الشيخ الوقور فالتفت ليرى مصدرها شاهرا سيفه ليدافع عن نفسه فاذا به ينقلب الى تمثال من الحجارة الجامدة كما حصل لاخيه من قبل ولكثيرين لا يحصيهم العد وهكذا علا الصدأ الخنجر فعلم والده بما حدث وانفطر قلبه حزنا على ولديه وأراد أن يقيم المآتم ويعلن الحداد ولكن الاخت تقدمت منه وقالت له : دع ذلك حتى أمضي وأحقق ما سعى اليه أخواي وبعد عودتي نقوم بواجبهما ولعلني اتمكن من انقاذهما وبعث الحياة فيهما بعد حصولي على التفاحة وقدمت له ابرة وقالت له اذا صدئت فاعلم أني قد لحقت بهما الى غير رجعة ولا مناص من حكم القدر .

ثم ودعت اباها وعشيرتها ومضت تقطع البلاد وتنتقل من مدينة الى

أخرى كأنها موكلة بفضاء الله تذرعه حتى مرت بالشيخ فسمعت تعليماته وفهمتها ووطدت نفسها لكل حادثة متوقعة وسارت قدما بعزم كالحديد وقلب لا يهتز لاي هول ولا يلين أمام أشد الصدمات وأفظعها فلم يجد معها الخوف ولم تجد معها أحابيل الاشباح ولا الآلام التي وجهتها اليها وهي تقترب من الشجرة بل أخذت تسير وتسير حتى بلغت سؤلها وقطعت التفاحة ووضعتها في جيبها ثم عادت من حيث أتت ويا لشدة دهشتها حين رأت التماثيل تدب فيها الحياة وترجع كما كانت ومرت بأخويها فحملتهما على فرسها واخذت تقطع دروب البستان المسحورة وهنا سمعت التفاحة تخاطبها فأنصتت اليها فاذا بها تقول : اسمعي أيتها الفتاة الشجاعة الذكية الطهور ان الشيخ الذي أرشدك يجب أن ينال قطعة مني قبل أي انسان وبعده والدتك ووالدك فمالت بطريقها اليه فلما رآها استبشر وهنأها بسلامتها وسلامة أخويها وبنجاحها الباهر ثم قدمت له قطعة منها فأخذها وهو في أحر الشوق اليها ويا لعظيم دهشتها اذ انقلب في لحظة الى شاب في ريعان الصبا يشرق ماء الشباب في وجهه ويقطر غضارة ونضارة ويفيض قوة وجمالا ، وبعد ذلك أخذت تقطع طريقها عائدة الى بلدتها مع أخويها وهم في غمرة السعادة والهناء وقبل أن تصل أرسلت اخاها الاكبر ليبشر الملك والرعية بنجاحها وجلبها التفاحة التي تعيد الشباب والصحة لعاهلهم المحبوب فخرج الجميع لاستقبالها وتحامل الملك على نفسه وقد وجد دافعا أعاد اليه القوة لقرب نيله الشفاء التام فحمل على فرسه لملاقاتها اكراما لها ولكن حالما تقدمت منه صرخت التفاحة قائلة لا يجوز ان ينال مني احد شيئا قبل والدتك فخذي العاهل العظيم وامضي معه الى الناحية الجنوبية من المدينة حيث تجدين كوخا حقيرا تسكنه امرأة في منتصف العمر تغزل وتعيش من عرق جبينها فقدمي لها قطعة مني فهي والدتك ووالدة اخويك ، فتعجبت الفتاة وقالت أليس

الحارس العجوز والدي وامرأته والدتي ؟ فردت عليها قائلة ليسا والديك بل انت ابنة ملك وفي عروقك وعروق اخويك تجري الدماء الزرقاء وهذا الذي ركبتم الشدائد أنت وأخواك هو والـدك وقد طرد والدتك لحيلة دبرتها اختاها اللتان أرادتا القضاء عليـك وعلى أخويك فرمياكم في النهر فالتقفكم هذا الحارس الذي رباكم وأحسن رعايتكم وقدمتا لابيك جـزاء وقالتا له هذا ماولدته زوجك التي سحرتك ولكنها كذبت في وعدها فلم تلد لك امراء شعرهم نصفه من ذهب ونصفه الاخر من فضة ، فتعجب الملك والحاشية مما سمعوا واسرع الجميع الى كوخ الوالدة فاطعمت قطعة من التفاحة فاذا بها تعود كما كانت شابة آيـة في الحسن يتحير في أديم وجهها ماء الشباب فخفضت وجهها حياء أمام زوجها وسيدها وقد اطلعت على ما حدث وعلى الحقيقة التي غابت عنها واتبعها الملك فأكل قطعة اخرى أعـادته الى عنفوان الصبا شابا يطفح حيوية ويفيض قوة وجمالا فمال اليها وعانقها واعتذر لها عما بدر منه خطأ وأمر باستدعاء اختيها وأراد الحكم عليهما بالاعدام وجعلهما عبرة لمن اعتبر ولكن الاخت تدخلت وطلبت منه العفو عنهما فأمر بابعادهما عن المدينة ولم ينس ان يرسل من يستدعي الشيخ وزوجه وأمر باسكانهما في بلاطـه وجعلهما مشرفين على حدائقـه ورياضه ثم عاد الجميع الى القصور الملكية في موكب عظيم يتقدمه العاهل الاعظم وزوجته ووراءهما الاميران والاميرة واعلنت البشائر في المدينـة واسندت ولاية العهد الى الابن الاكبر وعاش الجميع في سعادة وهنـاء ونعمت المدينة بالامن والعدل(*)

(*) تعالج هذه الحكاية مشكلة استعصت على الانسان لا تقل اهمية عن الفناء وهي مشكلة الشيخوخـة وضياع الشباب وازاء هـذا الحـكم القاسي من الزمان عليه الذى لم يتمكن من دفعه رغم محاولاته المتعددة فقد توصل أخيرا الى الحل المقصود عن طريق الحكاية حيث تغلب عـلى خيبته ويأسه بوساطتها فاخترع دواء او تفاحة تعيد الشباب بجماله ورونقـه وقوته وتحقق الحلم الذى داعب الانسان منذ وجوده ولكن هل يجدي ذلك =

= شيئا امام الواقع ؟

ومن ناحية ثانية تعالج هذه الحكاية مشكلة أخرى وهي معرفة ما يحل بمن يبتعدون عن اهلهم ووطنهم اذ اخترع القاص هنا سيفا او ما شابهه يعطي لاهل الراحل فاذا بقي على رونقه فصاحبه بخير وان علاه الصدأ فمعنى ذلك ان صاحبه انتقل الى دنيا الفناء وهكذا حلت المشكلة عن طريق الخيال ٠

كما تطرقت الى ناحية مهمة تطغى على اخلاق كثير من الناس وهي الحسد الذي يحيل الانسان الى وحش يوقع باقرب الناس اليه كما أوقع ببطلة القصة من قبل اختيها ولـم ينس القاص ان يجعـل العـدل ديدنه فترجع بطلة القصة المظلومة الى زوجها المليك ويرجع لهـا اولادها الذين ولدتهم ولم يكتف بذلك بل يعيد الى الاثنين الشباب لتنعما به ثانية عوضا عن شبابهما الاول الذى ضاع في الصدود والاحزان والحرمان وهكذا تنتهي الحوادث باحقاق الحق فتلقى المرأة الشريفة الصادقة العاقبة الحسنة ويلقى المجرم العقاب فتنفى اختاها عن البلاد بعد أن تنقذهما من الحكم عليهما بالموت لانها لم ترض ان تقابل الاساءة بمثلها ٠

٢٠

اللغـز

كان ما كان وعلى الله التكلان كان في احدى البلدان تاجر عظيـم الشان يملك الكنوز الثمينة ويعج قصره بالعبيد وتسير قوافله في أقاصي الارض محملة بالبضائع النفيسة وكان لهـذا التاجر الثري تابع يدعى « زيرك » تربى عنده صغيرا ورأى فيه مخايل تدل على النبل والذكاء والشجاعة فأولاه ثقته وقربه حتى أباح له التصرف في أمواله وكثيرا ما كان يرسله في قافلة محملة باغلى البضائع ليتاجر في الاقطار النائية ثم يعود بالارباح الوفيرة والاموال النادرة التي يتسابق لشرائها الامراء وأعيان البلد ، ومرت الايام وسمع التاجر ان قافلة عظيمة يحرسها كماة شجعان سترحل الى بلاد الصين للمقايضة والمتاجرة فعزم على أن يرسل معها بضائع له لانه يعلم ان الربح الوفير فيها مضمون ولما كان أبناؤه بعيدين في مناكب الارض أوكل (زيرك) بالاشراف على تجارته هذه وأخبره بذلك فأسرع التابع الامين الى والديه العجوزين واخبرهما بالثقة العظيمة التي أولاها اياه سيده وقدم لهما ما يحتاجان من النفقات لمدة طويلة ثم ودعهما ومضى مع القافلة يذرع الارض الواسعة ويطوي السهول والحزون وهو يقايض بالبضائع في كل بلدة يدخلها حتى مروا بطريقهم في صحراء قاحلة وبعد مسيرة ايام انهكهم واضناهم التعب والهبت الشمس المحرقة جلودهم وقلوبهم حتى اظلمت الدنيا في أعينهم ويئسوا من النجاة وبينما هم في هذه الدوامة من الحيرة اذا باشجار تلوح لهم من بعيد فاسرعوا اليها فوجدوا واحة صغيرة في وسطها بئر فأسرعوا لاستقاء الماء وأنزلوا الدلاء فكان كل دلو يمتلىء ثم يرتفع وحالما يصل نصف عمق

البئر تمتد يد وتفرغ مافيه ولم يكن للخيار سبيل امامهم فاما ان ينالـــوا الري من هذه البئر واما يهلكوا عطشا ولهذا تبرع أحد الشجعان للنزول في البئر ومقارعة صاحب هذه اليد فنزل ولكنه لم يرجع وتبعه ثان فلم يكن نصيبه أفضل من الاول وهنا ثارت النخوة في نفس (زيرك) فتقدم وطلب النزول فربط بالحبال وتدلى حتى وصل منتصف البئر فاذا بفتحة واسعة ما كاد يصلها حتى امتدت اليه يد وسحبته الى داخلها ويالهول ما رأى ، لقد رأى غولا عظيما يرتعب لمنظره أشجع الشجعان وعـلى ركبتيه أمتـان احداهما بيضاء مشرقة تخجل البدر حسنا لم تر العين مثلها فتنة وسحرا والثانية سوداء تنفر النفس من منظرها ولما استوى امام الغول بادره قائلا : أيها الانسي سأوجه اليك سؤالا ان أجبت عنه اجابة مرضية مقنعة أكرمتك وأغنيتك وسمحت لك ولاصحابك بالاستقاء من هذه البئر والا كان نصيبك الموت كصاحبيك ، فرد عليه (زيرك) : سل ما تريد فقال الغول : أيهما أجمل الأمة البيضاء أم السوداء ففكر طويلا وردد مع نفسه قائلا ان عينت واحدة منهما رد علي « انا افضل الاخرى » وكان نصيبي الهلاك وبعـــد امعان ومضت في مخيلته فكرة جعلت الدنيا تشرق في عينيه فرد عليه قائلا «العين ما تشتهي والقلب ما يهوى» فطرب الغول لهذا الجواب وقال : أجدت أيها الانسي لقد وهبت ذكاء نادرا اذ أن الحسن يختلف مقياسه بين شخص وآخر وللناس فيما يعشقون مذاهب ثم قدم له هـــدايا ثمينة من اللآلىء والاحجار الكريمة لا تقدر بثمن وسمح له بالخروج والاستقاء من البئر فأخذت القافلة حاجتها من الماء وشرع افرادها ينظرون الى زيرك باجلال واعظام وجعلوه رئيسا ومرشدا في جميع المراحل وبعد سفرة موفقة عادوا الى بلدتهم محملين بأثمن السلع والارباح الطائلة وأخبر التجار سيد زيرك بما قام به وكيف أنقذهم وما حظي به من الغنـائم التي تجعله أثـرى من جميعهم ففرح لذلك وهنأه ودارت الايام وأقام هذا التابع الوفي لنفســـه

تجارة منفصلة عن سيده وذاع صيته في البلاد وكان يغدق العطايا على والديه اللذين كانا يخفيان أموالهما في باطن الارض لانهما يعلمان ان المال عرضة للسلب والاغتصاب وبخاصة اذا اضطربت احوال البلد وعمت الفوضى والفتن أما ولدهما فلم يكن يبالي بذلك وشاءت الصدف أن تشتعل حروب ضروس بين مليكهم ومليك البلاد المجاورة تغلبت فيها جيوش الاعداء ودخلت مدينتهم واحرقتها ونهبت جميع ما فيها من أموال واذا « بزيرك » يصبح فقيرا معدما بين عشية وضحاها لا يملك شروى نقير ولكن والديه كانا يمدانه بما يقيم أوده من الاموال التي طمراها في الارض وبما يجعله يحيا حياة كريمة عزيزة بين أقرانه وبقي على هذه الحال حتى أتاه شيخ وقور من اصدقاء الاسفار وقعدا معا يتحدثان عن أمور الدنيا فاذا به يعرض عليه ان يتزوج ابنته الوحيدة لانه معجب به وبذكائه وشجاعته ثم زوجه اياها وبعد حين توفي وترك لابنته ثروة طائلة فطلبت الزوجة من زيرك ان يتجهز للسفر في التجارة كما اعتاد سابقا وقدمت له مايحتاج من المال فمضى مع جماعة من التجار يجولون الاقطار وينتقلون من مدينة الى أخرى حتى حطوا في مدينة غريبة الاطوار اذ وجدوا فيها منارة من جماجم فسألوا عن ذلك فلم يخبرهم أحد وأخيرا وجدوا طفلا فقيرا أغروه بالمال فقال لهم ان للسلطان ابنة لا يدانيها أحد جمالا وذكاء وقد قرر ألا يزوجها الا من رجل يقدم لها لغزا لا تتمكن من حله وان فشل في ذلك وحلت لغزه فمصيره الموت أو دفع دية كبيرة مع مصادرة جميع أمواله وهذه المنارة شيدت من جماجم العشاق التعساء الذين قطعوا أقاصي البلاد ليلقوا حتفهم هنا على يد والد الاميرة الظالم ولهذا ترى الناس لايخبرون غريبا عن قصة الجماجم لئلا يغروه بطلب الاميرة فيكونوا سببا في هلاكه وما كاد (زيرك) ورفاقه يسمعون القصة حتى لعبت فيهم روح المغامرة وقادتهم غزيرتهم في اقتحام الاهوال الى الذهاب الى السلطان وطلب يد الاميرة فتقدم الاول وفشل

وافتدى نفسه وصودرت امواله وهكذا الثاني والثالث حتى جـاء دور « زيرك » ففشل ايضا وقدم ما معه من مال افتداء لنفسه وعاد مع رفاقـه الى بلدته صفر اليدين وقلبه يكاد يضطرم حزنا لفشله وشوقا الى الاميرة التي وقع في حبها بعدما رأى جمالها وخبر ذكاءها ولما رأت زوجـه ما ألم به من أسى وكانت تحبه حبا جما قدمت له ما بقي لها من مال وطلبت منه ان يجهز نفسه للمتاجرة به ولابد ان ينجح في مسعاه هذه المرة ظنا منها انه خسر المال في المرة السابقة في التجارة ولكنه لم يكن احسن حظا من المرة الاولى اذ تغلبت عليه الاميرة وقدم لها ما معه من مال ليفدي نفسه وعاد صفر اليدين كئيبا واجما تلتهب أحشاؤه غيظـا لما حل به وما كاد يستقر به المقـام حتى ثارت نفسه وطلب المجازفة للمرة التالية والاخيرة فاما الظفر بما يريد حيث المجد والغنى واما الموت الزؤام حيث تعلـق جمجمته فوق المنـارة التي شيدت من جماجم الضحايا السابقين ولـكنه لم يجد لديه مالا ليشتري به حصانا يوصله الى مقصده وثيابا جميلة تظهره بالمظهر اللائق بهذا المطلب فحار في امره وبينما هو مستغرق في خيالاتـه أومضت في رأسه فكرة انتفض على أثرها مسرعا ومضى الى والده وطلب منه ان يعينه بما ادخره من مال في تحقيق مأربه ولكن والده امتنع خوفا على ولده من الموت لا خوفا على المال فاخذ يتوسل به فلم تجد توسلاته وهنـا اشتد غضبه وقبض على والده وهو في حالة أشبه ما تكون بحالات الجنون واخذ يوسعه ضربا ولكما حتى لبى طلباته واعطاه مائة دينار أسرع بهـا الى السوق واشترى حصانا كريما ترتاح العين لمرآه وبعد ذلك مضى الى والدته فمانعت ولكنه كرر معها ما فعله مع والده واوسعها ضربا حتـى خضعت له وأعطته مائة دينار اشترى بها بزة ثمينة وسلاحا ثم امتطى جواده مسرعا الى بلـدة الاميرة لا هم له الا الظفر بها أو الموت دون ذلك وبينما هو يقطع البوادي عطش ولم يجد ماء ليشربه فأخذ يمتص عرق فرسـه ليروي ظمأه وهكذا وبعد سفر طويل وصل مدينة الجماجم وقبـل ان

يطلب الاذن بالدخول على الملك فكر في نفسه قائلا : ان الافا من الرجال فشلوا امام الاميرة التي حلت الغازهم مهما كانت صعبة فلابد انها مطلعة اطلاعا تاما على جميع الالغاز والاحاجي ولهذا لا يمكن لأحد أن يتغلب عليها من هذه الناحية وبعد تفكير طويل قرر أن يجعل منه ومن أسفاره هذه لغزا فدخل عليها وقال : من الذي ركب أباه ولبس أمه وشرب ماء ليس من السماء وليس من الارض ؟ فوقفت الاميرة مشدوهة ولم تحر جوابا وطلبت منه ان يمهلها ثلاثة ايام ففعل وارسلت اليه من يحتال عليه ليطلع على سره فلم تجد هذه المحاولة من قبلها واخيرا اعلنت استسلامها له وفسر لها اللغز قائلا المقصود به هو انا الذي امامك فقد أخذت من والدي مائة دينار واشتريت بها حصانا ركبته ومن والدتي مائة دينار اشتريت بها ثيابا وسلاحا لبستهما وشربت في الطريق من شدةالعطش عرق جوادي وهو ماء ليس من السماء ولا من الارض وذلك شوقا اليك فعظم في عينها وهفا قلبها اليه وأعلنت الافراح وتزوج منها وعين نائبا للسلطان ثم ارسل من يجلب له زوجته وابويه واسكنهم في قصره وبعد زمن قصير توفي الملك فنصب سلطانا عوضا عنه وحكم الناس بالعدل والمساواة فعم الخصب البلاد ولاحت السعادة على أسارير الناس وانتشر الامن في جميع الربوع ووهب امراء من زوجته الاميرة اسندت الى كبيرهم ولاية العهد كما وهب امراء من زوجه الاولى لم يقلوا ذكاء وشجاعة عن اخوانهم وبقوا كذلك يحيون في سعادة ونعيم حتى داهمهم الموت منغص اللذات ومفرق الأحباب(*) .

(*) في هذه الحكاية نجد البطولة في مجال الذكاء والتفكير والخلق القويم لا في ساحة الوغى ومقارعة الاقران فهي من هذه الناحية تختلف عن الحكايات الاخرى وتجعل هذه السجايا سببا في تقدم البطل ونيله أعظم المناصب حتى نال عرش البلاد بعد ان كان من عامة الناس ، كما نجد تهافت الناس على الحب والمجد في رمز منارة الجماجم واستصغارهم الاخطار والموت في سبيل ذلك وهذا يطابق رأي فرويد في ان الغريزة الجنسية لها اكبر الاثر في توجيه حياة الانسان .

٢١
تضحية أخت

كان ما كان والله ينصر السلطان كان في احد الاقطار ملك جبار تدين له العباد وتسير في ركابه الفرسان الشداد وقد حباه الله بكل ما يتمنى انسان من رفعة وجاه وعظمة وغنى ووهبه اثنى عشر اميرا كأنهم نجوم السماء اشراقا وعلو همة غير انه كان يتمنى ان ترزق زوجه باميرة تكون كالوردة الفواحة في رحاب قصره تكسبه جمالا وبهاء ولكن الاقدار لم تشأ أن تلبي ما يريد دون مقابل وبخاصة بعدما سئمت من دعائه والحاحه على الكهان والسحرة ان يتوسطوا له بتحقيق ما يتمناه ، وفي احدى الليالي بينما هو يغط في نومه اذا بشبح مخيف يلوح له في الحلم ويوقظه ويقول له « لقد ملت السماء من طلبك وأخيرا قررت تلبية ما أردت ولكن اعلم ايها الملك ان زوجك حالما تلد الفتاة يجب ان تقتل اولادك الاثني عشر أو تحل عليك اللعنة وعلى شعبك جميعا فلا يبقى منكم أحد ولا ينجي أولادك من هذه اللعنة الا ان يهربوا من المملكة فلاتقع عليهم عيناك طوال عمرك » فاستيقظ وهو يرتجف من الخوف والاسى واخبر زوجه بما سمع واعد اثنى عشر تابوتا لأولاده ليرضي القدر وأخبرهم بما طلب منه ورجاهم أن يتريثوا في ضاحية بعيدة عن حاضرة الملك حتى يوم ولادة الملكة فان ولدت بنتا رفع العلم الاحمر وعليهم أن يهربوا وان رفع العلم الابيض فلا خوف عليهم وليسرعوا الى قصر والدهم ليعيدوا حياتهم السعيدة السابقة ، فانتظروا هنالك شهورا حتى حانت ساعة المخاض فاذا بالملكة تلد فتاة جميلة كانها البدر فتنة واشراقا فرفع العلم الاحمر فوق القصر فعرف الأبناء بما حدث وأعدوا أنفسهم للرحيل وفارقوا بلادهم وأهلهم بالدموع

والحسرات وأخذوا يقطعون الارض الواسعة حتى وصلوا غابة جميلة فيها كل ما تشتهي النفس من أثمار وأمواه عذبة فاختاروا محلا في وسطها وبنوا لهم دارا واخذوا يتقاسمون العمل فيما بينهم فبعضهم يعد الطعام واخر يأتي بالحطب والخشب للنار وثالث ينظف الدار ورابع يهتم بتربية الحيوانات الداجنة ويتعهد بسقي الحديقة أو بجلب الماء من منبع قريب وهكذا وكانوا كل يوم بعد ان يكملوا اعمالهم اليومية يخرجون الى الصيد يتدربون على رمي السهام والقتال بالرمح والسيف حتى صاروا مطمح أنظار جميع سكان المنطقة يضرب بهم المثل في شجاعتهم ومهارتهم وذكائهم ولم يغب عنهم غير شيء واحد لم يعرفوا كنهه الا بعد فوات الاوان وهو ان الغابة التي يقيمون فيها مسحورة وكل من يتقبل زهرة من زهراتها تقدم اليه من فتاة يتحول الى غراب .

ومرت السنون تلو السنين وكبرت اختهم وكانت تحس بوطأة الشقاء في قصر والدها دون ان تعلم السبب لانها كلما سألت عما يدور في خاطرها لم تلق جوابا وشاءت الصدف أن تدخل على والدتها في مساء أحد الايام فرأتها تخرج اثني عشر ثوبا من خزانة وتذرف الدموع عليها فتقربت منها وأخذت تتوسل اليها أن تخبرها بجلية الأمر فقصت عليها الحكاية من أولها الى آخرها ولما انتهت أجابتها الاميرة اني آسفة لما حدث وان مجيئي الى هذه الدنيا كان لعنة على اخواني وعليك وعلى والدي وكم اتمنى ان أهلك لتزول هذه اللعنة ولكن ليس ذلك في يدي وعلي من الان أن أرحل لافتش عن اخوتي وأحيا بينهم وأقوم برعايتهم وتدبير امورهم حتى تحين مشيئة الاقدار فترفع هذه الشدة عنا وأعدت لها ما تحتاجه في السفر وطلبت من والدها أن يأمر نخبة من أشجع فرسانه بمرافقتها وأخذت تطوي البلاد وتقطع السهول والحزون وتمر من بلدة الى اخرى تفتش عن ضالتها المنشودة واخوتها الاثني عشر حتى مرت بغابتهم وقد أجهدها السفر

وضلت الطريق بين اشجارها المتكاثفة وعلى حين فجـــأة لاح لها الاخ الاصغر فنظرت اليه فرأته يشبهها تمام الشبه فتقدمت وطلبت منه المعونة ورجته ان يضيفها مع اتباعها ليلقوا بعض الراحة من عناء السفر بعدمـــا واصلت الليل بالنهـار متابعة الأسفار ولكنه حالمـا رآها أخذ قلبه يخفق ميلا اليها فدعاها الى دارهم واسرع الى اخوته ليخبرهم بما يدور في خلده بان هذه الفتاة اخته ولما حضروا طلبوا منها ان تخبرهم عن بلادها وعـــن وجهتها وحالما كشفت لهم النقاب عن حقيقتها اسرعوا اليها يعلنون فرحتهم بقدومها وطربهم ببقائهـا بينهم وأظهروا أسفهم لمـا كتب عليهم وأخذوا يظهرون حنينهم الى بلادهم وأهلهم وتمنوا لو تلين الاقدار فترفع اللعنـة الماثلة فوق رؤوسهم ليعودوا كما كانوا في صغرهم يسرحون ويمرحون بين مراتع الصبا وكنف الأهل والأقرباء ولكن لا قبل للانسان بما يكتبه له الغيب وما تسطره يد الحدثان .

ودارت الايام وخرجت الاميرة في يوم من أيام الربيع تجول في الغابة فرأت في بقعة منها ازهارا فاتنة لم تشاهد مثلها في حياتها فأعجبت بـــها وقطفت منها اثنتي عشرة زهرة وقالت سأقدمها لاخوتي لتكون رمزا للمحبة والاخلاص وعادت الى الدار ولما عاد اخوتها من الصيد تقدمت ووضعت في صدر كل واحد منهم زهرة من هذه الزهرات العجيبة النادرة وما كادت تنتهي من مهمتها حتى رأتهم يرتجفون وفي لمح البصر ينقلبون الى اثني عشر غرابا ضخما تشمئز منهم النفوس فحارت في امرها واعتراها حزن وخوف شديدان وأخذت تجول وتجول في الغـابة على غـير هدى وهم يتبعونها في شكلهم الجديد ويحومون حولها لحراستها وهدايتها وبينما هي في حيرتها وجدت امرأة عجوزا تسكن في كوخ منعزل فطلبت منهـــا أن تسمح لها بالاستراحة عندها بعض الوقت فرحبت بها وقدمت لها الطعام والشراب ولما رأت علائم الحزن على محياها أخذت تستفسر عن جليـــة

الأمر وترجو منها أن تخبرها بما أهمها وآلمها فقصت عليها قصتها فأطرقت العجوز هنيهة ثم قالت : ان هذه الغابة مسحورة وإن كل فتاة تقطع منها زهرة وتقدمها لرجل فلابد له ان ينقلب الى غراب ولا يمكن ارجاعه الى بشر سوي الا اذا قضت تلك الفتاة سبع سنين متوالية كئيبة لا تضحك ولاتفوه ولو بكلمة واحدة فاذا فعلت ذلك عاد اخوتك الى حالتهم بعد هذه المدة فصممت الاخت على تنفيذ ما طلب منها وواصلت السير لتعود الى أهلها ولكن احد الامراء شاهدها واعجب بجمالها وسحرها وتزوج منها قسرا وعاشت معه في قصره وهي لا تضحك ولا تتكلم وكم حاول أن يجرها ولو لحظة الى الابتسام وكم حاول ان يجعلها تلفظ ولو كلمة واحدة ولكن محاولاته كانت تبوء بالفشل ولا يحظى بما يريد وكان لها ضرة تكرهها وتحاول ان تتخلص منها لانها حظيت بمحبة الملك دونها فدبت عقارب الحسد في صدرها ودبرت لها المكائد للايقاع بها فلم تتمكن لأن الملك يهيم بها غراما حتى مر في تلك البلدة ساحر عظيم فاتصلت به وطلبت منه المعونة لانقاذها من حزنها فتقدم الى السلطان وطلب منه ان يسمح له بمعالجة زوجه الحبيبة الى قلبه وبعد محاولات عديدة اسر اليه قائلا انها لانقص فيها ولكن يظهر انها امرأة ساحرة وانني اخشى عليك وعلى رعيتك منها ومن لعنتها ولا ينجيك من ذلك الا احراقها بالنار حيث يزول شرها عنك وعن بلادك ، فصدق الملك كلامه واخذ يشكر الاقدار التي لم تمسه بسوء طوال هذه المدة واعد خشبا وحطبا في ساحة خارج المدينة وطلب من الناس أن يخرجوا لمشاهدة الساحرة اللعينة تحرق وكان يوم احراقها هو اليوم الاخير من السنوات السبع التي قضتها لاتضحك ولا تتكلم وكان بمقدورها أن تبوح للملك بسرها وتدافع عن نفسها وتخبره عن والديها فتوقع بعدوتها وبالساحر الذي اعانها ولكنها علمت أنها ان

فعلت ذلك فسوف يقضى على اخوانها وسيبقون غربانا يعيشون في الغابات ويقتاتون الجيف فصممت على أن تضحي بنفسها وتهلك في سبيلهم وفي الساعة المحددة عصرا اقتيدت الى خارج المدينة وامسك اثنان من الجلادين بها ليقوداها مقيدة الى وسط كومة الخشب حيث ستحرق ولكن ما كادت تقترب حتى هجم اثنا عشر غرابا على الجلادين وأوسعنهما نقرا ففرا ثم أقبلت الغربان من المرأة المسكينة تحاول فك الحبال عنها واطلاق سراحها وما كدن يفعلن ذلك حتى احتار الملك واهتاج وجعل ما جرى دليلا قاطعا على صدق ما روي له عنها فأمر جنوده أن يتقدموا ويحملوها قسرا الى حيث تحرق فحملت وكانت الشمس قد آذنت بالمغيب لتعلن عن نهاية آخر يوم من الايام السوداء المشؤومة من السنين السبع التي كتب عـــلى الاميرة أن تقضـيها حزينة خرساء ثم تقدموا لاشعال النار حولها وفعلوا ذلك ولكن ســرعان ما انقضت الغربان الاثنا عشر وتعاونّ فيما بينهن وحملنها بعيدا في الهواء لينقذنها فتبعهم الملك وأتباعه وكانت آخر لحظة من هذه السنين قد تولت ويا لشدة عجبهم حين رأوا الاميرة تبتسم وتضحك وتخاطب اثني عشر رجلا يزهون شجاعة وقوة وذكاء فتقدم العاهل العظيم منهم وهنا أخبرته زوجه بقصتها ففرح لنجاتها وأمر بشنق الساحر وزوجه الاخرى الماكرة الحسود واقيمت الافراح في المدينة وارتفعت منزلتهـا في عينه بعـدما علم عظم تضحيتها وبعدما علم أنها اميرة ابنة ملك عظيم وبعد انقضاء الافراح أرسل من يستخبر عن حميه فعاد الرسول وأخبره أنه قد توفي وان الناس ينتظرون عودة ابنائه ليتسلموا زمام الامور بعد زوال اللعنة عنهم فعادوا وتوج الامير الاكبر ملكا على البلاد وقسم السلطة على اخوانه الاخرين الذين أعانوه في ادارة المملكة وحكمها وعاش الجميع في سعادة ووفاق

ونعمت الرعيـــة بالطمأنينة والعدل والغنى حتى داهمهم مفرق الاحباب ومنغص اللذات(*) .

(*) هذه الحكاية تنظر نظرة اكبار للمرأة وتضفي عليها أروع الصفات واعظم السجايا بعكس ما نراه في غيرها ولهذاجعلت بطلة القصة مثالا للتضحية والايثار والوفاء فهي تتقبل الموت صابرة ولا تفوه بكلمة واحدة تؤدي الى نجاتها لان هذه الكلمة آلتي ستتفوه بها تؤدي الى هلاك اخوتها وبقائهم في افظع حالة وأقبحها وتجعلهم حتى نهاية العمر غربانا لاترتاح العين لمرآهم بينما لو دققنا النظر في اكثر الحكايات الاخرى لوجدناها تشكك في المرأة وتصفها بالخيانة وقلة الوفاء والتقلب في الاهواء وتدعو الناس الى اخذ الحيطة منها كما تخص اكثر الاحيان النساء العجائز بالسحر وارتكاب الشر واحيانا أخرى تأتي بهن سعالي في زي نساء طاهرات يخفين طبيعتهن الوحشية للفتك بضحاياهن ولعل هـذه الصورة البشعة لهن رمز لصفـة فظيعة غير حقيقية يريد القصاص الصاقها بالمرأة .

ومن ناحية اخرى نجد السحر يفك الحكاية عندما تصفو الامور وعندما تتعقد فبالسحر يتحول الامراء الى غربان وبنصيحة ساحرة يرجعون الى حالتهم الاصلية وهكذا الانسان يتعلق بالخيال كلما وجد نفسه ضعيفاتجاه أمر من الامور فيرضي نفسه ولكن الواقع يكذب هذا الخيال حين يصطدم بصخرته فيطير هباء ولعل تحويل الانسان الى أي مخلوق آخر من حيوان وغيره فكرة تشابه تناسخ الارواح او مقتبسة منها .

ونجد في هذه الحكاية درسا اخلاقيا فالمشاكل لا تبدأ الا عندما حاول الملك والح على أن يحقق رغبته فاغتاظت الاقدار وأوقعته مع أولاده في هذه المآسي ولهذا فهي توصي الانسان بأن يكون قنوعا شكورا وبخاصة اذا اقبلت الدنيا وابتسمت له وجعلت حياته تشرق بالسعادة والعز والغنى .

٢٢
المنصف وعديم الانصاف

كان ما كان وعلى الله التكلان كانت امرأة عجوز تعيش في بلدة من البلدان ولها ولد وحيد يدعى « منصفا » يكد الليل والنهار ويواصل العشي بالاسحار في طلب القوت والحياة الكريمة دون جدوى لان الاقدار لحكمة مجهولة أبت له ولامه الا الحاجة والطوى وبعد صبر طويل وعناء شديد اخبر والدته انه عزم على الرحيل من بلدته الى بلاد الله الواسعة لعل الدهر يفتح له أبواب العز والغنى والسعادة ، وطلب منها ان تعد له زادا للسفر وطعاما يكفيه أياما عديدة حذرا من صروف الزمان ومن عقبات الطريق وبعد ان اكمل حاجياته ودعها ومضى محاطا بدعواتها التي كانت تنطلق صعدا الى السماء فتفتح لها ابوابها لانها كانت دعوات صادقة من أم اشقتها الايام ورمتها بالحرمان .

وبينما هو يواصل الرحيل التقى بحلف اسفار مثله فتصادقا وتآلفا واخذا يجوبان الارض سوية حتى حان موعد الطعام فقال منصف لصاحبه لقد تآخينا ويجب أن يشاطر بعضنا بعضا في كل شيء فاما أن نبدأ بطعامك واما أن نبدأ بطعامي فأجابه نبدأ بطعامك أولا فأكلا من زاده وأخذا يواصلان رحيلهما أياما نفذ ما معه فيها فلما حان بعد ذلك موعد الطعام انتحى صاحبه ناحية وأخرج زاده وأخذ يأكل وحده فطلب منصف منه أن يشاركه كما فعل معه سابقا فاجابه اني لا اسمح لك ان تأكل من طعامي لاني اخشى ان ينفذ قبل ان نصل الى ناحية معمورة فأموت جوعا فرد عليه ولكنني ناصفتك طعامي قبلا والمروءة والشرف يقضيان عليك ان ترد لي ما قدمته لك فردّ عليه : ألا تعلم ان اسمي « عديم الانصاف » ؟

ومعناه ضد معنى اسمك فكف عن الحاحك اذ لاجدوى من كلامك معي ، ثم افترقا فأخذ منصف يقطع الطريق مخادعا بطنه بفتات يابسة لاتجدي كانت آخر ما تبقى في زوادته حتى قاربت الشمس على المغيب واخذ الظلام ينشر استاره السوداء فحار في أمره وبينما هو في حيرته رأى مغارة قربه فاتجه اليها ووجد له في احدى زواياها ملجأ يقضي فيه ليلته وما كاد يغمض عينه عله يغفو فيريحه النوم من التعب ويسكت صراخ معدته الذي أقضّ مضجعه من الجوع اذا به يسمع دبيب أقدام أسد وذئب وثعلب يقتربون من مغارته ويحادثون بعضهم بعضا فأخذت فرائصه ترتعد من الخوف وأصاخ اليهم السمع فانتهى الى اذنيه حديث الاسد قائلا **اني أشم رائحة انسان في هذا الكهف فلندخل ولنفتش لنتحرى صحة هذا الشك ، فرد عليه الذئب** والثعلب قائلين ان ما **تشعر به هو رائحة ضحاياك الذين افترستهم هذا اليوم** ولا أعتقد ان انسانا يمكن أن يقترب من عرينك مهما أوتي من شجاعة ثم قعدوا بجوار الكهف واخذوا يتبادلون الاحاديث والاسمار قبل موعد النوم فقال الاسد : لو ان ابن آدم يعلم أي كنز يوجد تحتنا لتفانى في سبيل الوصول الى هذه الناحية وحفر هذه البقعة اذ فيها كنوز لاتثمن من الذهب والفضة والاحجار الكريمة ، ولكنه لحسن الحظ يجهل ذلك وستبقى لنا ولأحفادنا ، **فرد عليه الذئب قائلا : ولكن يوجد شيء أثمن من هذه الكنوز ففي القرية المجاورة كلبة مسنة تنبح طول الليل ولا تدع** لي مجالا لاصطياد أي طعام لي ولو كان شاة صغيرة وهذه الكلبة لو أحرق رأسها وطحن حتى يصير كالكحل لكان دواء شافيا لامراض العين يدع العمي يبصرون ويعيد اليهم عيونهم صحيحة جميلة وما كاد ينتهي من حديثه حتى انبرى الثعلب قائلا : وأنا أعرف كنزا أثمن مما ذكرتما ففي قرية تقع على مسافة عشرة فراسخ شمالا توجد شاة من أجمل الشياه في

قطيع الدهقان تجلب اليمن والسعادة لكل من امتلكها وتجعله غنيا وتقرب منه صولجان الحكم والسيادة وحتى الملك مهما كان مركزه ، وبعد أن انتهوا من احاديثهم سكتوا عن الكلام وغلبهم النعاس ونام المنصف معهم ولم يستيقظ الا والشمس في كبد السماء فأسرع خارجا من الكهف وهو لا يكاد يصدق بالنجاة وأتى الى المحل الذي خبيء فيه الكنز كما وصفه الاسد فحفر حتى استخرجه وأخذ منه ما خف حمله وغلا ثمنه وأسرع يقطع الارض سهولها وحزونها حتى حط به الرحال في مدينة كبيرة فاستقر بها واشترى له قصرا وأقام تجارة واسعة وكان يتردد بين الحين والحين الى مستقر الكنز فيحمل قسما منه حتى لم يبق شيء الا ونقله الى قصره ، واشترى القرى والبساتين تسرح فيها قطعانه ثم بعد ذلك اخذ يفكر في الشاة فعزم على اقتنائها مهما كلفه الامر ومهما طلب منه ثمنا لها فسافر مرتحلا حتى وصل الى القرية التي هي فيها فنزل ضيفا عند مالكها دهقان تلك الناحية واخذ يحادثه حتى جعله يطلعه على قطعان الماشية التي يملكها ويصف له نوعها النادر وكيف أنها تمتاز بسرعة نموها وبدرها الغزير وبينما هو يسير بين هذه القطعان لاحت له الشاة الجميلة كما وصفها الثعلب فاقترب منها وطلب من الدهقان أن يبيعها له او يهديها لان قلبه هفا اليها فلم يرد طلبه بل اجابه اليه حالا ولم يدر انها مصدر الخير الذي عم ماله وماشيته فاخذها وعاد وتركها في قطيع يسرح في حقل مجاور لقصر اشتراه قبل مدة ففاض عليه الخير وأظله الرخاء والسعادة حتى عينه السلطان دون ان يعلم حاكما على المدينة ، وفي احد الايام بينما كان في احدى الليالي يتسامر مع بعض اصدقائه المقربين اذا بأحدهم يخبره ان الاميرة في المدينة المجاورة اصيبت بداء افقدها البصر وقد اعيا شفاؤها نطس الاطباء وقد حار والدها في أمره لانها ابنته الوحيدة حتى عرض على من يتمكن من شفائها

الزواج منها وتنصيبه وليا للعهد والا قتل وعلقت جمجمته في منارة وسط المدينة فتذكر المنصف حديث الذئب فأسرع الى القرية التي تعيش فيها تلك الكلبة ونزل في دار مجاورة لصاحبها حيث كانت تقيم امرأة عجوز وكان يتزيا بزي الدراويش ورجال الدين فاكرمته كما أغدق عليهـــا العطاء من ناحيته وبعد حين اخبرها بما أتى من اجله فوعدته خيرا وفي ظهيرة احد الايام احتالت على الكلبة حتى ادخلتها خفية الى دارهـــا ثم خنقتها وقطعت رأسها وقدمته له فأسرع ودفن جسدها حتى لا يكتشفه احد ثم اوقد نارا واحرق فيها الرأس حتى غدا كأنه قطعة من الجمر ثم دقه حتى صارت ذراته دقيقة كالكحل ثم وضـع ما حصل عليه بعـد ذلك في قارورة وأسرع مرتحلا الى مدينة الاميرة العمياء ومشى مـــن امام قصرها وهو ينـــادي « طبيب يعيد الى العمي البصر » فناداه أحـــد حاشية الملك واخذ ينصحه خوفا على شبابه ويرجو منه ان يبتعد عـــن المدينة لان شفاء الاميرة غير ممكن وسيكون نصيبه الموت ان دعاه الملك لمعالجتها ثم اراه منارة عالية وقال له : انظر اليها انها تحتوي جماجـــم الاطباء الذين جاؤوا طمعا في شفاء الاميرة ونيل صولجان الملك ولكنهم راحـوا ضـحية غـرورهم وطموحهم فلم يوافقـه المنصف على نصيحته واجابه انا متأكد من مقدرتي على شفائها ورجاه ان يتوسط بالاسراع في دعوته لمعالجتها ، فلمـا رأى الحاحه وأحس بصدقه وقوة عزمه دخـل على مليكه المنكوب وأخبره بالطبيب الجـــديد فأمر بالاســراع في دعوته فدخل المنصف وطلب مقابلة الاميرة حالا وماكاد يضع في عينيها ذرات من دوائه حتى عـاد اليهـا البصر وحتى عـادت عيناهـا جميلتين فاتنتين لاتدانيهما أي عينين في سحرهما وروعتهما ففـــرح الملك وعقد زواج ابنته عليه وجعله وليا لعهده وارسل من ينقل أمواله وقطعانه الى عاصمة الملك كما أرسل من يجلب والدته العجوز معززة مكرمة لتحيـا في كنف

ولدها الذي جعلت منه الايام رجلا عظيما واميرا جليلا تخر أمامـــــه الشجعان هيبة واحتراما وبعد سنين رزق بأمراء كانوا كالنجوم في سماء دولته وبعد ان انتقل حموه الملك الى دنيا الفناء اسند اليه صولجان المُلك فحكم بالعدل ونشر السلام والطمأنينة بين رعيتـه وصـار عهده أحسن العهود يذكره الناس بالأجلال وصارت مملـكته ارفع الممالك وأعظمهـا ومن أروع ما حـدث له انـه خرج مرة للصيد مع جماعة من فرسانه الشجعان وشاهدوا سربا من الظبـاء فطاردوه ولم يجدوا أنفسهم الا في وسط صحراء وقد اشتد بهم الجوع والظمأ فحاروا في امرهم وأخـذوا يتلفتون يمينـــا وشمالا فلاحت لهم من بعـد واحـة خضراء كالأمـــل الباسم بعد اليأس فاتجهوا اليها ووجدوا عدة شجرات من أشجار النخيل الباسقة ترويها عين تنساب مياهها بينها في مجاريها فتنشر الخصب وتبعث الحياة فيما حولها ولم يكن في تلك الواحة الا عائلة فقيرة فما كاد يراهم رب الدار حتى أسرع هاشا بوجههم ونحر لهم شاة وقام بخدمتهم خير قيام رغم فقره وشدة حاجته وبعد الانتهاء من الطعام قدم له الملك شـعارا صغيرا وقال له اذا وجدت نفسك في ضيق وحاجة فاقصد المدينة المجاورة واطلب من أي رجل تراه ان يرشدك الى صاحب هذا الشعار ثم ودعه ومضى عائدا الى حاضرة ملكه ومرت الأعوام وخرج الملك ثانيـــة الى الصيد وتذكر مضيفه القديم فأحب أن يزوره ليطلع على أمره وهو معجب من عدم مجيئه اليه طلبا للمعونة رغم فقره وحاجته ولكن ما كاد يصل الى واحته حتى رآها تفيض بالرعاة والماشية والخدم والاماء كأن صاحبها أمير تحف به حاشيته وبعد ان اديت حقوق الضيافة له اتجه الى رب الدار مستفسرا عن مصدر هذا الغنى والجاه بعد الفقر المدقع فرد عليه وقد علم بمركزه : يا صاحب الجلالة لقد اشتدت بي الحاجة بعد رحيلك الاول فتحاملت الى المدينة لاطلب مساعدتك وسألت عنك حتى ارشدت

الى قصرك ولما طلبت مقابلتك قالوا لي انتظر لانه يصلي ويدعو من الخالق ان ينصره ويرفع شأنه وشأن رعيته فقلت لنفسي : ان كان هو يطلب من الخالق فلماذا اقصده ؟ ولماذا لا أتوكل على من يتوكل هو عليه فعدت الى واحتي وانا مسند أمري الى الله تعالى وما كدت أصلها حتى هبت ريح أطارت خيمتي من موضعها فأمسكت بها واخذت ادق الاوتاد واربطها ثانية وعندما حاولت دق الوتد الاخير وجدته قد اصطدم بحجر كانت ترن تحته وتمنعه من الدخول الى الارض فتعجبت من ذلك وبخاصة أنا اعرف ان منطقتي لا صخور فيها فحفرت موضعه وما أشد دهشتي عندما رأيت صخرة كبيرة زعزعتها عن موضعها فوجدت تحتها قبوا فلما نزلت فيه شاهدت كنوزا لا يحصيها العد فحمدت الله تعالى وكان ما ترى الآن من غناي ونعمتي فتعجب الملك من امره وعاد من عنده شاكرا له صدقه واتخذه صديقا وحليفا وكان يزوره بين الحين والحين ويوكل اليه أمور الاشراف على تلك المنطقة ونشر الأمن واحقاق الحق فيها .

ومرت الايام وبينما هو يسير متنكرا في شوارع عاصمة ملكه لاح له صديقه العاق القديم « عديم الانصاف » فوجده في حالة مزرية قد أنهكه الحرمان والتعب وظهرت علائم البؤس في محياه فحزن لما حل به وتغلبت على قلبه عاطفة الرأفة والشفقة بدلا من عاطفة الحقد عليه لما فعله به وقال مخاطبا نفسه : لو لم يفعل ما فعل لما تمكنت من الوصول الى هذه المنزلة العظيمة من المجد والغنى والجاه ، فاقترب منه وسلم عليه وطلب منه ان يرافقه فأخذه الى قصره فبهت « عديم الانصاف » واخذت فرائصه ترتعد من الخوف واخذ يتوسل مستعطفا من الملك طالبا الرحمة وهو ينادي يا سيدي انني لم أقم بأي عمل يستحق غضبك فاصفح عني واطلق سراحي ، فرد عليه الملك مطمئنا اياه قائلا له لا تخش شيئا بل

انظر الي بامعان فانا صديقك القديم الذي رافقك في السفر قبل عشرات السنين ولم ترض حينذاك أن تقاسمني طعامك بعد ان قاسمتك طعامي حتى نفد ما عندي ولكن ذلك العمل منك جر علي هذا الخير واوصلني الى ما أنا فيه من العظمة والمجد والغنى ثم قص عليه ما حدث له بعد ان افترقا وطلب منه راجيا أن يقيم في مملكته معززا مكرما وسيغدق عليه العطاء حتى يجعله من اغنى الاغنياء في البلاد وسيرفع منزلته فلما سمع عديم الانصاف ما سمع وعرف ما حل بصاحبه من الحظ السعيد دبت عقارب الغيرة والحسد في احشائه ورفض كل ما عرض عليه رغم الالحاح الشديد ورجا من الملك أن يرشده الى مستقر الأسد والذئب والثعلب لعله يسمع منهن عن كنوز وأشياء غريبة تضعه في منزلة عظيمة سامية كصاحبه فارشده الى موضعهن وهو يعلم ان الاقدار العادلة هي التي جعلته يتصرف كما رأى ليلقى جزاءه العادل وبعد أيام عديدة سار مع جماعة من فرسانه الاشداء ليفتش عنه وفي ناحية من نواحي الكهف الذي كان فاتحة سعادته ومجده وجد عظاما طرية مبعثرة وجمجمة هي جمجمة صاحبه الخائن القديم فامر بجمعها ودفنها في محل قريب وبناء نصب فوقه كتب عليه « لقد كان عديم الانصاف فلم ينصفه القدر وكان جزاؤه ان صار وجبة شهية للوحوش » وبعد سنين عديدة انقضت بالعز والسعادة داهمه مفرق الاحباب ومنغص اللذات فمضى الى الدار الآخرة مشيعا بالعبرات تاركا وراءه امراء كالنجوم رفعة وسناء يحرسون ملكه ويخلدون ذكره (*)

(*) يلعب القدر في هذه الحكاية الدور الرئيس فيرفع من يشاء ويهلك من يشاء فهو الذى رفع المنصف واهلك عديم الانصاف ونال الاول ما نال دون أن يكون له أى استعداد فطري ودون ان يبذل مجهودا أو مشقة ولكن حكم القدر هنا لا يحيد عن طريق العدالة واحقاق الحق وعقاب الجاني فهو يكافىء الصالح الطيب القلب الذى يثق بالناس ويبذل ما عنده كما فعل مع المنصف الذي وثق بصديقه ولم يخامره شك فيه فلما خانه ذلك =

= الصديق أخذ القضاء بيده وجعله غنيا ذا منزلة مرموقة ولم يكتف بهذا حتى جعله ملكا مهيب الشان يدين الناس لحكمه اما الخائن اللئيم ذو القلب الاسود فقد كان نصيبه الفقر المدقع ولم يكتف القدر بما رماه به بل جعله اخيرا طعاما سائغا لوحوش الفلاة تفترسه وتمزقه شر ممزق جزاء حسده وانانيته فالحكاية هنا تدعو الناس بطريقة غير مباشرة الى الحب والايثار والوفاء وتحذرهم من اللؤم والحسد والانانية ٠

ومن ناحية ثانية نجد في حوادثها اشارة الى اعتقاد الناس بأشياء تجلب لهم الخير والفأل الحسن كالشاة التى من يمتلكها ينل الغنى والجاه والتوفيق وقد كانت هذه الفكرة ولا تزال سائدة بين المجتمعات ولعل بعض الصدف جعلت كثيرين منهم يؤمنون بها ولو دققنا النظر فيما يتشاءم منه الانسان وما يتفاءل لوجدنا على الاكثر المخلوقات الجميلة المنظر او الصوت تبعث الطمأنينة الى نفسه فيرجو خيرا عندما يراها وبالعكس المخلوقات او الاشياء القبيحة تجعله ينفر منها فيحذر من الشر بعد رؤيتها ولهذا كان الغراب منذ القديم مثالا للشؤم وكانت الحمامة مثالا للسعد ٠

ومن ناحية ثالثة نجد الحكاية هنا تحقق مطمحا عن طريق الخيال طالما سعى الانسان لتحقيقه عن طريق الواقع فلم يتمكن وهذا المطمح هو شفاء الامراض المستعصية التي لا يرجى شفاؤها وشفاء العاهات وبخاصة العمى فكم حاول الناس ان ينقذوا العين التي هي نافذتهم المضيئة في هذه الحياة يطلون منها على الكون ولكن دون جدوى اذ كان الكثيرون يفقدون حاسة البصر ويعيشون في ظلام دامس وشقاء مرير ولكن الحكاية حققت الشفاء عن طريق دواء عجيب لو وضع في عين صحيحة لجعلها في أشد حالات المرض وهدد صاحبها بالعمى ٠

الفهرست

الموضوع	الصفحة
المقـــدمة	٣
تاريخ الحكاية	٥
الانسان والطبيعة والكون فى الحكاية	٩
الانسان والفناء في الحكاية	١٢
الحكاية تعويض عن واقع الانسان	١٦
الحكاية سجل يتحدث عن أقدم الحوادث الطبيعية والتأريخية التى مرت على الانسان	١٩
الحكاية نقد رمزي للحكام والمجتمع	٢٢
لماذا كان معظم ابطال الحكايات ملوكا وامراء ؟	٢٥
الحكاية فتحت الطريق أمام الانسان للتقدم	٢٩
الحكاية والانسان	٣٣
مصادر الحكايات التى تدور في مجتمعنا	٣٥
الحكاية والاسماء	٣٧
الحكاية والحب	٣٩
تشابه الحكايات	٤١
حكايات الامثال	٤٣
العاقل والمجنون	٥١
الملك واولاده الثلاثة	٥٤
الشيخ الساحر	٦٠
صاحب الخيمة الزرقاء	٧١
الجندي والملك	٧٩

الموضوع	الصفحة
لا تصنع معروفا مع بني آدم	٨٧
العصا السحرية	٩٤
الامير نورالزمان والاميرة فتيت الرمان	٩٩
العميان الثلاثة	١٠٧
ابنــة الاب	١١٣
الصديق الوفي	١١٨
السرادق السحري	١٢٣
الثاني عشر	١٣٠
اللص	١٣٥
القصر المسحور	١٤٠
قليل الانصاف	١٤٦
الخيارات الثلاث	١٥١
النصيب	١٦٠
التفاحة المسحورة	١٦٧
اللغـز	١٧٥
تضحية أخت	١٨٠
المنصف وعديم الانصاف	١٨٦

وزارة الاعلام

مديرية الثقافة العامة

صدر عن هذه السلسلة المطبوعات التالية :

اسم الكتاب	المؤلف	ثمن النسخة فلس
١ ـ رائد الموسيقى العربية :	عبدالحميد العلوجى	٢٠٠
٢ ـ معجم الموسيقى العربية :	حسين على محفوظ	٢٠٠
٣ ـ جولة في علوم الموسيقى العربية	ميخائيل خليل الله ويردي	٠٥٠
٤ ـ الحرية	ابراهيم الخال	١٠٠
٥ ـ موجز دليل آثار سامراء	سالم الالوسي	٥٠
٦ ـ موجز دليل آثار الكوفة	سالم الالوسي	٥٠
٧ ـ النظام القانوني للموءسسات العامة والتأميم في القانون العراقي	حامد مصطفى	٣٥٠
٨ ـ علي محمود طه الشاعر والانسان	انور المعداوي	٢٠٠
٩ ـ مؤلفات ابن الجوزى	عبدالحميد العلوجي	٢٥٠
١٠ـ ابو تمام الطائي	خضر الطائي	١٥٠
١١ـ من شعرائنا المنسيين	عبدالله الجبوري	٢٠٠
١٢ـ محمد كرد على	جمال الدين الالوسي	٣٠٠
١٣ـ ادباء المؤتمر	عبدالرزاق الهلالى	٢٠٠
١٤ـ بدر شاكر السياب	عبدالجبار داود البصري	١٥٠
١٥ـ الواقعية فى الادب	عباس خضر	٢٠٠
١٦ـ شعراء الواحدة	نعمان ماهر الكنعاني	١٥٠
١٧ـ لقاء عند بوابة مندلبوم	احمد فوزى	٢٠٠
١٨ـ خسرناها معركة ولن نخسرها حرب	فيصل حسون	٢٠٠
١٩ـ عطر وحبر	عبدالحميد العلوجي	٣٥٠

اسم الكتاب	المؤلف	ثمن النسخة فلس
٢٠ـ الدبلوماسية في النظرية والتطبيق	فاضل زكي محمد	٣٠٠
٢١ـ من عيون الشعر	مختارات ناجي القشطيني	٤٥٠
٢٢ـ من الكتب ... وعليها	عبدالوهاب الامين	٣٠٠
٢٣ـ مقال في الشعر العراقي الحديث	عبدالجبار داود البصري	١٥٠
٢٤ـ مع الاعلام	جميل الجبوري	٣٠٠
٢٥ـ محاكمات تاريخية	مدحت الجادر	١٢٠
٢٦ـ سنتان في المغرب	جابر الفؤادي	٢٠٠
٢٧ـ دراسات تأملية	شاكر حسن ال سعيد	١٧٥
٢٨ـ العقاد وتطوره الفكري	عبدالحميد دياب	٢٨٠
٢٩ـ الادب والثورة	عبدالله نيازي	١٤٠
٣٠ـ الاب انستاس ماري الكرملي	عامر رشيد السامرائي	٥٠
٣١ـ في ذكرى الاب الكرملي ، الراهب العلامة	سالم الالوسي	١٠٠
٣٢ـ الادب التكاملي	عبدالجبار داود البصري	٢٠٠

ثمن النسخة ٢٠/٠ فلس

المؤسسة العامة للصحافة والطباعة
مطبعة الجمهورية - بغداد
١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م

Princeton University Library
32101 073828806